

أزاهير التفسير

الجزء الأول

المقدمات وتفسير سورة الفاتحة



﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(ص 29).

أزاهير التفسير

(الجزء الأول)

المقدمات وتفسير الفاتحة

(لأعلمنَّك أعظمَ سورة في القرآن!
هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم الذي أُوتِيتُه)
رواه البخاري.

تأليف: محمد عمر دولة

الطبعة الأولى:
1428 هـ/ 2007م

آيات ممهدات

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (ص 29).

****

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر 17)0

****

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق 37)0

****

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد 24)0

****

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء 9).

****

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (يونس 57).

****

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (فاطر 29-30)0

****

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (الأعراف170).

أحاديث مهمات

عن عُثمانﷺ : (خَيرُكم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَه)
رواه البخاري.
****
عن أبي أمامة الباهليﷺ قال: سمعتُ رسولَ اللهﷺ يقول:
(اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه)
رواه مسلم.
****
عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيﷺ قال: (لا حَسَدَ إلاّ في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ القرآن فهو يقومُ به آناء الليل وآناء النهار، ورجلٌ آتاه اللهُ مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار). رواه البخاري ومسلم.
****
عن أبي مسعود الأنصاريﷺ عن النبيﷺ قال:
(يؤمُّ الناسَ أقرؤهم لكتابِ الله تعالى).
رواه مسلم.
****
عن جابر ﷺ (أنَّ النبيَّﷺ كان يجمعُ بين الرَّجُلَين من قتلى أُحُد، ثم يقول: أيُّهما أكثرُ أخذاً للقرآن؟ فإن أشيرَ إلى أحدِهما؛ قَدَّمَه في اللَّحْد). رواه البخاري.
****
قال عُمرﷺ: (إنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْفَعُ بِهَذَا الكتابِ أقْواماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرين). رواه مسلم.
****
عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:
(كان القُرَّاءُ أصحابَ مجلسِ عمرﷺ ومُشاوَرتِه كُهُولاً وشَباباً).
رواه البخاري.

إهداء:

✿ إلى أهلِ القرآنِ

العالِمين العامِلين به

الذين..

﴿صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم

مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ

وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً﴾

التوبة 23.

تمهيد:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه الطيِّبين الطاهرين.
وبعد، فهذا - بحمد الله وعَونِه - الجزء الأول من (أزاهير التفسير)، ويتضمن (مقدمات التفسير وسورة الفاتحة)، ويشتمل على فصلين:

۞ الفصل الأول: المقدمات العامة:

ويشتمل على سبعة مباحث:

۞ المبحث الأول: مُقَدِّمَةُ أَزَاهِيرِ التَّفْسِيرِ:

ويتناول النقاط التالية:

1) امْتنان الله عزَّ وجلَّ على عبادِه بنعمةِ القرآن.

2) تفسير القرآنِ مِن أعظمِ العُلومِ وأنفعِها.

3) عِلم الصحابة ﷺ كان عِلْمَ القرآنِ والسُّنة.

4) عِلم القرآنِ خيرُ العلومِ.

5) القرآنُ عنوانُ الهدايةِ والسعادة.

6) العِنايةُ بكتابِ الله تجمَعُ خيرَ الدنيا والآخرة.

7) قارىء القرآن في ولايةِ اللهِ وحِفْظِه وكَلاءَتِه.

8) قارىء القرآن في مَعِيَّةِ الرَّحمن.

9) العِنايةُ بالقرآنِ سَبيلُ المفلِحين

10) القرآنُ كتابُ عِبرةٍ ومَوعظةٍ وذِكْرى.

11) القرآنُ كتابُ عِلمٍ وحِكمةٍ وتزكية.

12) القرآنُ يُعينُ على تربية الخُشُوع.

13) النبيُّ ﷺ أكمل الناسِ فَهْماً للقرآن وعملا به.

14) فَهمُ الصدِّيقِ والفارُوقِ للقرآن.

15) فَهمُ الصَّحابةِ الكرام ﭬ للقرآن.

16) تدبر القرآن واجبٌ على كل مسلم.

17) القرآن حُجةٌ لك أو عليك.

18) المحروم من حُرِمَ نُورَ القرآن.

19) لا خسران أعظم من الإعراض عن القرآن.

20) لا سعادة تعدل سعادة الإقبال على القرآن.

۞ المبحث الثاني: أهدافُ الأزاهير:

ويتضمن ما يلي:

1) تقريب التفسيرِ من التالين كِتابَ الله:

2) جَمْعُ مَحاسِنِ التفسير:

3) النصيحةُ ورد كيدِ الكافرين:

4) إنقاذُ كلِّ مَفتُونٍ مَخْدُوعٍ:

5) تيسيرُ تدبُّرِ القرآن:

6)العناية بنشرِ الفهمِ الصحيحِ للقرآن:

7) تنقية التفسير من الشوائب:

8) إحياء الوظيفةِ التربوية للتفسير:

9) تيسير التفسير لعامة المسلمين:

10) تصحيحُ الصورةِ المشوَّهة لأساليبِ المفسِّرين:

۞ المبحث الثالث: مَنهجُ أزاهيرِ التفسير:

ويشتمل على ما يلي:

[1] مُراعاة الاختصار وتركُ الإطنابِ والاستطراد:

[2] التزام منهج السلف في البحث:

[3] تفسير الآيات القرآنية بالأحاديث النبوية:

[4] انتقاءُ الأزاهير:

[5] العنايةُ بدلالات الإشارةِ.

[6] الاهتمامُ بالنواحي الجمالية:

[7] العناية بطُرُقِ التربية وفقهِ الدعوةِ.

[8] ذِكْرُ ما يتعلق بهمومِ المسلمين:

[9] الاستيعابُ وبيانُ الصواب:

[10] مُراعاةُ التنوُّع والتوثيق:

۞ المبحث الرابع: سؤالٌ وجوابٌ

لماذا قطفَتُ (الأزاهير) مِن كلامِ أهلِ التفسير؟

1) لا يُمْكِنُ فَهْمُ القرآنِ إلا مِن طريقِ المفسِّرين.

2) أنَّ المفسِّرين استفرَغُوا الوُسْعَ في تدبُّرِ الآيات.

3) أنَّ نُورَ القرآنِ لا يُؤتاه إلا مَن استنارَ قلبُه، وصَلُحَ باطِنُه وظاهرُه.

4) توفيق اللهِ للمفسِّرين الصالحين.

۞ المبحث الخامس: الاستماع إلى القرآن

ويتضمن ما يلي:

1) معاني السماع في اللغة:

2) معاني السماع في القرآن:

3) فقه السماع مِن الغير:

4) شروط الانتفاع بالقرآن:

5) استماع الأذن واستماع القلب:

6) الطاعة من اعظم معاني الاستماع:

7) معركة الاستماع إلى القرآن:

8) الفوز بالرحمة من ثمرات الاستماع:

9) الاستماع علامة المحبّة:

10) شتّان بين سَماعٍ وسَماع!

۞ المبحث السادس: سُبُلُ الانْتِفَاعِ بالقُرْآن

ويشتمل على ما يلي:

1) فضلُ الاستمساكِ بالقرآن:

2) فضلُ صاحبِ القرآنِ:

3) فضلُ تدبُّرِ القرآن:

4) ما يتعلّقُ بنيةِ القراءة:

5) ما يتعلّقُ بصفةِ القراءة:

6) ما يَتعلّقُ بالفَهْمِ والعَمل:

۞ المبحث السابع: الإحسان في تحبير القرآن

ويتضمن ما يلي:

1) ثناء القرآن على حُسنِ قراءة داود عليه السلام:

2) التحبير في اللغة:

3) التحبير صفةُ قراءةِ النبي ﷺ:

4) استحباب ترتيلِ القرآنِ:

5) الحث على تحبيرِ الصوت بالقرآن:

6) الحَثُّ على التغنّي بالقرآن:

7) ثَمرةُ تحسينِ الصوتِ بالقرآن:

8) ضَوابطُ تحسينِ الصوت بالقرآن:

اولا: ان يكون التحبيرُ خالِصاً لِوَجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

ثانياً: مُراعاةُ الاعتدالِ والبُعدُ عن التمطيط:

ثالثاً: مُراعاة الخشوع:

رابعاً: أن لا يكون التحبيرُ بقصدِ التطريب.

خامساً: ان لا يكون التحبيرُ بغرضِ التكسُّب.

9) وصيةُ ابنِ ابي مُلَيكة﵁:

10) مَوْعِظة:

الفصل الثاني: تفسير الفاتحة:

المبحث الأول: مَدخلٌ إلى سُورَة الفاتحة:

أولا: بين الفاتحة وحديث (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين):

ثانيا: من أسرار قراءة الفاتحة في كل ركعة:

ثالثا: أسماء سورة الفاتحة:

رابعا: سِرُّ افتتاح القرآن بسورة الفاتحة:

خامسا: سورة الفاتحة مكية:

سادسا: الفاتحة أعظم سورة في القرآن:

سابعا: الفاتحة شفاء:

ثامنا: فاتحة الكتاب نور:

تاسعا: الفاتحة جامعة لأغراض القرآن:

عاشرا: الفاتحة تهدي إلى كمالِ العُبُودية:

۞ المبحث الثاني: تفسير الاستعاذة

أولا: دليل الاستعاذة في القرآن:

ثانيا: معنى الاستعاذة:

ثالثا: الاستعاذة عند القراء:

رابعا: حِكمةُ الاستعاذة:

خامسا: حُكم الاستعاذة:

سادسا: أسرارُ سَنِّ الاستعاذة عند قراءة القرآن:

سابعا: آيات الاستعاذة من الشيطان:

ثامنا: آداب الاستعاذة في أخلاقِ النبوة:

تاسعا: الاستعاذة إطفاء لنار الغضب:

عاشرا: من لطائف الاستعاذة:

۞ المبحث الثالث: تفسير البسملة:

أولا: الاسم والمسمى:

ثانيا: علاقة البسملة بالألوهية:

ثالثا: الرحمنُ صفةُ ذاتٍ والرحيمُ صفةُ فعلٍ:

رابعا: الرحمة عامة وخاصة:

خامسا: دلالة الإضمار في البسملة:

سادسا: استحباب الافتتاح بالبسملة:

سابعا: حكمة البدء بالبسملة:

ثامنا: البسملةُ سببٌ لِحُضورِ القلب:

تاسعا: البسملة من أسباب النجاة:

عاشرا: حُسنُ عاقبةِ مَن عظّم اسمَ الله:

۞ المبحث الرابع: تفسير الحمد

أولا: تعريف الحمد:

ثانياً: الحمدُ اعترافٌ برُبُوبية الله:

ثالثاً: الرُّبوبية وصفاء العقيدة:

رابعا: الحمدُ سعادة:

خامسا: الجمع بين الألوهية والربوبية والملك:

سادسا: الرُّبوبيةُ رحمةٌ للعالمين:

سابعا: فضائل الحمد:

ثامنا: الحمد والشكر:

تاسعا: تربية الله خلقه:

عاشرا: وُجُوهُ المحامد:

۞ المبحث الخامس: الرحمة

أولا: حكمة تكرار الرحمة في الفاتحة:

ثانيا: الفرق بين الرحمن والرحيم:

ثالثا: حُسنُ الظنِّ بالله واسعِ الرحمة:

۞ المبحث السادس: الملك

أولا: عظمة هذه الآية:

ثانيا: المراد بالدِّين في هذه الآية:

ثالثا: الجمع بين ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ و﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

رابعا: معنى ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

خامسا: دلالة تخصيص يوم الدين بالملك:

سادسا: حكمة تقديم ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ على ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

سابعا: مُناسَبة تقديم العذابِ على الرحمةِ في بعض الآيات.

ثامنا: تقرير ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ الإيمانَ باليوم الآخر.

تاسعا: مُناسَبة صفاتِ الربِّ والرحمنِ والمالكِ للحمد:

عاشرا: ثمار عقيدة الإيمان بـ﴿ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

✿ المبحث السابع: العبادة والاستعانة:

أولا: معنى العبادة:

ثانيا: الدلالة الاجتماعية لفِعْلَيْ ﴿ نَعۡبُدُ ﴾ و﴿ نَسۡتَعِينُ ﴾:

ثالثا: أفضلُ العبادة:

رابعا: حكمة تقديم (العبادة) على (الاستعانة):

خامسا: مُداواةُ القلب بـ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

سادسا: من لطائف الالتفاتِ في هذه الآية.

سابعا: التوسُّل بالعُبودية.

ثامنا: الاستعانة توكُّلٌ على المعبود.

تاسعا: العُبودية والاستعانة بالله تحرُّرٌ مِن عُبوديةِ سواه.

عاشرا: العُبُودية منهجٌ للإصلاح في الأرض.

✿ المبحث الثامن: الهداية

أولا: معنى الهداية.

ثانيا: الهدايةُ أعظمُ المطالبِ.

ثالثا: أنواع الهداية.

رابعا: الهداية نجاة من الضلالة.

خامسا: الهداية سلامةٌ من فتن الدنيا والآخرة.

سادسا: الدعاء بالهداية طلبٌ للتثبيت.

سابعا: التوجه بالثناء بين يَدَي الدعاء.

ثامنا: من آداب الدعاء.

✪ المبحث التاسع: صِراط القُدوات:

أولا: سِرُّ إضافةِ الصراطِ إلى المنعَم عليهم.

ثانيا: تعريف المغضوب عليهم والضالّين.

ثالثا: أقسامُ الناس بِحَسَبِ العِلم والعَمل.

رابعا: ختمُ الفاتحة بالتأمينِ سُنَّةٌ.

✪ المبحث العاشر: خاتمة تفسير الفاتحة:

الفصل الأول:

المقدمات العامة:

المبحث الأول: مُقدِّمَةُ أزَاهِير التَّفْسِير
المبحث الثاني: أهدافُ الأزاهير
المبحث الثالث: مَنهجُ أزاهير التفسير
المبحث الرابع: سؤالٌ وجوابٌ
المبحث الخامس: الاستماع إلى القرآن
المبحث السادس: سُبُلُ الانْتِفَاع بالقُرْآن
المبحث السابع: الإحسان في تحبير القرآن

۞ المبحث الأول:
مُقَدِّمَةُ أزَاهِير التَّفْسِير:

المبحث الأول: مُقَدِّمَةُ أزَاهِير التَّفْسِير:

1) امتنان الله عزّ وجلّ على عبادِه بنعمةِ القرآن.
2) تفسير القرآنِ مِن أعظمِ العُلومِ وأنفعِها.
3) عِلم الصحابة ﷺ كان عِلْمَ القرآنِ والسُّنة.
4) عِلم القرآنِ خيرُ العلوم.
5) القرآنُ عنوانُ الهدايةِ والسعادةِ.
6) العِنايةُ بكتابِ الله تجمعُ خيرَ الدنيا والآخرة.
7) قارىء القرآن في ولايةِ اللهِ وحِفْظِه وكَلاءَتِه.
8) قارىء القرآن في معِيَّةِ الرَّحمن.
9) العِنايةُ بالقرآنِ سَبيلُ المفلِحِين.
10) القرآنُ كتابُ عِبرةٍ ومَوعظةٍ وذِكْرى.
11) القرآنُ كِتابُ عِلمٍ وحِكمةٍ وتزكِية.
12) القرآنُ يُعين على تربيةِ الخشوع.
13) النبيُّ ﷺ أكمل الناسِ فَهْماً للقرآن وعملا به.
14) فَهمُ الصدّيقِ والفاروقِ رضي الله عنهما للقرآن.
15) فَهمُ الصَّحابةِ الكِرام ﷺ للقرآن.
16) تدبر القرآنِ واجبٌ على كل مسلم.
17) القرآن حُجةٌ لكِ أو عليك.
18) المحروم من حُرم من نور القرآن.
19) لا خسران أعظم من الإعراض عن القرآن.
20) لا سعادة تعدل سعادة الإقبال على القرآن.

الحمد لله الرحمن الرحيم القريب المجيب، والصلاةُ والسلام على الحبيب الذي كان يُطيِّب بعرقِه الطِّيب، ويحِنُّ إلى كفِّه الغُصنُ الرَّطيب، وتنبعُ من بينِ أصابعِه الشريفة قِراحُ العُيون، وتُشفى بأناملِه قُروحُ الجفون، ومَن قال الله تعالى فيه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء 107)

وعلى آلِه وصَحبِه أجمعين، ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين. وبعد،

1) فقد امْتَنَّ الله عزَّ وجلَّ على عبادِه بنعمةِ القرآن، فقال الله جلَّ جلاله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ (الرحمن1-4)0 قال السعدي رحمه الله:

"أي علَّم عِبادَه ألفاظَه ومَعانِيَه، ويسَّرَها على عِبادِه؛ وهذا أعظمُ مِنَّةٍ ورحمةٍ رَحِمَ بها عبادَه: حيث أنزلَ عليهم قرآناً عربياً بأحسنِ ألفاظٍ وأحسنِ تفسير، مُشتمِلٍ على كلِّ خير، زاجِرٍ عن كلِّ شرٍّ" [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص 828].

2) ولا شكَّ أنَّ تفسيرَ القرآنِ مِن أعظمِ العُلومِ وأنفعِها وأجلِّها وأكملِها، كما قال ابنُ الجوزي رحمه الله: "لَمَّا كان القرآنُ العزيزُ أشرفَ العُلوم؛ كان الفَهمُ لِمَعانيه أوفَى الفُهُوم؛ لأنَّ شرفَ العِلمِ بِشرَفِ المعلوم" [زاد المسير 1/1]. وصدَقَ رَحِمَه الله؛ فقد قال العلماء:

وإذا طَلبتَ العِلمَ فاعْلَمْ أنه
حِمْلٌ فأبْصِرْ أيَّ حِمْلٍ تَحْمِلُ!
وإذا عَلِمْتَ بأنه مُتفاضِلٌ
فاشْغَلْ فُؤادَك بالذي هو أفضلُ!

ولكنْ مِنَ الناسِ في زمانِنا الذي كثرت فيه الهزيمةُ النفسيةُ مَن فُتِنَ بالثقافاتِ الأجنبيةِ والآدابِ الغربيةِ وظنَّ العِلمَ قاصراً على ما عند الغربِ المتغلِّب؛ فهجَرَ الآدابَ العربيةَ والعُلومَ الإسلامية لاسيما القرآنَ والسُّنَّةَ النبوية، كما قال ابنُ منظور قبلَ سَبعةِ قُرُونٍ في مقدمة (لسانِ العرب): "كَتبتُه في زَمنٍ أهلُه بغيرِ لُغَتِه يفخَرُون، وصَنعتُه كما صَنعَ نوحٌ الفُلكَ وقومُه منه يسخَرُون"!

3) إنَّ عِلمَ الصحابة الذي تَلَقَّوه مِن النبيِّ ﷺ كان عِلْمَ القرآنِ والسُّنة، كما جاء في حديث حذيفة ﷺ: (إنَّ الأمانةَ نزلَتْ في جَذْرِ قُلوبِ الرِّجال [قال ابن حجر رحمه الله: "الجذر بالفتح، ويجوز الكسر: الأصلُ من كلِ شيء". هدي الساري مقدمة فتح الباري 97/1] ثم عَلِمُوا من القرآن، ثم عَلِمُوا من السُّنة) [رواه البخاري 2382/5، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، حديث 6132. و2596/6، كتاب الفتن، باب إذا بقي في حثالة من الناس، حديث 6675. و2695/6، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، حديث 6848. ورواه مسلم 126/1، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب، حديث 143].

وقال عَلِيٌّ ﷺ لأبي جُحَيْفة حين سألَه: (هلْ عِندَكم شيءٌ مِن الوَحيِ إلا ما في كتابِ الله؟ قال: والذي فلقَ الحبةَ وبرأ النَّسَمَةَ ما أعْلَمُه إلا فَهماً يُعطِيه الله رجلا في القرآنِ وما في هذه الصحيفة، قلتُ: وما في الصحيفة؟ قال: العقلُ وفكاكُ الأسير وأن لا يُقتلَ مسلمٌ بكافر) [صحيح البخاري 1110/3، كتاب الجهاد، باب فكاك الأسير، حديث 2882. و2531/6، كتاب الديات، باب العاقلة، حديث 6507. و2534/6، كتاب الديات، باب لا يقتل المسلم بالكافر، حديث 6517. قال ابن حجر: "قوله (باب العاقلة) بكسر القاف جمع عاقل وهو دافع الدية وسميت الدية عقلا تسمية بالمصدر؛ لأن الإبل كانت تعقل بفناء ولي القتيل ثم كثر الاستعمال حتى أطلق العقل على الدية ولو لم تكن إبلا وعاقلة الرجل قراباته من قبل الأب وهم عصبته وهم الذين كانوا يعقلون الإبل على باب ولي المقتول". فتح الباري 246/12].

ورحِمَ اللهُ ابنَ القيم حيث قال: "سُبْحانَ الله! ماذا حُرِمَ المُعْرِضُون عن نُصوصِ الوحيِ واقتباسِ العِلمِ مِن مِشْكاتِه مِن كُنُوزِ الذخائر؟! وماذا فاتَهُم مِن حياةِ القلوبِ واستِنارةِ البصائر"! [مدارج السالكين 5/1].

4) ولا رَيبَ أنَّ عِلمَ القرآنِ خيرُ العلومِ، كما قال النبيُّ ﷺ في حديثِ عُثمان ﷺ: (خَيرُكم مَن تعلَّمَ القرآنَ

وعلَّمَه!) [رواه البخاري في صحيحه 1919/4، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه، حديث 4739].

وقال الله عزَّ وجل:﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (العنكبوت 49). قال ابنُ كثير رحمه الله: "أيْ هذا القرآنُ آياتٌ بيِّنةٌ واضحةٌ في الدلالةِ على الحقِّ أمراً ونَهياً وخَبَراً يحفظُه العلماءُ؛ يَسَّرَه الله عليهم حِفظاً وتِلاوةً وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر 17)0

وقال رسولُ اللهﷺ: (ما من نبيٍّ إلا وقد أُعْطِيَ ما آمَنَ على مثلِه البشر؛ وإنما كان الذي أُوتِيتُه وحياً أَوْحاه الله إلَيّ؛ فأرجُو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامة) [رواه الشيخان عن أبي هريرة، صحيح البخاري 1905/4، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، حديث 4696، و2654/6، كتاب الاعتصام، باب بعثت بجوامع الكلم، حديث 6846. وصحيح مسلم 134/1، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة رآه محمدﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، حديث 152]. وفي حديث عِياضِ بن حِمار في صحيح مسلم: (يقول الله تعالى: إني مُبتَلِيك ومُبْتَلٍ بك ومُنَزِّلٌ عليك كتاباً لا يَغسِلُه الماء؛ تقرؤه نائماً ويقظان) [رواه مسلم 2197/4، حديث 2865] أي لو غَسلَ الماء المحلَّ المكتوبَ فيه؛ لَما احْتِيجَ إلى ذلك المحلّ؛ لأنه قد جاء في الحديث الآخر: (لو كان القرآنُ في إهابٍ ما أحْرَقَتْه النار) [رواه الطبراني في المعجم الكبير 186/17، حديث 498]. ولأنه محفوظٌ في الصُّدُور مُيسَّرٌ على الألْسِنةِ مُهَيْمِنٌ على القُلُوبِ مُعْجِزٌ لفظاً ومعنى؛ ولهذا جاء في صِفةِ هذه الأمة: (أناجيلُهم في صُدُورهم) [رواه الطبراني في المعجم الكبير89/10، حديث 10046]" [تفسير القرآن العظيم 418/3].

وقد روى مسلمٌ رحمه الله عن أُبَيّ بن كعب قال: قال رسولُ اللهﷺ: يا أبا المنذر أتدري أيّ آيةٍ مِن كتابِ الله معك أعظم؟ قال: قلتُ: الله ورسولُه أعلَم! قال: يا أبا المنذر أتدري أيّ آيةٍ من كتابِ الله معك أعظم؟ قال: قلتُ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ

﴿ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (البقرة 255). قال: فضَربَ في صَدري، وقال: واللهِ لِيَهنِك العِلمُ أبا المنذر)! [رواه مسلم 556/1، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، حديث 810. وقال النووي رحمه الله: "قال العلماء إنما تميزت آية الكرسي بكونها أعظم؛ لِما جمعَت من أصولِ الأسماء والصفات: من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والملك والقدرة والإرادة. وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات" [شرح النووي على مسلم 94/6].

قال النووي رحمه الله: "فيه مَنقَبةٌ عظيمةٌ لأُبَيٍّ، ودليلٌ على كَثرةِ عِلمِهِ" [شرح النووي على مسلم 93/6]. وقال الذهبي رحمه الله في ترجمة أُبَيٍّ ﷺ: "سيّدُ القُراء... جمع القرآنَ في حياةِ النبي ﷺ، وعَرَضَ على النبيّ عليه السلام، وحفظَ عنه عِلماً مُباركاً، وكان رأساً في العِلمِ والعَمل ﷺ" [سير أعلام النبلاء 391/1].

5) وما ظَنُّك بِعِلْمٍ هو عِنوانُ الهدايةِ والسعادةِ في الدُّنيا والآخِرة، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (يونس 57).

وقال جلّ جلاله: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ (طه 1-2).

وقال مُؤمِنو الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ (الجن 1-2).

6) فالعِنايةُ بكتابِ الله تجمَعُ خيرَ الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء 9). وقال ﷺ في حديثِ عُثمان ﷺ: (خَيرُكم مَن تعلّمَ القرآنَ وعلّمَه) [صحيح البخاري 1919/4، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه، حديث 4739]. وقال ﷺ في حديثِ ابنِ عمر رضي الله عنهما: (لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْن: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ؛ فهو يَقومُ بِه آناءَ اللَّيْلِ وآناءَ النهار، ورجلٌ آتاه اللهُ مالاً فهو يُنْفِقُهُ آناءَ اللَّيْلِ وآناءَ النّهار) [رواه البخاري

ومسلم]. وروى النواس بن سمعان﷛ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (يُؤتَى بالقرآنِ يومَ القيامة وأهلِه الذين كانوا يعملون به تَقْدُمُه سورةُ البقرة وآلِ عمران) [صحيح مسلم بشرح النووي 90/6]. وقال ﷺ في حديثِ أبي أمامة﷛ عند مسلم رحمه الله: (اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يومَ القيامة شَفِيعاً لأصحابه؛ اقرؤوا الزهراوين: البقرةَ وآلَ عمران؛ فإنهما يأتيان يومَ القيامة كأنهما غَمامتان أو كأنهما غَيايتان، أو كأنهما فِرقانِ من طَيرٍ صَوافَّ تُحاجّان عن أصحابِهما. اقرؤوا سُورةَ البقرة فإنَّ أخذَها بَركةٌ وتركَها حَسرةٌ، ولا تستطيعُها البَطَلَة) [صحيح مسلم بشرح النووي 90/6].

قال ابنُ كثير رحمه الله: "الزهراوان: المنيرتان، والغَيايَة: ما أظلَّك مِن فوقك، والفِرْقُ: القطعة من الشيء، والصَّوافُّ: المُصْطَفَّة المُتضامَّة، والبَطَلَة: السحرة، ومعنى لا تستطيعُها: أي لا يُمْكِنهم حِفْظُها، وقيل: لا تستطيعُ النفوذَ في قارئها" [تفسير القرآن العظيم 50/1].

7) فمَن قرأ القرآنَ العظيمَ؛ كان في ولايةِ اللهِ وحِفْظِه وكَلاءَته، يَعصِمُه من شياطينِ الإنس والجن؛ فيَفِرُّون منه ويولُّون على أدبارهم نُفُوراً، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (االنحل 98-100). وقال جلَّ جلاله: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الإسراء 45-46)0 قال ابنُ كثير رحمه الله: "في مُسندِ أحمد وصحيحِ مسلم والترمذي والنسائي... عن أبي هريرة﷛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلُوا بُيُوتَكم قُبوراً؛ فإنَّ البيتَ الذي تُقرأ فيه سُورةُ البقرة لا يَدخُلُه الشيطان). وقال الترمذي: حسن صحيح" [تفسير القرآن العظيم

48/1]. وقال ابنُ كثير كذلك: "قال أبو عُبَيد... عن عبد الله ـ يعني ابنَ مسعودﷺ ـ قال: (إنَّ الشيطان يفرُّ من البيت يسمعُ فيه سورةَ البقرة). ورواه النسائي في اليومِ والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث شعبة، ثم قال: الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه" [تفسير القرآن العظيم 48/1].

وروى البخاري رحمه الله عن أبي مسعود عُقبةَ بن عمروﷺ قال: قال النبيﷺ: (من قرأ بالآيتين مِن آخرِ سُورةِ البقرة كَفَتَاه). قال ابنُ حجر رحمه الله: "(كَفَتَاه): أي أجْزأتا عنه من قيامِ الليل بالقرآن، وقيل: أجزأتا عنه عن قراءةِ القرآن مُطلقاً سواءً كان داخلَ الصلاة أم خارجَها، وقيل: معناه: أجزأتاه فيما يتعلق بالاعتقادِ؛ لِما اشتملَتا عليه من الإيمانِ والأعمالِ إجمالاً، وقيل: معناه: كفتاه كلَّ سُوء، وقيل: كفتاه شرَّ الشيطان، وقيل: دفعتا عنه شرَّ الإنسِ والجن، وقيل: معناه: كفتاه ما حصلَ له بِسبَبِهما من الثوابِ عن طَلبِ شيءٍ آخر" [فتح الباري 68/10].

8) والعَبدُ حين يقرأ القرآن يكون في مَعِيَّةِ الرَّحمنِ وصُحبةِ الآياتِ والذِّكر الحكيم؛ فهو يتفيَّأُ في كلِّ حِينٍ كلامَ المفسِّرين ويجْنِي عُلومَ الراسِخِين رحمةُ الله عليهم أجمعين. وما قرأ حرفاً إلا انتفعَ به، وكُتِب أجرُه في صحائفِه كما وَردَ في حديثِ ابنِ مسعودﷺ عند الترمذي: (لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرفٌ؛ ولكن ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ) [سنن الترمذي 175/5، كتاب فضائل القرآن عن رسول اللهﷺ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر، حديث 2910].

هذا، وكلُّ عاقلٍ يعلمُ أنَّ حاجةَ المسلمين ماسَّةٌ إلى معرفةِ مَعانِي القرآنِ؛ لاسيما في هذا الزمانِ الذي كثُرتْ فيه الفِتَنُ واستَشرى الفسادُ، وحاربَ أعداءُ الإسلامِ هذه الأمةَ في دينِها؛ فسلَّطُوا عليها غَزواً فِكريّاً وانحلالاً أخلاقيّاً؛ لتكميلِ خُطَطِهم الاستعمارية؛ فلا خَلاصَ للمُسلِمين من مِحْنَتِهم، ولا صَلاحَ لهم بعد نَكْسَتِهم إلا بالتمسُّك بهذا

القرآنِ العظيم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف170). وقال عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد 7)0 وقد روى مسلم رَحِمَه الله عن عُمر ﷺ قال: (إنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْفَعُ بِهَذَا الكتابِ أقْواماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرين). فالقرآنُ كما قال الزركشيُّ رحمه الله: "العِصمةُ الواقِيَة، والنِّعْمةُ الباقية، والحُجةُ البالِغة، والدلالةُ الدامِغة. وهو شِفاءُ الصُّدُور، والْحَكَمُ العَدْلُ عند مُشْتبهاتِ الأمُورِ، وهو الكَلامُ الجَزْلُ الفَصْلُ الذي ليس بالْهَزْل، سِراجٌ لا يَخْبُو ضِياؤه، وشِهابٌ لا يَخْبُو نُورُه وسَناؤه" [البرهان في علوم القرآن 3/1].

9) فالعِنايةُ بالقرآنِ الكريمِ سَبيلُ المفلِحِين وطريقةُ السلفِ الصالِحِين خير القرون، وقد قال النَّبيُّ ﷺ لأبي موسى الأشعري ﷺ: (لقد أوتِيتَ مِزْماراً مِن مَزامِيرِ آلِ داود) [متفقٌ عليه بلفظ: (لقد أوتِيتَ مِزْماراً مِن مزاميرِ آلِ داود)، صحيح البخاري 1925/4، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، حديث 4761، وصحيح مسلم 549/1، حديث 793]. وقال ﷺ: (إني لأعرِفُ أصواتَ رِفقةِ الأشعريين باللَّيْل حين يدخلون، وأعرِفُ منازلَهم مِن أصواتِهم بالقرآنِ باللّيْل، وإنْ كنتُ لم أرَ منازلَهم حين نَزلُوا بالنهار) [رواه الشيخان: صحيح البخاري 1547/4، حديث 3991. وصحيح مسلم 1944/4، باب من فضائلِ الأشعريين رضي الله عنهم، حديث 2499]. ولله دَرُّ أمِّ أيْمَن رضي الله عنها؛ فقد أدْرَكَتْ عظمةَ الصِّلةِ بين المسلمين وبين الكتابِ المبين، فبَكَتْ وقالت للصِّدِّيقِ والفاروقِ رضي الله عنهما كَلِمَتَها العظيمةَ: (إنَّما أبكي؛ لأنَّ الوَحْيَ قد انقَطَعَ مِن السماء!) [صحيح مسلم 1907/4، حديث 2454].

10) فالقرآنُ كتابُ عِبرةٍ ومَوعظةٍ وذِكْرى، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق 37)0 وقال جلّ جلاله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (يـــــونس 57)0 وقـــــال سبحانه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (هود 120). وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ (يس 69-70)0 قال ابنُ القيِّم رَحِمَه الله: "أيْ حَيَّ القلبِ؛ فإذا حصلَ المؤثِّرُ: وهو القرآنُ، والمحلُّ القابلُ: وهو القلبُ الحيُّ، ووُجِد الشرطُ: وهو الإصغاء، وانتفى المانعُ: وهو اشتغالُ القلبِ وذُهولُهُ عن معنى الخطابِ وانصرافُهُ عنه إلى شيءٍ آخر؛ حصلَ الأثر: وهو الانتفاعُ والتذكُّر" [الفوائد لابن القيِّم ص 9-10].

11) والقرآنُ كتابُ عِلمٍ وحِكمةٍ وتزكيةٍ، كما وَرَدَتْ الإشارةُ إلى ذلك في غير ما آيةٍ مِن كتاب الله تعالى، كما جاء في دَعْوةِ إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (البقرة 129). ووَرَدَ هذا المعنَى في سياقِ الامتِنانِ في كثير مِن الآيات، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ (البقرة 231). وقال جلَّ جلالُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ (الجمعة 2)0 وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (آل عمــران 164) . وقــال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (البقــرة 151). قــال السعدي رحمه الله: "أي: يُطهِّرُ أخلاقكم ونُفوسَكم؛ بِتَرْبِيَتِها على الأخلاق الجميلة, وتَنْزيهها عن الأخلاق

الرَّذِيلة, وذلك كتَزْكِيَتِهِم مِن الشّرك إلى التوحيد, ومِن الرِّياء إلى الإخْلاص, ومِن الكذِبِ إلى الصّدْق, ومِن الخيانةِ إلى الأمانةِ, ومِن الكِبْر إلى التواضُع, ومِن سوءِ الخلُق إلى حُسْنِ الخلُق, ومِن التباغُضِ والتهاجُر والتقاطُع إلى التحابِّ والتواصُل والتوادُد, وغير ذلك مِن أنواعِ التزكية" [تيسير الكريم الرحمن ص 74].

12) والقرآنُ كتابٌ لتربيةِ الخُشُوع والخُضُوع والإقبالِ على الله عزَّ وجلَّ، كما قال جل جلاله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الزمر 23)0 وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الحديد 16)0 وقال جلَّ جلاله: ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الإسراء 106-109). قال القرطبي رحمه الله: "هذه مُبالغةٌ في صفتِهِم ومَدْحٌ لهم. وحُقَّ لكلِّ مَن توسَّمَ بالعلمِ وحَصَّلَ منه شيئاً أن يجريَ إلى هذه المرتبة؛ فيخشع عند استماع القرآن ويتواضعَ ويَذِلَّ. وفي مسند الدّارميّ أبي محمد عن التَّيْميّ قال: مَن أُوتِيَ من العِلمِ ما لم يُبْكِهِ لَخَليقٌ ألا يكونَ أُوتِيَ عِلماً؛ لأنَّ الله تعالى نعتَ العُلماء، ثم تلا هذه الآية. ذكرَه الطبري أيضاً" [الجامع لأحكام القرآن 10/341-342].

13) وقد كان النبيُّ ﷺ أكملَ الناسِ فَهْماً للقرآن وعَملاً به، كما رَوَى مُسلِمٌ أنَّ النبيَّ ﷺ (إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وإذا مَرَّ بِسؤالٍ سَألَ، وإذا مَرَّ بتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ). فكم منّا اليومَ مَن فقهَ في كتابِ الله وتدبَّره وعمل به؛

فكان يُسبّحُ في قراءتِه ويسألُ ويتعوّذ؟ وقد قالت أُمُّنا عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن خُلُقِ النبيّ ﷺ: (كان خُلُقُه القرآن) [رواه مسلم]. وروى البخاري في (التفسير) و(فضائل القرآن) باب (مَنْ أحَبَّ أنْ يَستَمِعَ القُرآنَ مِن غيره) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: (اقْرأ عَلَيَّ. قُلْتُ: أقرأ عليك، وعَلَيْكَ أُنْزِل؟! قال: فإنّي أُحِبُّ أنْ أسْمَعَهُ مِنْ غَيْري؛ فَقَرَأتُ عَلَيْهِ سُورةَ النِّساء، حَتّى بَلَغْتُ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء 41) قال: أمْسِكْ؛ فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفان!) [فتح الباري 124/9].

14) وكان فَهمُ القرآنِ كذلك شأنَ الصدّيق والفاروق رضي الله عنهما؛ فقد قالت عائشة رضي الله عنها: (كان أبو بَكْر رَجُلاً بَكَّاءً؛ لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إذا قرأ القُرآن!) [فتح الباري 637/7]. وأخرجَ البخاري في كتاب (الأذان) باب (إذا بكى الإمامُ في الصلاة) قولَ عبدِ الله بن شداد رضي الله عنه: "سَمِعتُ نشيجَ عمر وأنا في آخر الصُّفُوف يقرأ ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (يوسف 86)" [فتح الباري 441/2].

15) ثم كان هذا دأبَ السابقِين الأوَّلِين من الصَّحابةِ الكرام رضي الله عنهم أجمعين، كما روى الشيخان واللفظ لِمسلم رحمه الله في باب (استحبابِ تحسين الصوت بالقرآن) أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأبي موسى رضي الله عنه: (لو رأيتَنِي وأنا أستمعُ لِقراءتِك البارحةَ؛ لقد أُوتِيتَ مِزْماراً مِن مزامير آلِ داود) [متفقٌ عليه بلفظ: (لقد أُوتِيتَ مِزْماراً مِن مزامير آلِ داود)، صحيح البخاري 1925/4، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، حديث 4761، وصحيح مسلم 549/1، حديث 793]. قال العُلماءُ: "المرادُ بالمزمار هنا: الصوتُ الحسن... وكان داودُ حَسنَ الصوتِ جدا" [شرح النووي على مسلم 80/6]. وروى مسلم رحمه الله في باب (استحباب قراءة القرآنِ على أهلِ الفَضل) عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ لأُبَيِّ بن كَعب: إنَّ اللهَ أمرَني

أنْ أقْرأ عليك ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ (البينة1) قال: وسَمَّاني؟ قال: نعم؛ قال: فبكى). قال النووي رحمه الله: "أما بكاؤه فبُكاءُ سرور واستِصغار لنفسِه عن تأهيلِه لِهذه النعمة وإعطائه هذه المنزلة. والنعمةُ فيها من وَجْهين: أحدُهما: كَونُه مَنصُوصاً عليه بِعَينِه؛ ولِهذا قال (سَمَّانِي؟) مَعناه: نَصَّ عَلَيَّ بِعَينِي أو قال: اقرأ على واحدٍ من أصحابك؟ قال: سَمَّاك؛ فتزايدَت النعمة. والثاني: قراءة النبي ﷺ؛ فإنها منقبةٌ عظيمةٌ لم يُشاركْهُ فيها أحدٌ من الناس, وقيل: إنَّما بَكى خَوفاً مِن تَقصِيره في شُكر هذه النعمة" [شرح النووي على مسلم 21/16].

فانْظُرْ يا رَحِمَك الله إلى هذه الصِّلةِ الربَّانيةِ بالقرآنِ الكريمِ التي وَهبَها الله للصِّدِّيقِ والفارُوقِ وأبي موسى ورُفقتِه الأشعريِّين وأُبَيٍّ وأُمِّ أيْمن رضي الله عنهم؛ فلو عَمَرَتْ قلوبُنا بالقرآن كقُلُوبِهم؛ لَنِلْنا رضا الرحمن وحصَّلنا المغانم الحسان، كما قال عزَّ وجلَّ في شأنِهم: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ ﴾ (الفتح 18-19)0

16) فتدبر القرآن واجبٌ على كل مسلم، كما قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩ ﴾ (ص 29). وقال جل جلاله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧ ﴾ (ق 37)0 وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤ ﴾ (محمد 24)0 وقال جلَّ جلالُه: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧ ﴾ (القمر 17)0

17) القرآن حُجةٌ لك أو عليك:

والله ما وَجَدتُ عبارةً أعَنْونُ بها هنا أبلَغَ من هذا الحديث الشريف الذي رواه مسلمٌ رحمه الله: (القُرآنُ حُجَّةٌ لكَ أو

عَلَيْك)! ورَحِمَ اللهِ القرطبيَّ حيث قال: "فما أحقَّ مَن عَلِمَ كِتابَ اللّه؛ أن يَزْدَجِرَ بِنَواهِيه، ويَتذكَّرَ ما شَرَحَ له فِيه، ويَخشَى اللهَ ويَتَّقِيه، ويُراقِبه ويَستَحِيه؛ فإنه قد حَمَّلَ أعْباءَ الرُّسُلِ وصارَ شَهيداً في القيامةِ على مَنْ خالَفَ مِنْ أهْلِ المللِ، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة143). ألا وإنَّ الحُجَّةَ على مَنْ عَلِمَه فأغْفَلَهُ أوْكَدُ منها على مَنْ قَصَّرَ عنه وجَهِلَه! ومَنْ أوتِيَ عِلْمَ القُرآنِ فَلَمْ يَنْتَفِعْ، وزَجَرَتْهُ نَواهِيهِ فَلَمْ يَرْتَدِعْ، وارْتَكَبَ مِن المآثِمِ قَبِيحاً، ومِنَ الجرائمِ فَضُوحاً؛ كان القرآنُ حُجَّةً عَلَيْهِ، وخَصْماً لَدَيْه، قال رسولُ اللّه ﷺ: (القُرآنُ حُجَّةٌ لكَ أو عَلَيْك) خرَّجه مسلم" [الجامع لأحكام القرآن 1/1].

18) المحروم من حُرِمَ من نورِ القرآن:

وصَدقَ رَحِمَه اللّه؛ فيا خَيْبَةَ من أعْرضَ عن القرآنِ واتَّخَذَه ظِهْرِيّاً! وكان كالذين قال في شأنِهِم سيد قطب رحمه الله: "وَرِثُوا الكِتابَ ودَرَسُوه؛ ولَكِنَّهُمْ لمْ يَتَكَيَّفُوا به، ولمْ تَتأثَّرْ بهِ قُلوبُهم... شأنَ العقيدةِ حين تَتَحَوَّلُ إلى ثَقافةٍ تُدْرَسُ وعِلْمٍ يُحْفَظُ... هُمْ دَرَسُوا الكِتابَ وعَرَفُوا ما فِيه، بلى! ولكنَّ الدِّراسةَ لا تُجْدِي ما لَم تُخالِطْ القُلُوب؛ وكَمْ مِن دارسِين للدِّينِ وقُلوبُهم عنهُ بعيد؟... وهل آفةُ الدِّينِ إلا الذين يَدْرُسُونَهُ دِراسةً ولا يأخُذُونَهُ عَقيدةً؟!" [في ظلال القرآن 1387/9].

19) لا خسران أعظم من الإعراض عن القرآن:

فقد أنزل الله القرآن لسعادة الإنسان، كما قال الله عز وجل: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ﴾

فمن أعرض عن القرآن فقد ظلَمَ نفسَه وباء بالخسران، كما قال جل جلاله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾. (طـه123-127). **وقـال تعـالى:** ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ **السجدة 22.**

ومَن نظرَ في حالِ كثيرٍ من الناس والأممِ اليومَ؛ رأى ببصَرِه وبصيرتِه صِدْقَ هذا الكلامِ بالعيان؛ فمَن هَجَرَ القرآنَ وأقبلَ على غيرِه لم يُحصِّلْ إلا غُثاءَ الألسِنةِ ووساوسَ الشيطان، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ **إلـى قولـه:** ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ (البقـرة101-102). **قـال الـسعدي رحمـه الله: "مِـن العوائـدِ القَدَريـةِ والحِكمَـةِ الإلهيـة: أنَّ مَـنْ تَـركَ مـا يَنفعُـه وأمكنَـه الانتِفاعُ به فلَمْ يَنْتَفِـعْ؛ ابْتُلِـيَ بالاشـتِغالِ بِمـا يَـضُرُّه: فمَـن تركَ عِبادةَ الرحمن؛ ابتُلِيَ بِعِبادةِ الأوثان... ومَن تركَ الحقَّ؛ ابتُلِيَ بالباطل!" [تيسير الكريم الرحمن ص 60].**

20) لا سعادة تعدل سعادة الإقبال على القرآن:

فالقرآنُ رحمةٌ وشِـفاءٌ لِمـا فـي الـصُّدور، كمـا قـال الله عـزَّ وجـلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ **(يونس 57).**

ويا فَوْزَ مَن عاشَ في دوحةِ الإيمـانِ وريـاضِ القـرآنِ، وذاقَ ما ذاقَه سيد قطب رحمه الله (في ظلال القرآن) حين قال: "الحيـاةُ فـي ظـلالِ القُـرآنِ نعمـةٌ، نعمـةٌ لا يعرفُهـا إلا مَـنْ ذاقَها، نعمةٌ ترفعُ العُمرَ وتُباركُه وتُزكِّيه. والحمد لله؛ لقد منَّ عليَّ بالحياةِ في ظلالِ القرآن فترةً من الزمـان، ذُقـتُ فيهـا مِـن نِعمَتِـه مـا لـم أذُقْ قـطُّ فـي حيـاتي! ذُقـتُ فيهـا هـذه النِّعمةَ التي ترفعُ العُمرَ وتُباركُه وتُزكِّيهِ. لقد عِـشتُ أسـمعُ الله سـبحانه يتحـدثُ إلَـيَّ بهـذا القـرآن! أنـا العَبـدُ القليـل

الصغيرُ! أيُّ تكريمٍ للإنسانِ هذا التكريمَ العَلوي الجليل؟ أيُّ رفعةٍ للعُمر يرفعُها هذا التنزيل؟ أيُّ مَقامٍ كَريمٍ يتفضّلُ به على الإنسانِ خالقُه الكريم؟ عشتُ أتَملّى في ظلالِ القرآن ذلك التصوُّرَ الكاملَ الشاملَ الرفيعَ النظيفَ لِلوُجود، لِغايةِ الوُجودِ كلِّه، وغايةِ الوُجودِ الإنساني. وأقيسُ إليه تصوُّراتِ الجاهليةِ التي تعيشُ فيها البشرية في شرقٍ وغربٍ وفي شمال وجنوب، وأسأل كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط وفي الظلام البهيم وعندها ذلك المرتعُ الزكيُّ وذلك المرتقَى العالي وذلكَ النورُ الوضيء؟!" [مقدمة في ظلال القرآن].

ورحِمَ اللهُ القحطاني؛ حيث قال:

يا مُنْزلَ الآياتِ والفُرقانِ
بَيني وبينَك حُرْمةُ القُرآنِ!
اشرَحْ به صدري لمعرفة الهدى
واعْصِمْ به قلبي من الشيطانِ!
يَسِّرْ به أمري واقْضِ مآربي
وأجِرْ به جَسدي من النيرانِ!
واحْطُطْ به وِزْري وأخْلِصْ نيَّتي
واشْدُدْ به أزري وأصْلِحْ شاني!
واكْشِفْ به ضُرّي وحقِّقْ توبتي
وارْبِحْ به بيعي بلا خُسْرانِ!
طهِّرْ به قلبي وصَفِّ سريرتي
أجْمِلْ به ذِكري وأعْلِ مكاني!
واقطَعْ به طمعي وشرِّفْ هِمَّتي
كثِّرْ به وَرعي وأحْيِ جَناني!
أسْهِرْ به ليلي وأظْمِ جوارحي
أسْبِلْ بفيض دُموعها أجفاني!
أمْزجْه يا ربِّ بلَحمي معْ دمي
واغسلْ به قلبي من الأضغانِ!
[نونية القحطاني11-12].

۞ المبحث الثاني: أهدافُ الأزاهير:

المبحث الثاني: أهدافُ الأزاهير:

وقد أرَدتُ مِن جَمع (أزاهير التفسير) تحقيقَ أهدافٍ عديدةٍ بإذن اللهِ تعالى، منها:

[1] تقريبُ التفسيرِ من التالين كِتابَ الله:

وذلك بِجمعِ تفسيرٍ مُختصَرٍ في مجلدٍ كبيرٍ بِهامش المصحَفِ؛ حتى يتسنَّى لكلِّ قارئٍ وسامِعٍ أن يعلمَ معنى الآية التي يتلُوها وما قال العلماءُ فيها؛ فيزداد فهماً وتدبُّراً؛ وعِلْماً نافِعاً وعملاً صالحاً، كما قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ (ص 29).

فمِن تَمامِ النصيحةِ لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ولِعامةِ المسلمين أن يُقرِّبَ العبدُ إلى إخوانِه كلامَ المفسِّرين ويُقِرَّ أعينَهم بفوائدِ الراسخِين ويُثلِجَ صُدُورَهم بِلطائفِ العارفِين؛ فتكون في مُتناولِ أيدِيهم مُختارةً مُنتقاةً، لا يحتاجُون إلى مُراجعةِ الأمهاتِ والبحثِ في رُفوفِ المكتبات وبُطونِ المُجلَّدات!

وقد ذكرَ النوويُّ رحمه الله من النصيحةِ لكتابِ اللهِ أموراً منها: "تفهُّمُ علومِه وأمثالِه، والاعتبارُ بمواعظِه، والتفكُّر في عجائبِه، والعملُ بِمُحْكَمِه، والتسليمُ لِمُتشابِهِه،

والبحثُ عن عُمُومِه وخُصُوصِه وناسخِه ومَنسُوخِه، ونَشرُ عُلُومِه، والدُّعاءُ إليه وإلى ما ذَكَرْنا من نَصِيحَتِه" [شرح النووي على مسلم 2/ 38 – 39].

[2] جَمْعُ مَحاسِنِ التفسير:

فمِن الإنصافِ تقريرُ حاجةِ طُلابِ العلمِ إلى مَكتبةِ التفسير كلِّها: قديمِها وحديثِها؛ ذلك أنَّ طالبَ العِلمِ مَنْهُومٌ؛ لا يُمْكِنُه الاكتفاءُ بكتابٍ واحدٍ مِن هذه التفاسير؛ ولو كان لابن جرير أو ابنِ كثير! والأنفُسُ مَجبولةٌ على حُبِّ الأزاهير. كما أنَّ حاجةَ عامةِ المسلمين والأُسرةِ المسلمة ماسَّةٌ اليومَ إلى جَمعِ مَحاسنِ هذه التفاسير كلِّها في كتابٍ واحدٍ؛ يشتمِلُ على أروعِ (الأزاهير) في العقيدة والتربية والتزكية والاجتماع والسياسة الشرعية وغير ذلك. وهذا العملُ لا يُعِينُ على تيسيره إلا العَليُّ القدير؛ إنه نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير!

[3] النصيحةُ ورد كيدِ الكافرين:

فإنَّ مِما يُدْمي القلبَ وينكأ الفؤادَ إعراضَ كثيرٍ من المسلمين عن كتابِ ربِّهم، واستجابتَهم لِشُبهاتِ أعداءِ المسلمين وحملاتِ اليهودِ والنَّصارى الحاقِدِين، وميلَهم إلى ثقافةِ الغربِ الكافر؛ ظنّاً منهم بِقُصُور هذا الدِّين! وما ذاك إلا بسببِ جَهْلِهم بِدِينِهم وغُرْبَتِهم عن كتابِ ربِّهم.
ورَحِمَ اللَّهُ ابنَ القيم حيث قال: "سُبحان اللَّه! ماذا حُرِمَ الْمُعرِضُون عن نُصوصِ الوحيِ واقتباسِ العلمِ مِن مِشكاتِه من كُنوز الذخائر؟! وماذا فاتَهُم مِن حياةِ القلوبِ واستنارةِ البصائر؟ قَنَعُوا بأقوالٍ استَنْبَطَتْها مَعاولُ الآراء فِكْراً، وتقطَّعُوا أمرَهم بينَهم لأجلِها زُبُراً، وأوحى بعضُهم إلى بعضٍ زُخرُفَ القولِ غُروراً؛ فاتَّخَذُوا لأجلِ ذلك القرآنَ مهجوراً! درَسَتْ معالمُ القرآنِ في قُلُوبِهم فليسوا يعرِفُونها، ودثَرَتْ مَعاهِدُه عندَهم فليسوا يَعْمُرونها، ووقعَتْ أَلْوِيَتُه وأعلامُه مِن أيدِيهم فليسوا يَرفَعُونها، وأفلَتْ كواكبُه النَّيِّرَةُ من آفاقِ نفوسِهم؛ فلذلك لا يُحِبُّونها!" [مدارج السالكين 1/5].

[4] إنقاذُ كلِّ مَفتُونٍ مَخْدُوعٍ:

فإنَّ مِنَ الناسِ في زمانِ الفِتَنِ مَن حِيلَ بينَه وبينَ قلبِه والعياذُ باللّه؛ فاستُهدِفَ في دِينِه وعقلِه؛ وظَنَّ غُثاءَ الألسنة يَشفيه، ومزابلَ العُقول تَكفيه، وبُنيَّات الطريق تهديه؛ ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ (النور 39)0

وهَيهاتَ هَيهاتَ! فليس شيءٌ من زَبَدِ الثقافاتِ وغُثائِها في العالَمِ كُلِّه يُمكِنُ أنْ يُعطِيَنا بعضاً مَن الكُنُوز التي يَهبُها لنا كتابُ ربِّنا مِن المعرفةِ والْهُدَى والعقيدةِ والآدابِ والقِيَمِ والأخلاق؛ فلا نهضةَ لنا ولا حضارةَ ولا نَماءَ ولا بِناء إلا بهذا القرآن، ولكنْ نَعُوذُ بالله من عَمَى البصائر؛ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج 46) ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النور 40)0

[5] تيسيرُ تدبُّر القرآن:

وإنَّ مِن الْمُحزِنِ لقلوبِ المؤمنين أنْ أصبحَ بَينَ كثيرٍ مِن المسلمين وبين القرآنِ شُقَّةٌ بعيدةٌ؛ فإنَّ الإعراضَ يُولِّدُ الجفاءَ ويُبلِّد في النفسِ الشُّعورَ بحلاوةِ القرآن، كما قال عثمانﷺ: (لو طَهُرَت قُلوبُكم؛ ما شَبِعْتُم مِن كلامِ ربِّكم)! ذكره ابنُ رجب رحمه الله [جامع العلوم والحكم ص 480]. وقد جاء في حديثِ هرقلٍ مع أبي سفيان عند البخاريِ رحمه الله: (وسألتُك أيرتدُّ أحدٌ سَخْطةً لِدِينِه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا؛ وكذلك الإيمانُ حين تخالطُ بَشاشتُه القُلوب) [صحيح البخاري في بدء الوحي والإيمان 1/8-28، حديث 7، و51، وفي كتاب الجهاد، باب دعوة اليهود والنصارى وعلى ما يقاتلون عليه وما كتب النبيﷺ إلى كسرى وقيصر والدعوة قبل القتال 3/1076]. قال محمد بن حسن القنوجي رحمه الله: "(وكذلك الإيمان حين تخالطُ بشاشتُه القُلوب) معناه أنَّ مَلكةَ الإيمان إذا استقرَّت عَسُرَ على النفسِ مُخالَفتُها شأنَ الملكاتِ إذا استقرَّت؛ فإنها تحصلُ بِمَثابةِ الْجِبِلَّة والفِطرة؛ وهذه هي

المرتبة العالية من الإيمان" [أبجد العلوم لمحمد بن حسن القنوجي 446/2].
ومن اطَّلَع على حالِ كثيرٍ من المؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي اليوم يُشاهِدُ جَفاءً وقسوةً عند كثير من المتعلِّمين وبعض المدرسين الذين لا يُقبِلُون على كتابِ الله بقلوبٍ خاشِعةٍ خاضعةٍ متدبِّرةٍ؛ فلا ينتفعون به مهما قرؤوه ولا يجدون له حلاوةً في قلوبِهم مهما درسُوه؛ فإنهم كما قال صاحبُ الظلال: "وَرِثُوا الكتابَ ودَرَسُوه؛ ولكنَّهم لم يَتَكَيَّفُوا به، ولم تتأثَّرْ به قلوبُهم" [في ظلال القرآن 1387/9]. وصدقَ رحِمَه الله؛ فشتانَ بينَ مَن يقرأُ القرآنَ ويَختمُه دون أن يخشعَ عند آياتِه ويتدبرَ كلماتِه ولا يعرف منه حِكَماً ولا أحكاماً! وبين مَن يتعلَّمُ بين يَدَيْ تلاوتِه وحِفظِه ومُذاكَرتِه مَسائلَ ومعارفَ؛ تُعِينُه على تدبُّر القرآنِ وفَهمِ ألفاظِه ومَعانِيه؛ فيزداد نُوراً وهُدًى، كما روى عقبةُ بن عامر رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: (أفلا يَغْدُو أحَدُكم إلى المسجدِ فيعلمَ أو يقرأَ آيتين من كتابِ الله عزَّ وجلَّ خيرٌ له من ناقتَين، وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ، وأربعٌ خيرٌ له من أربعٍ، ومِن أعدادِهنَّ من الإبل) [رواه مسلم].
فالقراءةُ المتأنِّيةُ التي تشتملُ على الفِقهِ والتدبُّر والدُّعاءِ والخشوعِ والخضوعِ أنفَعُ مِن القراءة الكثيرةِ التي لا يُلقي لها القارِئُ سمعاً ولا يذرفُ عندها دمعاً! وقد روى ابنُ مسعود رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (لا يَفقهُ مَن قرأه في أقلَّ من ثلاث)، [سنن أبي داود 54/2، أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب في كم يقرأ القرآن؟ حديث 1390، و56/2، باب تحزيب القرآن، حديث 1394. وهو في الترمذي كذلك، وقد صححه النووي رحمه الله في الأذكار ص 96].
ورَحِمَ الله ابنَ القيِّم حيث قال: "قراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ مِن قراءةِ خَتمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُّمٍ، وأنفَعُ للقلبِ وأدْعَى إلى حصولِ الإيمانِ وذوقِ حلاوةِ القرآنِ" [مفتاح دار السعادة ص 221]. ولله دَرُّ الزركشيِّ حيث قال: "مَن لَم يكنْ له عِلمٌ وفهمٌ وتقوى وتدبُّرٌ؛ لم يُدركْ من لذَّةِ القرآنِ شيئاً!" [البرهان في علوم القرآن للزركشي 171/2، نقلا عن تدبُّر القرآن لسلمان السنيدي].

[6] العناية بنشر الفهم الصحيح للقرآن:

وقد حثَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عبادَه على التفكُّر في الأمثال، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الزمر 27)0 وامتدحَ مَن فهمَ أمثالَ القرآنِ وعقَلَ معانيَها، فقال جلَّ جلالُه: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت 43)0

وذمَّ اللهُ عزَّ وجلَّ مَن لا يَتدبَّرُ القرآن، ولا يَقِفُ على معانِيهِ كشأنِ أهلِ الكتابِ الذين قال الله فيهم: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (الجمعة 5). وقال جلَّ جلالُه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد 24)0

قال السعدي رحمه الله: "أي قد أُغلِقَ على ما فيها من الشر؛ فلا يدخلها خيرٌ أبدا"! [تيسير الكريم الرحمن ص 788-789].

ومِن تَمامِ فهمِ القرآنِ فهماً صحيحاً: إدراكُ أنه كتابُ هِدايةٍ؛ لأنَّ تصحيحَ العقيدة وتزكيةَ القلوبِ وهدايةَ العقولِ وتربيةَ المجتمع هي الوظائفُ العظمى للقرآنِ، كما قال الله عز وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف 52)0 وقال جَلَّ جلالُه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف 111). وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل 89).

[7] تنقية التفسيرِ من الشوائب:

فالملاحظُ أنَّ التفاسيرَ تُمثِّلُ مِرآةً لما يهتم به المفسّرون من العلومِ المختلفةِ؛ وهذا سرُّ تنوُّعِ الأساليبِ وتعدُّدِ المناهج. وهو ما يُفسِّرُ كيفَ طغَتْ المباحثُ اللغوية

والبلاغيـة والكلاميـة علـى بعـض التفاسـير؛ وقـد نـصَّ الزركشي رحمه الله على ذلك بقوله عن تفسير القرآن: "أكْثَرَ الناسُ فيه مِن الموضوعاتِ ما بينَ مُخْتصرٍ ومبْسوطٍ. وكلُّهـم يَقتـصِرُ علـى الفنِّ الـذي يَغلِـبُ عليـه: فالزَّجّـاجُ والواحِـدي فـي البَسِيط يَغلِـبُ عليهمـا الغريـب، والثعلبـي يغلب عليه القصص، والزمخشري علم البيان، والإمام فخر الـدين علـم الكـلام ومـا فـي معنـاه مـن العلـوم العقليـة" [البرهان في علوم القـرآن13/1]. وصَدقَ رحمـه الله؛ فإنَّ مِن نصيحةِ المسلِمين أن نحرصَ علـى مـا يـنفعُهم وإن لـم يُوافِقْ الفنَّ الذي نؤثره؛ فإنْ غفلنا عن هذه المـصلحةِ صارَ كـلُّ أحـدٍ يـسترسِلُ فـي العِلـمِ الـذي يَمِيـلُ إليـه؛ ويحمـلُ القارئَ عليه! وليسَ المسلمون اليومَ في حاجةٍ إلى كثيـرٍ مِن مباحثِ الإعرابِ وشواذِّ القراءات التي لا تثبُت، ودَقـائقِ المَسائلِ التي لا تكاد تقع، وغَوامضِ الكلاميّـات التـي تـضُرُّ ولا تنفَع؛ فكم شَوَّهَتْ هذه المباحثُ علمَ التفسير وكَـدَّرَتْ مِن صَفْو عُلومِ الإسلامِ الكثيرَ!

وإنّما حاجةُ أُمّتِنا اليومَ إلى الـدُّروسِ التَّربويـة التـي تُزكّـي القُلوبَ الغافلة، وتَهْدِي العُقولَ الحائرة، وتُثْمِر العِلمَ النـافع والعملَ الصالِح، وإلى النَّواحي العَقَدِيَّـة والإيمانيَّـة وآثارهـا الفِكريـة وثِمارِهـا النفـسية والاجتماعيـة التـي تنفـعُ فـي الدارَين وتُؤلِّفُ بين قُلوبِ المسلمين.

[8] إحياء الوظيفةِ التربوية للتفسير:

فالقرآنُ الكريمُ دسـتورُ هـذه الـدعوةِ، ومَنبـعُ الهدايـةِ لهـذه الأمة؛ ومن هنا فإنَّ كلَّ تغليبٍ للنّواحِي النظريـة والكلاميـةِ فـي التفـسير يُـؤدِّي إلـى التقـصِير فـي هـذه الوظيفـةِ العظيمة كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الزمر 23).

فمِن المهمات أن تَعُودَ للتفسير رسـالتُه التربويـة ووَظيفتُـه الدَّعويَّة. فليس القرآنُ كتابَ خيالٍ ومَنطقٍ ومُنـاظرةٍ؛ وإنمـا هـو كتـابُ هِدايـةٍ يُعـالِجُ واقـعَ المـسلمين، ويَعِظُهـم حتـى

يرتقوا إلى مُستوى الأمانةِ المنوطةِ بهم ويَشفيهم من عِلَلِهم الفكرية والنفسية والاجتماعية، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (يونس 57). وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ (فصلت 44)0 وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء 82)0

[9] تيسير التفسير لعامة المسلمين:

ولا ريبَ أنَّ المطَّلِعَ على مُؤلَّفاتِ التفسير يعلمُ أنَّ بعضَها مثل (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير رحمه الله قد لقي إقبالاً عظيماً؛ حيث أمكَنَ لكثيرٍ من عامة المسلمين دراستُه دون عَناءٍ، وأنَّ كُتباً أخرى مثل (الكشاف) للزمخشري و(مفاتيح الغيب) للرازي ظلَّتْ كُتبًا للخَواص يتعذَّرُ على الناسِ الاستفادةُ منها؛ ذلك أنَّ عامةَ المسلِمين ينفرون من الكتب إذا كانت كثيرةَ المسائلِ عسيرةَ المباحثِ جافَّةَ الأسلوبِ؛ وهذا بلا ريبٍ يَحْرِمُ كثيراً من المسلمين مِن فَهْمِ كلامِ ربِّ العالمين؛ فلا بُدَّ لِمَن يُريد تفسيرَ القرآن أنْ يُراعِيَ أربعةَ أمورٍ تُمكِّن العامةَ من معرفة التفسير: أولها: انتقاءُ المادةِ المُختصَرةِ اليسيرة التي يسهُل الاستفادةُ منها لكلِّ أحدٍ. ثانياً: مُراعاةُ النافع المفيدِ. ثالثاً: اعتمادُ التشويقِ في الأسلوبِ من حيث جمال العبارة وروعة الإشارة، كما سيأتي تفصيلُها في المنهج. رابعاً: التماسُ اللفظِ السهلِ القريبِ الخالي من التعقيد. ورحِمَ اللهُ ابنَ القيم حيث قال: "لا تجدُ هذا التكلُّف الشديدَ والتعقيدَ في الألفاظِ والمعاني عند الصحابةِ أصلاً؛ وإنما يُوجَدُ عند مَن عَدَلَ عن طريقِهم؛ وإذا تأمَّلَه العارفُ وجَدَهُ (كلحم جَمَلٍ غَثٍّ على رأسِ جَبَلٍ وَعِرٍ؛ لا سَهلٍ فيُرتَقى، ولا سَمينٌ فيُنتقَل)؛ فيطَوِّلُ عليك الطريقَ ويُوسع لك العبارةَ، ويأتي بكلِّ لفظٍ غريبٍ ومعنى أغرب من اللفظ؛ فإذا وَصَلْتَ لم تجدْ معك حاصِلاً طائلاً، ولكنْ تسمعُ جعجعةً ولا ترى طِحْناً" [مدارج السالكين 3/436-437].

[10] تصحيحُ الصورةِ المشوَّهة لأساليبِ المفسرين:

حيث يتوهَّمُ المحرُومُ من الإطِّلاع على كُتُبِهِم أنَّها خاليةٌ من هُمُومِنا، غريبةٌ عن عَصرنا؛ لا يُمكن أن تُفيدَنا في حَلِّ قضايانا؛ لأنها خاصَّةٌ بعصر تولَّى وأمةٍ قد خلَتْ ومرحلةٍ تاريخيةٍ مَضَت، وهذا وَهمٌ من الأوهام؛ فإنَّ قواعدَ المفسِّرين ثابتةٌ، وفوائدَهم باقيةٌ على مَرِّ الدَّهر، بل إنَّ بعضَ عباراتِهم كأنما كُتِبَتْ في عَصْرنا؛ لأنَّ هُمُومَ المسلمين واحدة، والأخطار التي تُواجِهُهم من المبطِلين مُتشابهةٌ وإن تباعَدتْ بهم القرون؛ ألا ترى إلى ما كتبه القرطبي رحمه الله قبلَ أكثرَ من سبعةِ قُرون في تفسير قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة 85) فقال رَحِمَه الله:

"قال عُلماؤنا: كان اللهُ تعالى قد أخذَ عليهم أربعةَ عُهُودٍ: تَرْكُ القتل، وتَرْكُ الإخراج، وتَرْكُ المظاهَرة، وفداءُ أُساراهم. فأعْرَضُوا عن كلِّ ما أُمِرُوا به إلا الفِداء؛ فوبَّخَهم الله على ذلك توبيخاً يُتْلَى فقال: (أفتؤمنون ببعض الكتاب) وهو التوراة (وتكفُرون ببعض) قلتُ: ولَعَمْرُ اللهِ لقد أعرَضْنا نحنُ عن الجميع بالفتن؛ فتظاهرَ بعضُنا على بعضٍ - ليتَ بالمسلمين بلْ - بالكافرين؛ حتى تَرَكْنا إخوانَنا أذِلاءَ صاغِرين يجري عليهم حُكمُ المشركين؛ فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم"! [الجامع لأحكام القرآن 22/2].

۞ المبحث الثالث: مَنهجُ أزاهير التفسير:

وأما منهجي الذي أستَعِينُ بالله على التزامِه في (أزاهير التفسير)، فيتمثل في ما يلي:

[1] مُراعاة الاختصارِ وتركُ الإطنابِ والاستطراد:

ليكونَ بِعَونِ الله وَسَطاً عَدْلاً، ليس طويلاً مُمِلاً، ولا قصيراً مُخِلاً؛ بل مختصراً يسيراً؛ يجمع بإذن الله علماً غزيراً؛ وأسأل الله العظيم ربَّ العرش الكريم أن يجعلَه كما جاء في حديث أم زرع في الصحيحين: (كَلَيلِ تِهامة: لا حَرَّ ولا قَرَّ، ولا مَلالةَ ولا سآمة)!

ولا عجبا؛ فقد كثرتْ في زمانِنا الشواغلُ عن العُلُومِ والطاعاتِ، وقلَّتْ فيه بركةُ الأوقات، وضعفَتْ فيه الهممُ والعزائم؛ وصارَ مُحَبَّباً إلى الناسِ كلُّ سهلٍ قريبٍ وإنْ كانَ قليلَ الفائدة، مذموماً لديهم كلُّ ما طال وكثر؛ مهما عظُمَتْ قيمتُه وأينعتْ ثَمرتُه. فلما كان هذا حالُ الكثيرين منَّا في هذا الزمان؛ وجَبَ مُراعاةُ الاختصار؛ فقد صارت المجلَّدات مَقبرةً للكلمات، وباتَتْ الأسفارُ مَثْوًى للأفكار؛ فما يُودَعُ في المجلَّداتِ فقد دُفِنَ في مقبرةٍ مِن ورقٍ؛ فلا يكادُ يَصِلُ إليه

إلا بعضُ طلابِ العلمِ الذين يدرُسُون الأُمَّهاتِ ويعكُفُون على المُجلَّداتِ.

وأستعين بالله في تركِ الاستطراد والإطنابِ؛ ولا يخفى أنَّ الاستطرادَ يَضرُّ أكثرَ مما ينفع، كما أنَّ الإكثارَ مِن توليدِ المسائل، وتفريعِ المباحث؛ يُذْهِبُ التشويقَ ويُبعِدُ صاحبَه عن التحقيق، ويُحدِثُ المللَ ويُوقِع في الزلَلِ، ومِن أمثلة ذلك: قول الرازي رحمه الله: "(الحمدُ) كلمةٌ جليلةٌ شريفةٌ؛ فيجب على العاقلِ إجلالُ هذه الكلمةِ من أنْ يَذكُرَها في مُقابَلةِ نِعَمِ الدنيا"! [التفسير الكبير 1/238-239] مع أنَّ النبيﷺ قال فيما رواه أنسﷺ: (إنَّ اللهَ لَيَرضَى عن العَبدِ أن يأكُلَ الأكْلةَ؛ فيحمده عليها، ويشربُ الشَّرْبةَ؛ فيحمده عليها) [أخرجه مسلم]. وقد يكون الأمرُ أشدَّ من هذا إذا تعلَّقَ بإيرادِ شُبهةٍ قد تَعْلَقُ في بعضِ الأذهانِ والقُلوبُ خطَّافةٌ، أو ذِكْرِ إشكالٍ دون استيفاء الجوابِ عنه؛ فلا خيرَ للمُسلِمين فيما كان ضَررُه أكبرَ من نفعِه!

[2] التزام منهج السلف في البحث:

ذلك أنَّ المفسِّرين السابقين كانوا أصحابَ عَملٍ ولم يكونوا أصحابَ جَدلٍ؛ فمَنَّ اللهُ عليهم بأن أبعدَهم عن التكلُّفِ؛ وصانَهم عن الخوضِ مع الخائضين؛ لأنَّ مَن كان باللهِ أعرفَ كان منه أخوفَ؛ فقد سلَّموا لربِّهم ما لا يعلمون فسلِمُوا، كما مَدَحَهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آل عمران 7)؛ فكانوا كما قال عمر بن عبد العزيزﷺ: "إنَّ السابِقين عن عِلمٍ وَقفُوا، وبِبَصرٍ قد كَفُّوا، وكانوا هم أقوى على البحثِ لو بَحثُوا"! [ذكره ابن رجب رحمه الله في فضل علم السلفِ على الخلَف].

وما أحْسنَ ما شهدَ به الحافظ ابنُ رجب بذلك للعلماء الربّانيِّين فقال: "أما فقهاءُ أهل الحديث العامِلُون به؛ فإنَّ معظمَ همِّهم البحثُ عن معاني كتاب الله عزَّ وجل، وما يفسِّره من السنن الصحيحة، وكلامِ الصحابة والتابعِين لهم بإحسان، وعن سُنةِ رسولِ اللهﷺ ومعرفةِ صحيحِها وسَقيمِها والتفقُّهِ فيها وفَهمِها والوُقوفِ على معانيها. ثم

معرفة كلامِ الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ في أنواعِ العلومِ من التفسير والحديثِ ومسائلِ الحلال والحرامِ وأُصولِ السُّنةِ والزُّهدِ والرقائق وغير ذلك. وهذه هي طريقةُ الإمام أحمد ومَن وافقَه مِن علماءِ الحديث الربَّانيِّين. وفي مَعرفةِ هذا شُغْلٌ شاغِلٌ عن التشاغُل بما أُحْدِث من الرأيِ ما لا يُنتَفَع به وما لا يقع؛ وإنَّما يُورث التجادلُ فيه الخصوماتِ والجدالَ وكثرةَ القِيلِ والقال"! [جامع العلوم والحِكَم ص 124].

وصَدقَ رحِمَه الله؛ فما تنكَّبَ أحدٌ هذا الطريقَ ولو كان أحدَ الأذكياء أو مَعدوداً في العلماءِ إلا زاغ قلمُه وزلَّتْ قدمُه؛ فأتَى بطاماتٍ كما تراه كثيراً في تفسير (الكشافِ) للزمخشري مع سعةِ مَعرفتِه باللغةِ والبلاغةِ والأدبِ وأشعار العرب؛ ولكنَّ منهجَه في قضايا الاعتقاد كان على طريقةِ المعتزلة ولم يكن على هديِ السلفِ الصالح؛ فلذلك أكثرَ العلماءُ في الردِّ عليه والتحذير منه، كما تراه على سبيلِ المثالِ في ردِّ القرطبي وابنِ كثير عليه في تفسير قولِه تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (البقرة 7)0 وقُلْ مثلَ ذلك في اختياراتِ بعضِ المفسِّرين عند توسُّعِهِم في البحثِ بمعزلٍ عن كلامِ الراسِخين، كما تراه في ردِّ ابنِ كثير على الرازي في تفسيره في مسألة تعلُّم السِّحر. وفي هذا عبرةٌ لأُولي الألبابِ؛ فإنَّ العِلمَ المبارَك هو ما كان عليه السلفُ الصالح؛ وما ظَنُّك بِمَنهجٍ جمعَ الدليلَ الصحيحَ والرأيَ الرَّجيحَ؛ وتحت الرغوةِ اللبنُ الفصيح!

وإنَّ من المبشِّرات في هذه الأيامِ إقبالَ الصحوةِ الإسلامية على الاقتداءِ بِمَنهجِ السلفِ الصالح، ولكنَّ من المهمِّ أن لا يُقتَصرَ في ذلك على قضايا الاعتقاد؛ بل يشمَلُ مَناهِجَ البحثِ والتأليفِ والتربيةِ والاجتماعِ والسُّلوكِ. فمِن الملاحظِ أنَّ كثيراً مِن المعاصِرين قد ابتعدوا عن منهجِ السلفِ في التأليفِ، وابتَدَعُوا أساليبَ عَقيمةً في البحثِ، وهَجَروا مَناهجَ القدماء وطَرَحُوا طرائقَ العلماء؛ لقلَّةِ حَظِّهم من الفَهمِ وانشغَلُوا بمسائلَ مِن قُشُور العلم؛ حتى صار طالب

العِلمِ لا يكاد يجدُ في كثير من كُتبِ هذا الزمانِ كلاماً نافعاً سَديداً وعِلماً ربَّانياً رشيداً؛ إلا مَن هَداه الله؛ فكان من الموفَّقِين الذين يغترفُون مِن عِلمِ السابقين، ويَتَّبِعُون سبيلَ الراسِخين:

وقد كُنَّا نَعُدُّهُمُ قليلا فقد صارُوا أقلَّ مِن القليل!

[3] تفسير الآيات القرآنية بالأحاديث النبوية:

وهذا أحسنُ أنواعِ التفسير والتبيين وأجملُها وأكملُها؛ لأنَّ النبيَّﷺ قد بيَّن المرادَ منه؛ وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤ ﴾ (النحل 44)0 وقوله جلَّ جلاله: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ (النحل 64)0 ومن أمثلة ذلك ما رواه الترمذي رحمه الله عن النعمان بن بشير قال: سمعتُ رسولَ اللهﷺ يقول على المنبر: (إنَّ الدعاءَ هو العبادة؛ ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ﴾ (غافر 60)

قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيح.

[4] انتقاءُ الأزاهير:

ولا يخفي أنَّ مِفتاحَ الفَهمِ بعدَ توفيقِ اللهِ عزَّ وجلَّ يكمن في الإطِّلاعِ على كلامِ المفسِّرين وأهلِ العِلمِ الرَّاسِخِين الذين عناهم الله عز وجلَّ بقولِه: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ (النساء83)0 فقد فهمُوا القرآنَ ووَعَوْه، وحَفِظُوه وتَدبَّرُوه، وعَرفُوا عُلومَه واستخرَجُوا كُنوزَه، وأدركوا مَعانيَه وأمثالَه وقَصصَه وحِكَمَه وأحكامَه.

كما قال القرطبي رحمه الله: "فصارَ الكتابُ أصلاً، والسُّنةُ له بَياناً، واستنباطُ العلماءِ له إيضاحاً وتِبْياناً" [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 2/1].

ولذلك عَمَدْتُ إلي استخراجِ هذه (الأزاهير) من كُتُبِ (التفسير)؛ حتى يُراجعَها الطالبُ والمُعلِّمُ والواعِظُ، وما أجملَ أن تلتفَّ الأسرةُ المسلمةُ حولَ قطُوفٍ من (أزاهير

التفسير)؛ لتتدبرَ كلامَ ربِّ العالمين، وتتلقَّى فهمَ القرآنِ من العلماء الراسخين. ومَن عكفَ على كُتبِ التفسير؛ علم أنَّ كلماتِ المفسِّرين الراسخين لها في الأنفسِ أثرٌ عَجيبٌ؛ فهي تشفي العَليل وتروي الغَليل، وتُحيي قلوبَ المسلمين وتعمرُها بالقِيَم، وربَّ كلماتٍ صادقةٍ تُوقِظُ العقولَ والعزائمَ وتبني الحضاراتِ والأمَم!

[5] العنايــةُ بــدلالات الإشــارةِ المــستنبَطة مــن الآيات:

ورحمَ الله السعدي حيث قال في تفسير قولِ الله عزَّ وجل: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ (البقرة 189): "يُستفاد من إشارةِ الآيةِ أنه ينبغي في كلِّ أمر من الأمُورِ أن يأتِيَهُ الإنسانُ مِن الطريقِ السَّهلِ القريب، الذي قد جُعِلَ له مُوصِلاً، فالآمرُ بالمعروف والناهي عن المنكر، ينبغي أن ينظرَ في حالة المأمور، ويستعمل معه الرِّفقَ والسياسةَ التي بها يحصلُ المقصودُ أو بعضُه، والمتعلِّمُ والمعلِّم ينبغي أن يسلكَ أقربَ طريقٍ وأسهلَه يحصل به مقصوده؛ وهكذا كلُّ من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه؛ فلا بد أن يحصلَ له المقصود بعون الملك المعبود" [تيسير الكريم الرحمن ص 88-89].

[6] الاهتمامُ بالنواحي الجمالية:

وذلك بالاحتفاءِ بذكر الألفاظِ المشرقة والمعاني المورقة والأساليبِ المؤثِّرة. والمرادُ بجمالِ المعاني: شيئان: الأول: غزارةُ الأفكار مع قِلةِ الألفاظِ: مثل قول ابن تيمية رحمه الله: "﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تدفع الرياء، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تدفع الكبرياء" [مدارج السالكين لابن القيم1/54]. والثاني: إدْراكُ أسرار الآياتِ ولطائفِ المناسَباتِ وبدائعِ الإشارات، فالقرآن كما قال الزركشي: "بهَرَ تمكُّنُ فواصِلِه، وحُسْنُ ارتباطِ أواخِره وأوائلِه، وبَديعُ إشاراتِه، وعَجيبُ انتقالاتِه: مِن قصصٍ باهرة، إلى مواعظَ زاجرة، وأمثالٍ سائرة، وحِكَم زاهرة، وأدلة على التوحيد ظاهرة، وأمثالٍ بالتنزيهِ والتحميد

سائرة، ومواقع تعجُّب واعتبار، ومواطن تنزيهٍ واستغفار" [البرهان في علوم القرآن للزركشي 3/1].
ومثال الثاني: قول ابن عاشور رحمه الله مُبَيّناً الآفاتِ النفسيةَ والاجتماعية للنفاق: "النفاقُ يجمع الكذبَ والجُبنَ والمكيدةَ وأفَنَ الرأي والبَلَهَ وسُوءَ السلوكِ والطمعَ وإضاعةَ العمر وزوالَ الثقة وعداوةَ الأصحابِ واضمحلالَ الفضيلةِ" [التحرير والتنوير 261/1].
وأما جَمالُ الألفاظِ فمعروفٌ، ومثالُه قولُ السعدي رحمه الله في تفسير قولِ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (البقرة 170) "فاكتفَوْا بتقليدِ الآباءِ، وزَهِدُوا في الإيمانِ بالأنبياء!"[تيسير الكريم الرحمن ص 81].
وأما الأساليبُ المؤثِّرة: فالمرادُ بها: العناية ببيانِ أساليبِ القرآنِ وفُنونِه البديعة مثل استعمالِ الألفاظِ المعبّرة عن الحركةِ النفسيَّةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ (البقرة 36)0 قال سيد قطب رحمه الله: "يا لَلتعبير المُصوّر ﴿ أَزَلَّهُمَا﴾ إنه لفظٌ يرسُمُ صورةَ الحركة التي يعبِّر عنها؛ وإنك لتكاد تلمح الشيطانَ وهو يُزَحْزِحُهما من الجنة، ويدفع بأقدامِهما؛ فتزلُّ وتهوي"! [في ظلال القرآن 58/1].

[7] العناية بطُرُقِ التربية وفقهِ الدعوةِ وجوامعِ الوعظِ وأساليبِ الحكمة: التي ينتفع بها الفردُ

والأسرةُ والجماعة المسلمة. وذلك بالعناية بالثمرات التربوية التي يستنبطُها المفسّرون من الآيات: مثل ما يحتفي به القرطبي في (جامعه) بقولِه: "قال أربابُ المعاني". وهذا من الوَفاءِ بأهمِّ أغراضِ القرآن وهي الموعظة والتذكرة، كما قال عزَّ وجل: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر 17-22-32-40)0

قال البغوي رحمه الله: "أمرَ فيهِ وزَجرَ، وبشَّرَ وأنذر، وذكرَ المواعظَ لِيُتذَكَّر، وقصَّ عن أحوالِ الماضين لِيُعتبَر، وضربَ فيه الأمثالَ لِيُتدبَّر، ودلَّ على آياتِ التوحيدِ لِيُتفكَّر" [معالمِ التنزيل للبغوي1/33]. وقال القرطبيُّ رحمه الله: "جَعَلَ أمثالَه عِبَراً لِمَن تَدبَّرَها، وأوامِرَه هُدًى لمن استَبْصَرَها، وشَرَحَ فيه واجِباتِ الأحْكام، وفَرَّقَ فيه بينِ الحلالِ والحرام، وكَرَّرَ فيه المواعظَ والقصصَ للإفهام، وضربَ فيه الأمثالَ، وقصَّ فيه غَيبَ الأخبار، فقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام 38)" [الجامع لأحكام القرآن1/1].

[8] ذِكْرُ ما يتعلق بهمومِ المسلمين:

فإنَّ هذا أَوْلَى ما ينبغي ذِكْرُه والعنايةُ به؛ لأنَّ هذا القرآنَ جاء ليعالِجَ قضايا المسلمين، ويُمكِّن هذا الدِّينَ، ويُبصِّرَ هذه الأُمةَ بأعدائها. كما قال السعدي رحمه الله في تفسير قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾ (البقرة 217) "هذا الوصفُ عامٌّ لكلِّ الكفار: لا يَزالُون يُقاتِلون غيرَهم؛ حتى يَرُدُّوهم عن دِينِهم، وخصوصاً أهل الكتابِ من اليهودِ والنصارى، الذين بذلُوا الجمعيَّات، ونشرُوا الدُّعاة، وبثُّوا الأطبّاء، وبَنَوْا المدارِس؛ لِجَذبِ الأُمَمِ إلى دِينِهِم، وتدخِيلِهِم عليهم كلَّ ما يُمْكِنهم من الشُّبَهِ التي تُشكِّكهم في دِينِهم" [تيسير الكريم الرحمن ص 97].

[9] الاستيعابُ وبيانُ الصواب:

حيث أجتهدُ مُستعِيناً باللهِ في الاستيعابِ بحيث لا تخلُو آيةٌ مِن تفسير، مع الاقتصار على أحسنِ الأقوال؛ إلا إذا تعدَّدت الفوائدُ. والحرصِ على النصِّ على الراجحِ منها عند الخلافِ؛ إلا إذا كان المعنى المرجوحُ مُتبادِراً إلى بعضِ الأفهامِ أو مُتفشّياً في بعض الأذهان؛ فأذكره احترازاً. ولا أقول: قلتُ إلا لفائدةٍ أو للتنبيهِ على بعضِ الأمور وبيانِ الراجحِ من أوجُهِ التفسير.

وأما فاتحةُ الكتابِ فأُطيلُ فيها النَّفَسَ وأخُصُّها بمزيدِ عِنايةٍ على غيرِها، وأجمعُ من فوائدِها ولطائفِها ما يُعينُ على بيانِ عَظَمَتِها ويُيَسِّرُ تدبُّرَها وحُسنَ فهمِها؛ فهي أعظمُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، كما جاء في حديث أبي سعيد بن المُعَلَّى الذي رواه البخاري: (قلتُ: يا رسولَ الله إنك قلتَ: لأعلمنّك أعظمَ سورة في القرآن، قال: نعم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمِ الذي أوتِيتُه)! وما أصدقَ قولَ ابنِ عبد الوهاب رحمه الله في (تفسير الفاتحة): "آياتُ الفاتحة كلُّ آيةٍ منها لو يعلمُها الإنسانُ؛ صار فقيهاً، وكلِ آيةٍ أفرد معناها بالتصانيف"! وقال السّعدي رحمه الله: "هذه السورةُ على إيجازها، قد احتوَتْ على ما لم تحتو عليه سورةٌ من سُوَرِ القرآن" [تيسير الكريم الرحمن ص 39-40]. وذَكرَ القرطبيُّ رحمه الله أنها "مُتَضَمِّنَةٌ لجميعِ عُلومِه" [الجامع لأحكام القرآن 113/1]. وقال ابنُ القيم رحمه الله: "مَنْ تَحَقَّقَ بمعاني الفاتحة عِلماً ومعرفةً وعَملاً وحالاً؛ فقد فازَ مِن كمالِه بأوْفَرِ نَصِيبٍ، وصارَتْ عُبُودِيَّتُه عُبُودِيَّةَ الخاصَّة الذين ارتفعَتْ درجتُهم عن عوامِّ المتعبِّدين" [الفوائد ص26-28].

وأما منهجي في القراءاتِ فيتمثل في إهمالِ ما كان شاذّاً؛ لعدمِ ثبوتِه. والعنايةِ بأوجُهِ القراءات المتواترة، دون استقصاءِ الخلافِ بين القراء؛ فإنَّ تَتَبُّعَ ذلك يَخرُجُ بنا عن التفسير. وإنما الغرضُ ذِكْرُ الأوجُهِ التي تتعلّقُ بالتفسير؛ من حيث ثراءُ المعاني وتعدُّدُها، كما في اختلافِ قراءةِ حمزة الزيات: (فأزالَهما) مع قراءة الجمهور: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ (البقرة 36)0 قال ابنُ عاشور رحمه الله: "الإزلالُ: جعلُ الغيرِ زالاًّ: أي قائماً به الزّلل... والضميرُ في قوله: ﴿ عَنْهَا ﴾ يجوز أن يعودَ إلى الشجرة؛ لأنها أقربُ وليتبيَّنَ

سببُ الزلة وسببُ الخروج من الجنة... ويجوز كَوْنُ الضمير للجنة... وقرأ حمزة (فأزالهما) بألِفٍ بعد الزايِ، وهو من الإزالة بمعنى الإبعاد؛ وعلى هذه القراءة يتعين أن يكون ضميرُ ﴿ عَنْهَا ﴾ عائداً إلى الجنة لا إلى الشجرة" [التحرير والتنوير 1/433-434].

كما أتجنَّبُ الترجيحَ بين الأوجُهِ المتواترة؛ لأنها جميعاً كلامُ ربِّ العالمين؛ فالأَوْلَى أنْ تُوَجَّهَ القراءتان إذا كان لهما تعلُّقٌ بمعاني التفسير، كما قال القرطبي رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (البقرة 37) "قرأ ابنُ كثير: (فتلقّى ءادمَ من ربّه كلماتٌ)، والباقون برفع ﴿ ءَادَمُ ﴾ ونصب ﴿ كَلِمَٰتٍ ﴾.

والقراءتان ترجعان إلى معنى؛ لأنَّ آدمَ إذا تلقَّى الكلماتِ فقد تلَقَّتْهُ، وقيل: لَمَّا كانت الكلماتُ هي المنقِذةَ لآدم بتوفيقِ اللهِ تعالى له لقبولِه إياها ودعائه بها؛ كانت الكلماتُ فاعلةً" [الجامع 1/326]. قلتُ: وهذا يُذَكِّرنا بقولِ شيخ الإسلام الهروي وابن القيم رحمة الله عليهما في (مدارج السالكين): "إنَّ موسى عليه السلام ذهب يحتطب النار؛ فعادَ كليمَ الواحد القهار"!

وقد درجَ بعضُ المفسِّرين على الترجيحِ بين أوْجُهِ القراءاتِ المتواترة؛ مع الإعراضِ عن تحكيمِ علمِ الفواصلِ، بحيث يجزمُ ببعضِ المرجِّحاتِ على اختيار قراءةٍ أو روايةٍ دون أخرى، مع ثُبوتِ الرِّوايتين؛ فيَتوهَّم مَن لا مَعرفةَ له بالقراءاتِ أنَّ الروايةَ الأخرى لا تصحُّ؛ مُعرضِين عن أعظمِ مُرجِّحٍ للإثباتِ والنَّفْيِ وهو ثُبوتُ هذه الرواية بالتواتر عند بعضِ القراء.

ومن أمثلةِ ذلك ما وردَ في بعضِ التفاسير مِن نفيِ كَوْنِ البسملةِ آيةً مِن الفاتحة مع ثُبوتِ ذلك في العَدِّ المكّي والكُوفي لآيِ المصحفِ كما هو مُقرَّرٌ عند عُلماءِ الفواصل [قال الشاطبي رحمه الله في (ناظمة الزهر):

وأمَّ القُرانِ الكلُّ سبعاً يَعُدُّها
ولكنْ (عليهم) أوَّلاً يُسقِطُ (المُثْر)
ويعتاضُ (بسم الله) و(المستقيم) قلْ
لِكلٍّ وما عَدُّوا (الذين) على ذِكْر

وشرح ذلك الشيخ عبد الفتاح القاضي رحمه الله بقوله: "كلمة (عليهم) الواقعة في الموضع الأول، وهي (أنعمتَ عليهم) يُسقطُها المرموزُ لهما بكلمة (المُثْر): وهما المكّي والكوفي، ويَعُدَّان موضعها البسملة؛ فتعيَّنَ لغيرهما وهما المدنيّان والبصري والشامي عدُّ (أنعمتَ عليهم) وإسقاطُ البسملة" بشير اليُسر شرح ناظمة الزّهر ص 57].
ولذلك فإنَّ منهجَ (أزاهير التفسير) يتمثلُ في توجيهِ الرواياتِ المتواترةِ دون ترجيحٍ بينَها؛ لأنَّ هذا الترجيحَ راجعٌ إلى التوسُّعِ المذمُومِ في وَضْعِ الترجيحِ في غير موضعِه كما تراه عند بعضِهم في ترجيحِ ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ على﴿ مَلِكِ ﴾(الفاتحة4) أو العكس؛ مع ثُبوتِ الوَجْهَين في القراءات المتواترة! فمَرجِعُ ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ إلى المِلْكية؛ فهو عزَّ وجلَّ مالكُ كلِّ شيءٍ والمُتصرِّفُ في الخلق، ومَرجعُ﴿ مَلِكِ ﴾ إلى المُلك؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ هو المَلِك؛ فصحَّ إذنْ كَونُ اللهِ مالِكاً ومَلِكاً. وقد صرَّحَ القرآنُ الكريم بالمعنيَيْن، فقال عزَّ وجل: ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار 19)0 وقال جلَّ جلالُه: ﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ (الحج 56)0 وقال تعالى: ﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ (الفرقان 26)0 وقال سُبحانه: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ (غافر 16)0 وقال عزَّ وجل: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ ﴾ (طه 114 والمؤمنون 116). وقال تعالى: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ (الناس2)0 وقد جَمَعَ القرآنُ بين المُلكِ

والمِلْكِيةِ في قولِ الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ (آل عمران 26)0

فليت شِعري أيُّهما أولَى: الترجيحُ بين مَعْنَيَيْن مُتواتِرَيْن؟ أم بيانُ مُناسَبةِ الوَجْهَيْن الصَّحِيحَيْن؟! وأيُّهما أورَعُ في التعامُلِ مع كلامِ ربِّ العالَمين؟ وأسْلَمُ لِقلوبِ عامةِ المسلمين؟ ولَعَمْري إنَّ هذا مِن أثرِ التوسُّعِ في التَّرْجيحاتِ وطُغيانِ المسائلِ النظرية في فترةٍ من الفترات على عُلومِنا الإسلامية. والله المستعانُ وهو الموفِّقُ لا ربَّ سواه.

[10] مُراعاةُ التنوُّع والتوثيق:

وهذا يشمَلُ تنوُّعَ أسالِيبِ التعبير عند أهلِ التفسير، وتنوُّعَ المادةِ المختارة مِن عُيونِ الأدبِ والشِّعر وقصصِ الصالِحِين مما يَعتني به جَهابِذةُ المفسِّرين؛ وينتفعُ به الطُّلاب الموفَّقون. وأما أحكامُ الفِقهِ وفَوائدُ اللغة؛ فأذكُرُ ما تَمَسُّ الحاجةُ إليه منهما؛ فمَن أرادَ استقصاءَها مِن طُلابِ العلم؛ فمَظانُّها معلومةٌ.

على أنني أرُدُّ الفضلَ إلى السابقين من المفسِّرين ما استطعتُ؛ فربما سها المتأخِّرون عن نسبة بعض الفوائد إلى أصحابها كما تراه في نقلِ الشوكاني من القرطبي دون الإحالة عليه أحيانا؛ والظنُّ بأهلِ العلم أنهم لا يتشبعون بما لم يُعْطَوا ولكنهم يُورِدُون أقوالَ غيرهم جمعاً للفوائدِ في كُتبِهم؛ فالعِلمُ رَحِمٌ بين أهله؛ وربما سهَوا أو استغنَوا عن نسبةِ اللطائفِ إلى أهلها لكثرتِها وتجنباً للإطالة بتتبع ذلك.

ومن أمثلة ما يقع في الكتب مما لا يُنسَب إلى أهله قولُ الزمخشري رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾: "فإن قلتَ: فهلا قُدِّم الظرفُ على (الرَّيب) كما قُدِّم على (الغَول) في قوله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ (الصافات47)0

قلتُ: لأنَّ القصدَ في إيلاءِ الرَّيبِ حرفَ النفيِ: نفيُ الرَّيبِ عنه وإثباتُ أنه حقٌّ وصِدقٌ لا باطلٌ وكذبٌ كما كان المشركون يدَّعُونه؛ ولو أوْلَى الظرفَ لقصدَ إلى ما يبعدُ عن المراد: وهو أنَّ كتاباً آخرَ فيه الريبُ كما قصدَ في قوله: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ تفضيلَ خمر الجنة على خُمور الدنيا بأنها لا تغتالُ العقول كما تغتالها هي؛ كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العَيب والنقيصة" [الكشاف للزمخشري 76/1]. فقد نقلَه بنحو ألفاظِه النسفي وابن جزي في تفسيرَيهما دون الإحالة على الزمخشري رحمه الله [انظرْ: تفسير النسفي11/1، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي 35/1]. وتصرَّف الرازي في الألفاظ فقال: "لأنهم يُقدِّمُون الأهمَّ فالأهم، وهاهنا الأهمُّ نفيُ الرَّيب بالكُلِّية عن الكتاب، ولو قلتَ: (لا فيه ريب)؛ لأوهم أنَّ هناك كتاباً آخر حصلَ الريبُ فيه لا هاهنا كما قصدَ في قوله: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ تفضيلَ خمر الجنة على خُمور الدنيا" [التفسير الكبيرْ للرازي 18/2]. وأخذ معناه البيضاوي فقال: "لأنه لم يقصدْ تخصيصَ نفيِ الرَّيبِ به من بين سائر الكتبِ كما قصدَ ثَمةْ" [تفسيرِ البيضاوي 102/1]، وقال أبو السعود: "لم يقصدْ الإشعارَ بثُبوتِ الرَّيبِ في سائر الكتب؛ ليقتضيَ المقامُ تقديمَ الظرفِ كما في قوله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾" [تفسير أبي السعودِ25/1].

وقد أحسنَ الألوسي والزركشي رحمهما الله حين ردَّا الفضلَ إلى أهله فقال الألوسيِ: "لأن التقديمَ يُشعِر بما يبعدُ عن المراد، وهو أن كتاباً غيره فيه الريبُ كما قصد في الآية تفضيلَ خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتالُ العقول كما تغتالها؛ فليس فيها ما في غيرها من العيب، قاله الزمخشري" [روح المعاني للألوسي 107/1]. وقال الزركشي رحمه الله في بيان (مواضع إفادة الحصر): "قدم الظرف في قوله: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾؛ ليفيدُ النفيَ عنها فقط واختصاصَها بذلك؛ بخلافِ تأخيره في ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾؛ لأنَّ نفيَ

الريبِ لا يختصُّ بالقرآن بل سائر الكتب المنزلة كذلك" [البرهان في علومِ القرآن 414/2، وقد نسبه إلى الزمخشري وقرّره بأتمّ من هذا في البرهان 237/3-238].

ولا ريبَ أنّ نسبةَ الأقوالِ إلى أصحابها والدلالةَ على مظانّها أقربُ إلى الأمانة وأبعدُ عن التهمة لاسيما في زماننا؛ ومن بركةِ العلم نسبتُه إلى أهلِه.

ورَحِمَ اللهُ السيوطي ما أحسنَ قولَه في (الفارق بين الناقل والسارق) تعليقاً على قول المُزني في أول (مختصره): "كتاب الطهارة: قال الإمام الشافعي: قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (الفرقان 48) قال السيوطي رحمه الله: (أفما كان المُزَني رأى هذه الآية في المصحف فينقلها منه بدون عزوها إلى إمامه؟! قال العلماء: وإنّما صنع ذلك؛ لأنّ الافتتاحَ بها من نظامِ الشافعي لا مِن نظامه!" حتّى قال رحمه الله: "مَحَلُّ ذلك حِرصاً على أداءِ الأمانة وتجنُّب الخيانة؛ فإنها بِئْسَتِ البِطانة، وامتِثالاً للحديث، واقتِداءً بالأئمة في القديمِ والحديث، وتحرُّزاً عن الكذب والتَّشَبُّع، وتوفيةً لحقّ التتبُّع، ورغبةً في حصول النفع والبركة، ورَفْع تصنيفهم إلى أعلى درجة عن أسفل دَرَكة، وقياماً بشكر العلم وأهله، وإعطاء السابق حقَّه لفضله:

ولكنْ بَكَتْ قَبلي فهَيَّجَ لي البُكَا
بُكاها فقلتُ: الفضلُ للمتقدِّم"!

أسأل الله أن يجعلنا من أهل العلم والأمانة.

۞ المبحث الرابع: سؤالٌ وجوابٌ:

المبحث الرابع: سؤالٌ وجوابٌ:
لماذا اعتَمَدتَ قطْفَ هذهِ (الأزاهير) في الغالبِ مِن كلامِ أهلِ التفسيرِ؟
أولاً: لا يُمْكِنُ فَهْمُ القرآنِ فهماً صحيحاً إلا مِن طريقِ المفسِّرين
ثانياً: أنَّ المفسِّرين استفرَغُوا الوُسْعَ في تدبُّر الآيات، وشدَّةِ العنايةِ بالفوائدِ والعِظات.
ثالثاً: أنَّ نُورَ القرآنِ لا يُؤتاه إلا مَن استنارَ قلبُه، وصَلُحَ باطِنُه وظاهِره.
رابعاً: توفيق اللهِ للمفسِّرين الصالحين.

قد يقول قائل: لماذا اعتَمَدتَ قطْفَ هذهِ (الأزاهير) في الغالبِ مِن كلامِ أهلِ التفسير؟ وكان يُمكنُ أن تقتصر على بعضِ الشواهِدِ منها؟
والجوابُ مِن وُجوهٍ عِدَّةٍ، منها:

1) أنَّ كلَّ مُنصِفٍ يعلمُ أنه لا يُمْكِنُ فَهْمُ القرآنِ فهماً صحيحاً إلا مِن طريقِ المفسرين السابِقين والعلماءِ الراسخين؛ لأنَّ اللهَ قد رَزقهم مَلَكةً عظيمةً مِن دِقةِ الاستِنباطِ ورَوعةِ الاحتجاجِ والغوصِ على المعاني البعيدة والإشارات البديعة والعبر العجيبة والحِكَمِ الغريبة، ما لا يكاد يخطر على البالِ؛ وذلك مِن فضلِ اللهِ عليهم حيث علمَ صَفاءَ قُلوبِهم وصِدقَ إقبالِهِم على القرآن وشدةَ عِنايتِهم بنفعِ الأمةِ ببيانِ معاني؛ فوهَبَهم نعمةَ فهمِ القرآنِ العظيم! وفتحَ لهم من كُنوزه العظيمةِ، وارتضاهم لخدمةِ كتابِه، حتى قال ابنُ عطيةَ رحمَهُ اللهُ مبيِّناً طولَ عكوفِه على القرآن: "رَجَوْتُ أنَّ اللهَ تعالى يُحرِّمُ على النارِ فِكْراً عَمَّرَتْهُ أكثرَ عُمُره مَعانِيه، ولِساناً مَرَنَ على آياتِه ومَثانِيه،

ونفساً مَيَّزَتْ بَراعةَ رَصْفِه ومَبانِيه... وجعَلْتُه فائدةَ العُمُر، وما وَنِيتُ - عَلِمَ اللهُ - إلا عن ضرورةٍ؛ بحسب ما يُلِمُّ في هذه الدار من شُغوبٍ ويمسُّ من لُغوبٍ"! [المحرر الوجيز لابن عطية 4/1].

2) أنَّ المفسِّرين رحمةُ اللهِ عليهم أجمعين قد استفرَغُوا الوُسْعَ في تدبُّرِ الآيات، وشدَّةِ العنايةِ بالفوائدِ والعِظات؛ حتى استَنبطَ بعضُ المفسِّرين مِن آيةٍ واحدةٍ إحدى وخمسين فائدة، كما صنع السعدي في تفسير آيةِ الوضوءِ مِن المائدة [تيسير الكريمِ الرحمن ص 222-224]. واستخرَجَ خمسين فائدةً، من آيةِ الدَّيْن (في البقرة 282)، ثم قال مُعْتذِراً: "فهذه الأحكامُ مما يُستنبَط من هذه الآية الكريمة على حَسَبِ الحالِ الحاضرةِ والفهمِ القاصر؛ ولله في كلامِه حِكَمٌ وأسرارٌ يخصُّ بها مَن يشاء من عبادِه"! [تيسيرِ الكريمِ الرحمن ص 119].

3) أنَّ نُورَ القرآنِ لا يُؤتاه إلا مَن استنارَ قلبُه، وصَلُحَ باطِنُه وظاهرُه. وقد فاز المفسِّرون والعلماءُ الراسخون من ذلك بالنصيبِ الأكبر والحظِّ الأوفر. كما قال السيوطي في (طبقات الحفاظ) ترجمة المفسِّر البغوي صاحب (معالم التنزيل) و(شرح السنة): "بُورِكَ له في تصانيفِه؛ لِقَصدِه الصالِح؛ فإنه كان من العلماء الربَّانيِّين ذا تعبُّدٍ ونُسُكٍ"، وقال ابن كثير: "كان دَيِّناً وَرِعاً زاهداً عابداً صالحاً"!

وما أحسنَ ما شَرَحَ به ابنُ القيمِ ما قرَّرَه شيخُ الإسلام الهروي في (منازل السائرين) أنَّ البصيرة "تُفَجِّرُ المعرفةَ، وتُثبت الإشارةَ، وتُنبت الفراسة" بقوله: "يريد بـ(البصيرة) في الكشف والعيان أن تتفجرَ بها ينابيعُ المعارفِ من القلب؛ ولم يقل (تفجر العلم) لأنَّ المعرفةَ أخَصُّ من العلم عند القوم، ونِسبَتُها إلى العلمِ نسبةُ الروحِ إلى الجسد، فهي رُوحُ العلم ولُبُّه. وصَدَقَ رحمه الله؛ فإنَّ بهذه البصيرةِ تتفجَّرُ مِن قلبِ صاحبِها ينابيعُ من المعارف التي لا تُنال

بكسبٍ ولا دراسةٍ؛ إنْ هو إلا فهمٌ يُؤتيهِ اللهُ عبداً في كتابِه ودينِه على قدر بصيرةِ قلبِه" [مدارج السالكين 129/1].
وشتانَ بين فهمِ أهلِ الاستقامةِ وجهلِ أهلِ الاعوجاج (لا يستوي البحران هذا عَذبٌ فُراتٌ سائغٌ شرابُه وهذا مِلحٌ أُجاج)! ولله درُّ الراغبِ الأصفهانيِ فقد ذكرَ في (المفردات) "أنَّ القرآنَ وإن كان لا يَخلُو الناظرُ فيه مِن نُور ما يُريه، ونفع ما يُولِيه؛ فإنه:

كالبدر مِن حيثُ التفتَّ رأيتَهُ
يَهدي إلى عَينيكَ نُوراً ثاقِباً
كالشمسِ في كبدِ السماءِ وضوءُها
يَغشي البلادَ مَشارِقا ومَغارِبا!

لكنَّ محاسِنَ أنواره لا يَثقفُها إلا البصائرُ الجلِيَّة، وأطايب ثَمره لا يقطِفُها إلا الأيدي الزَّكِيَّة، ومنافع شفائه لا ينالِها إلا النفوسُ النقيَّة، كما صَرَّحَ تعالى به فقال في وَصْفِ مُتناوليه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ ﴾ (الواقعة 77-79)0 وقال في وَصْفِ سامِعيه: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى ﴾ (فصلت 44)0
وذكرتُ أنه كما لا تدخلُ الملائكةُ الحامِلة للبركات بيتاً فيه صورةٌ أو كلبٌ، كذلك لا تدخُلُ السكيناتُ الجالبةُ للبيِّنات قلباً فيه كِبْرٌ وحِرصٌ؛ فـ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ (النور 26)".

4) إنْ سأل سائلٌ عن سرِّ توفيقِ اللهِ للمفسِّرين؛ قلنا: هو ما ذكره الله عز وجل في شأنِ عبادِه الصالحين وأنبيائه المرسلين فقال جل

جلاله: ﴿ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦ ﴾ (الأنبياء 86)0
فالعِلةُ بعد فضل الله ومنّه تكمُنُ في كَوْنِهم قوماً عابِدِين، وعُلماءَ عامِلِين، ودُعاةً مُجاهِدين؛ وذلك مِن أسبابِ انتفاعِ الناسِ بكلماتِهم؛ ومَن قرأ التفاسير عرفَ قدرَ أصحابِها؛ فقد أخلصوا النية وحملوا همَّ هداية الأمة وإنقاذ البشرية.

ويكفيك في مَعرفةِ صِدقِهِم وحرصِهِم على الإسلام وسَعْيِهِم في نُصرتِه ما ذُكِرَ في ترجمةِ ابنِ عطية رحمه الله أنَّ والدَه بعثَ إليه أبياتاً يستعطفُه فيها في العودةِ من الثُّغورِ بعد خُروجِه للجهاد في سبيلِ الله، يُعاتِبه فيها بقوله:

يا نازحَ الدار لم تَحْفَلْ بمن نَزَحَتْ
دُموعَهُ طارقاتُ الهمِّ والفِكَر!
غَيَّبْتَ شخصَكَ عن عَينِي فما أَلِفَتْ
من بعدِ مرآكَ غيرَ الدَّمعِ والسَّهَر!
قد كان أولَى جِهادٍ في مواصَلَتِي
لاسيما عند ضَعفِ الجِسمِ والكِبَر!
اعتلَّ سمعي وجالَ الضُّرُّ في بَصَرِي
باللهِ كُنْ أنتَ لي سَمعي وكُنْ بَصَري!

[مقدّمة المحرَّر الوجيز الطبعة الأولى. الدوحة. 1398 هـ].
ولكنَّ هذه القُطوفَ الدانيةَ لا يُدركُ فضلَها ولا يقدرُ قدرَها إلا من ذاقَ حلاوتَها

لا يعرفُ الحبَّ إلا مَن يُكابِدُه
ولا الصَّبابةَ إلا مَن يُعانِيها!

فلا يُسَلِّمُ لأهلِ التفسير رُسُوخَهم في فَهمِ القرآنِ مَن اغترَّ بفهمٍ أُوتِيَه أو تعصَّبَ لشيخٍ قَلَّده؛ ومِن باب أولَى من لم يطَّلِعْ على روائعِ المفسِّرين القدماء منهم والمعاصرين. وأنا أُورد هاهنا أمثلةً من ذلك يعرفُ منها الواحدُ مِنا قدرَه ويزنُ بها فهمَه ويَقيسُ بها عِلمَه؛ ذلك أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يكشف أسرارَ القرآن إلا لأهلِه الذين أقبلوا عليه وقد أصلحوا نِياتِهم حتى صَفَتْ من الأدرانِ؛ كما قال عز وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ (العنكبوت 69)0 وقد سُئل حمدونُ القصارﷺ: "ما بالُ كلامِ السلف أنفع من كلامِنا؟ فقال: لأنهم تكلمُوا لعزِّ الإسلامِ ونجاةِ النفوسِ ورضا الرحمن؛ ونحنِ نتكلم لعزِّ النفوسِ وطَلبِ الدنيا ورضا الخلقِ!"[سِير أعلامِ النبلاء للذهبي 152/7].
ولْيُجَرِّب مَن يتوهم أنه يمكن الاستغناء عن المفسِّرين في فهمِ القرآن؛ فيسأل نفسَه مثلاً: (ما هي دلالةُ سورةِ

الفاتحة على إثباتِ النبوّات؟) ثم يقرأ قولَ ابنِ القيم رحمه الله: "تضمَّنَتْ إثباتَ النبواتِ من جهاتٍ عديدة: أحدها: كونه ربَّ العالمين؛ فلا يليق به أن يترك عبادَه سُدىً هملاً لا يُعرِّفهم ما ينفعهم في معاشِهم ومعادِهم وما يضرهم فيهما؛ فهذا هضمٌ للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به... الثاني: أخذها من اسم الله وهو المألوه المعبود؛ ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله. الموضع الثالث: من اسمه الرحمن؛ فإن رحمته تمنع إهمالَ عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم؛ فمن أعطَى اسم الرحمن حقَّه عرف أنه متضمِّنٌ لإرسال الرسل، وإنزال الكتب أعظم من تضمُّنِه إنزالَ الغيث وإنباتَ الكلأ وإخراجَ الحب. فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياةُ القلوب والأرواح أعظمُ من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدواب، وأدرك منه أولُو الألبابِ أمراً وراء ذلك. الموضع الرابع: من ذكر ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾؛ فإنه اليوم الذي يدين الله العبادَ فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات ويعاقبهم على المعاصي والسيئات. وما كان الله لِيعذِّب أحداً قبل إقامةِ الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه... الموضع الخامس: من قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فإنَّ ما يُعبَدُ به الربُّ تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه. وعبادتُه وهي شكرُه وحُبُّه وخشيتُه فطريٌّ ومعقولٌ للعقول السليمة. لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم... الموضع السادس: من قوله:﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة؛ ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل" [مدارج السالكين 1/7-9].

ثم لينظرْ كيف استنبط الشنقيطي رحمه الله صحةَ إمامةِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه من قوله تعالى: (اهْدِنا الصراطَ المستقيمَ صِراطَ الذين أنعمتَ عليهم)، فقال: "يؤخَذُ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ

صِحةُ إمامةِ أبي بكر الصّدّيق؛ لأنّه داخِلٌ فيمَنْ أمَرَنا اللّهُ في السبعِ المثاني والقرآن العظيم ـ أعني الفاتحة ـ بأن نسأله أن يهديَنا صِراطَهم؛ فدلَّ ذلك على أنَّ صِراطَهم هو الصِّراطُ المستقيم؛ وذلك في قوله: (اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين). وقد بيّنَ الذين أنعم عليهم فعدَّ منهم الصّدّيقين. وقد بيّنَ ﷺ أنَّ أبا بكر من الصّدّيقين؛ فاتّضحَ أنه داخلٌ في الذين أنعمَ اللّهُ عليهم، الذين أمرَنا اللّهُ أن نسألَه الهدايةَ إلى صِراطِهم؛ فلم يبقَ لَبْسٌ في أنَّ أبا بكر الصّدّيق على الصّراط المستقيم، وأنَّ إمامتَه حقٌّ" [أضواء البيان 8/1].

ثم ليتأمَّلْ: كيف استنبطَ السعدي رحمه الله من آياتِ الطلاقِ فوائدَ إداريةً نافعةً، حيث قال في تفسير قولِ الله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾

(البقرة 230) "في هذا دلالةٌ على أنّه ينبغي للإنسانِ إذا أرادَ أن يَدخُلَ في أمرٍ مِن الأمور خُصوصاً الولاياتِ الصغار والكبار؛ أن ينظرَ في نفسِه؛ فإنْ رأى مِن نفسِه قُوّةً على ذلك، ووَثِقَ بها؛ أقْدَمَ، وإلا أحْجَمَ" [تيسير الكريم الرحمن ص 103].

أسأل اللهَ العظيمَ ربَّ العرشِ الكريم أن يُباركَ في هذه (الأزاهير) فتكون دلِيلاً للمسلِمِين إلى معرفة (التفسير)؛ وأن يُسْعِدَ بها الأسرةَ المسلمة، ويجمعها حولَ كتابِ ربّها تتعلّم ما ينفعها وتُحيي سُنةَ الاستماعِ إلى القرآن، كما وردَ ذلك في حديثِ ابن مسعود وقول النبي ﷺ: (إني أُحِبُّ أنْ أسمعَه من غيري)، قال النووي رحمه الله: "فيه فوائد، منها: استحبابُ استماعِ القراءةِ والإصغاءِ لها، والبكاءِ عندها، وتدبُّرها، واستحبابُ طلب القراءة من غيره؛ ليستمعَ له، وهو أبلغُ في التفهُّم والتدبُّر من قراءتِه بنفسِه" [شرح النووي على مسلم 88/6].

۞ المبحث الخامس:
الاستماع إلى القرآن:

المبحث الخامس: الاستماع إلى القرآن:
1) معاني السماع في اللغة:
2) معاني السماع في القرآن:
3) فقه السماع مِن الغير:
4) شروط الانتفاع بالقرآن:
5) استماع الأذن واستماع القلب:
6) الطاعة من أعظم معاني الاستماع:
7) معركة الاستماع إلى القرآن:
8) الفوز بالرحمة من ثمرات الاستماع:
9) الاستماع علامة المحبَّة:
10) شتَّان بين سَماعٍ وسَماع!

الحمد لله ربِّ العالمين القائل جلَّ جلاله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ (الزمر17-18). والصلاة والسلام على خير خلق الله نبيِّنا محمد القائلﷺ: (إنّي أُحِبُّ أن أسمعَه مِن غيري) [رواه البخاري في (التفسير) و(فضائل القرآن) باب (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْتَمِعَ القُرآنَ مِن غَيرِه)، عن ابن مسعودﷺ قال: قال لي النبيُّﷺ: (اقْرَأْ عَلَيَّ. قُلْتُ: أقرأ عليك، وعَلَيْكَ أُنْزِل؟! قال: فَإنّي أُحِبُّ أنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْري؛ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورةَ النِّساء، حَتَّى بَلَغْتُ: (فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤلاءِ شَهيدا)، قالَ: أَمْسِكْ؛ فإذا عَيْناه تَذْرِفان)! [فتح الباري 124/9].

وبعد، فقد ذكر أهلُ العلمِ أنّ الاستماعَ إلى القرآن علامةٌ على حياةِ القلب، وشهادةٌ على حُضور الذهن، ودليلٌ على قوّةِ الإيمان؛ كما قال الله عزّ وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧ ﴾ (ق 37)0 قال الرازي رحمه الله: "المعنى: لِمَن سمع الذكرى بفهمٍ حاضر. وعكسه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ (لقمان 7)" [التفسير الكبير للرازي 119/7]. وقال ابن عطية رحمه الله: "﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلبٌ واعٍ ينتفع به. وقال الشبلي: معناه: قلبٌ حاضرٌ مع الله لا يغفل عنه طرفة عين" [المحرر الوجيز لابن عطية 167/5]. وقال السعدي رحمه الله: "﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلبٌ عظيمٌ حيٌّ ذكيٌّ زكيٌّ؛ فهذا إذا ورد عليه شيءٌ من آياتِ الله تذكّر بها وانتفع؛ فارتفع" [تيسير الكريم الرحمن 807/1].

ورحِم اللهُ ابنَ القيم ما أحسنَ قولَه: "جعل الله سبحانه كلامَه (ذكرى) لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة: أحدها: أن يكون له ﴿ قَلْبٌ﴾ حيٌّ واعٍ؛ فإذا فقد هذا القلبَ لم ينتفعْ بالذكرى، الثاني: أن يُصغيَ بسمعِه، فيميله كلَّه نحوَ المخاطب؛ فإن لم يفعلْ لم ينتفعْ بكلامه، الثالث: أن يُحْضِرَ قلبَه وذهنَه عند المكلِّم له: وهو (الشهيد) أي الحاضرُ غيرُ الغائب؛ فإن غاب قلبُه وسافر في موضعٍ آخر لم ينتفع بالخطاب" [مدارج السالكين لابن القيّم 231/3].

1) معاني السماع في اللغة:

ذكر العلامة ابن فارس رحمه الله أنّ "السين والميم والعين أصلٌ واحدٌ، وهو إيناس الشيء بالأذن من الناس وكلّ ذي أذن، تقول: سمعتُ الشيءَ سمعاً، والسّمع: الذكر الجميل، يقال: قد ذهب سِمْعُهُ في الناس: أي صِيتُه..." [معجم مقاييس اللغة لابن فارس102/3].

2) معاني السماع في القرآن:

ورد السماع في كتاب الله عزّ وجلّ على معانٍ كثيرةٍ مردُّها إلى ثلاثة أصول: أولها: آلة السمع: وهي الأذن، وثانيها: الفعل: وهو الاستماع، وثالثها: ثمرة السمع: وهي الفهم والانتفاع والطاعة والاستجابة، كما قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: "السمعُ قوةٌ في الأذن به يُدْرك الأصوات، وفعلُه يُقال له السمع أيضاً، وقد سمع سمعاً. ويُعبَّر تارةً بالسمع عن الأذن، نحو: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (البقرة 7)0 وتارةً عن فعله كالسماع، نحو ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ (الشعراء 212) وقال تعالى: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق 37)0 وتارةً عن الفهم، وتارةً عن الطاعة: تقول: "أسمع ما أقول لك ولم تسمعْ ما قلت"، وتعني: لم تفهمْ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الأنفال 31)0 وقوله: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴿٩٣﴾ ﴾ (البقرة 93)0 أي: فهمنا قولك ولم نأتمِرْ لك، وكذلك قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ (البقرة 285)، أي: فهمنا، وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الأنفال 21)0 يجوز أن يكون معناه: فهمنا وهم لا يفهمون، وأن يكون معناه: فهمنا وهم لا يعملون بموجبه؛ وإذا لم يعمل بموجبه فهو في حُكمِ مَن لم يَسمَع، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنفال 23)0 أي: أفهمهم بأن جعل لهم قوّةً يفهمون بها. وقوله: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ (النساء 46)0 يُقال على وجهين: أحدهما: دُعاءٌ على الإنسان بالصمم، والثاني: دعاءٌ له... [قلتُ: قال

الطبـري رحمـه الله: "يقولـون لـه ﴿ وَٱسْمَعْ ﴾ منـا ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ كقول القائل للرجل يَسُبُّه: اسمع لا أسـمعك الله!" تفسير الطبـري 118/5]... وكـلُّ موضـعٍ أثبـتَ الله فيـه الـسمعَ للمؤمنين أو نفَى عن الكافرين أو حثَّ على تَحرِّيه؛ فالقصدُ به إلى تصوُّر المعنى والتفكُّر فيه نحـو:﴿ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (الأعـراف 195). ونحــو: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ (البقـرة 18) ونحــو: ﴿ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ (فـصلت 44)" [المفردات في غريـب القـرآن للراغـب ص242].

3) فقه السماع مِن الغير:

لا شكّ أنّ "الاستماع والإنصات مراتبُ بحسب مراتب المستمعين" كما قال ابن عاشور رحمه الله [تفسير التحرير والتنوير 239/9]. وقد روى البخاري رحمه الله في كتاب (التفسير)، وفي (فضائل القرآن) باب (من أحبَّ أن يستمعَ القرآنَ من غيره)، عن عبد الله بن مسعودﷺ قال: قال لي النبيﷺ: (اقرأ عليَّ؛ قلتُ: أقرأ عليك، وعليك أُنزل؟! قال: فإنّي أحِبّ أن أسمعه من غيري؛ فقرأتُ عليه سورة النساء، حتى بلغتُ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء 41)0 قال: أمْسِكْ؛ فإذا عينان تذرفان)! [فتح الباري 124/9]. وفي باب (البكاء عند قراءة القرآن) من (فضائل القرآن) قالﷺ: (إنّي أشتهي أن أسمعه من غيري!) [الفتح 121/10]. قال ابن بطّال رحمه الله: "يحتمل أن يكون أحبّ أن يسمعه من غيره؛ ليكون عرض القرآن سنةً، ويحتمل أن يكون لكي يتدبّره ويتفهّمه؛ وذلك أنّ المستمع أقوى على التدبّر، ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القاريء؛ لاشتغاله بالقراءة وأحكامها" [فتح الباري 121/10].

4) شروط الانتفاع بالقرآن:

قال ابن القيّم رحمه الله: "إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآن؛ فاجمعْ قلبَكَ عند تلاوتِهِ وسماعِهِ، وألْقِ سَمْعَكَ، واحضرْ حُضورَ مَن يخاطبه به مَن تكلّم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسولِهِ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق37)0 وذلك أنَّ تمام التأثير لمّا كان موقوفاً على مؤثِّرٍ مُقْتَضٍ ومحلٍّ قابلٍ وشرطٍ لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمّنت الآية بيانَ ذلك كلِّه بأوْجَزِ لفظٍ وأبْيَنِهِ وأدَلِّهِ عن الْمُراد.

1) فقولُهُ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدّم من أوّل السورة إلى هاهنا، وهذا هو المؤثِّر.

2) وقولُهُ: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فهذا هو المحلُّ القابلُ، والمراد به: القلبُ الحيُّ الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (يس 69-70)0 أي: حيّ القلب.

3) وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: وجَّهَ سمعَه، وأصغى حاسّةَ سمعِهِ إلى ما يُقال له؛ وهذا شرطُ التأثُّرِ بالكلام.

4) وقولُه: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق37)0 أي شاهدُ القلب، حاضرٌ غيرُ غائبٍ، قال ابن قتيبة: استمعَ كتابَ الله وهو شاهِدُ القلبِ والفَهمِ، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ، وهو إشارةٌ إلى المانعِ من حصولِ التأثير، وهو سهْوُ القلب وغفلتُهُ عن تعقُّلِ ما يُقالُ له والنظرِ فيه وتأمُّلِهِ.

*فإذا حَصلَ المؤثِّرُ وهو القرآنُ، والمحلُّ القابلُ وهو القلبُ الحيُّ، ووُجِدَ الشرطُ وهو الإصغاءُ، وانتفى المانعُ وهو اشتغالُ القلبِ وذهولُهُ عن معنى الخطابِ وانصرافُهُ عنه إلى شيءٍ آخر؛ حصل الأثرُ وهو الانتفاعُ والتذكُّر" [الفوائد لابن القيّم ص 9-10].

وصدقَ رحمه الله؛ فقد ذكر القرآن انتفاعَ مؤمني الجن باستماعِهم القرآن بإنصاتٍ وإصغاءٍ وحُضور قلب؛ ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ فلذلك أجابوا داعيَ الله وصاروا دُعاةً إلى الله ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾، وأثنى عليهم القرآن بذلك، فقال الله عزّ وجل: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأحقاف 29-32)0

5) استماع الأذن واستماع القلب:

لقد صرّحَ القرآنُ بأنَّ من القلوبِ ما لا يبلغُها نورُ الآيات؛ لأنَّ عليها غطاءً وطابعاً مانعاً من وُصولِ الهدى إليها، كما قال عز وجلّ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الجاثية23)0

وقال جلّ جلاله: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (فصلت 44)0

وقد بيّنَ الله عزّ وجل تبعيةَ السمع للقلبِ؛ فإذا طُبِعَ على القلب خُتِمَ على السمع، كما قال عزّ وجل: ﴿ لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (الأعراف 100). وقال جلّ

جلاله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (البقرة 7)0

فإذا لم تنتفع القلوبُ فلم تفقَهْ ولم تَعقِلْ؛ صُمَّت الآذان وعميت الأبصار، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج 46)، **وقال جلَّ جلاله:** ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (الأعراف 179).

فأنَّى ينتفع بالآيات من أعرضَ عنها بقلبه؟! فهو في صَممٍ عنها وإنْ سمعها بأذنه! كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (فصلت 4)0 **وقال عزَّ وجل:** ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (الكهف 57)0

قال ابن الجوزي رحمه الله: "السماع: إدراك السمع للمسموعات، والسمعُ: الحاسّة المُدركة للأصوات... وذكر أهل التفسير أنّ السماع في القرآن على وجهين: أحدهما: إدراكُ السمع للمسموعات، ومنه قولُه تعالى في آل عمران: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ (آل عمران 193). **وفي (هل أتى)** ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (الإنسان 2)، **وفي سورة الأحقاف:** ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (الأحقاف29)0 **وهو عامٌّ. والثاني: سماعُ القلب: وهو قبولُه للمسموع، ومنه قولُه تعالى في سورة هود:** ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ (هود 20)0 **وفي الكهف:** ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ (الكهف

101)" [نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي ص 346].
فمِن فِقهِ الاستماع: أن نُدركَ عدمَ انتفاع الحواسِّ بما تسمعِ وما تبصر؛ إذا لم ينتفع القلب ولم يَستَجِبْ؛ لأنَّ القلبَ مَلِكُ الأعضاء، والحواسُّ تابعةٌ له في الهدى والضلال، وهو المضغةُ التي (إذا صلحت؛ صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت؛ فسد الجسد كلّه) [متفق عليه في حديث: (الحلال بيِّنٌ، والحرام بَيِّنٌ)]؛ فلذلك نفى القرآنُ الانتفاعَ بالسمع والبصر معاً، فقال عزَّ وجل: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ۝٢٠﴾ (هود20)0 وقال جلَّ جلاله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١﴾ (الكهف 101).

6) الطاعة من أعظم معاني الاستماع:

ورد الاستماعُ بمعانٍ عِدّةٍ في القرآن الكريم، من أهمِّها: معنى الطاعة والاستجابة:
أ) كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ﴾ (البقرة 93)0
قال الطبري رحمه الله: "أما قوله: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ فإنَّ معناه: واسمعوا ما أمرتُكم به، وتقبَّلوهُ بالطاعة: كقول الرجل للرجل يأمره بالأمر: "سمعتُ وأطعتُ"، يعني بذلك: سمعتُ قولَك وأطعتُ أمرَك. كما قال الراجز:

السّمْعُ والطّاعَةُ والتّسْلِيمْ
خَيْرٌ وأعْفَى لِبَنِي تَمِيمْ

يعني بقوله "السمع": قَبُولَ ما يُسمَع والطاعة لما يؤمر. فكذلك معنى قوله: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾: اقبلوا ما سمعتم واعملوا به" جامع البيان عن تأويل آي القرآن 422/1.
وقال القرطبي رحمه الله: "معنى ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾: أطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط، وإنما المراد: اعملُوا بما

سمعتم والتزموه؛ ومنه قولهم: "سمِع ٱللهُ لمن حمده": أي قَبِل وأجاب. قال:

دعوتُ اللهَ حتى خِفتُ ألاَّ
يكونَ اللهُ يسمعُ ما أقولُ!

أي: يَقبل" [الجامع لأحكام القرآن 31/2].

ب) ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝ ﴾ (الزمر 17-18)0 قال ابنِ عاشور رحمه الله: "دلَّ ثناءُ الله على عبادِه المؤمِنين الكُمَّل: بأنهم أحرزوا صفةَ اتباع أحسنَ القولِ الذي يسمعونه" [التحرير والتنوير 367/23].

ج) وكذلك قولُـه جـلَّ جلالُـه: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحقاف 29- 31).

7) معركة الاستماع إلى القرآن:

لا يخفى أنَّ الحربَ الإعلامية التي يشنُّها الذين كفروا على أُمَّتنا؛ تهدف إلى إبعادِ المسلمين عن كتابِ ربِّهم، وإشغالِهم عن دينِهم، وإفسادِ عقائدِهم، وتدمير أخلاقِهم. وذلك مقْصدٌ قديمٌ نصَّ عليه القرآنُ في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝ ﴾ (فصلت 26)0

قال الطبري رحمه الله: "قالوا للذين يُطِيعُونهم من أوليائهم مِن المشركين: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ ﴾ لقارىء هذا القرآن إذا قرأه، ولا تُصْغُوا له، ولا تتبعوا ما فيه؛ فتعملوا به"، وروى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ "هذا قول المشركين، قالوا: لا تتبعوا هذا القرآن والْهَوْا عنه". وقوله: ﴿ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ يقول: الْغَطُوا بالباطل من القول إذا سمعتم قارئه يقرؤه؛

كَيْما لا تسمعوه، ولا تفهموا ما فيه... وعن مجاهد قوله: ﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ قال: بالمكاء والتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن... وعن قتادة: أي اجحدوا به وأنكِروه وعادوه، قال: هذا قولُ مُشركي العرب... وعن معمر قال: قال بعضُهم في قوله: ﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ قال: تحدَّثُوا وصِيحُوا كيما لا تسمعوه. وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ لعلَّكم بِفِعْلِكم ذلك تَصُدُّون مَن أراد استماعَه عن استماعِه فلا يسمعه؛ وإذا لم يَسمَعْه ولم يَفهَمْه لم يتبعه؛ فتغلبون بذلك من فِعْلِكم محمدا" [جامع البيان 112/24].

وقال القرطبي رحمه الله: "لَمَّا أخبرَ تعالى عن كُفر قوم هود وصالح وغيرهم؛ أخبرَ عن مُشركي قريش، وأنهم كذَّبوا القرآنَ فقالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ﴾، وقيل: معنى ﴿لَا تَسۡمَعُواْ﴾: لا تطيعوا؛ يقال: سمعتُ لك: أي أطعتك، ﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه؛ حتى لا يدري ما يقول. وقيل: إنهم فعلوا ذلك لَمَّا أعجزَهم القرآن. وقال مجاهد: المعنى :﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ بالمُكاء والتَّصفيق والتخليط في المنطق؛ حتى يصير لَغْواً. وقال الضحاك: أكثِروا الكلام؛ ليختلط عليه ما يقول. وقال أبو العالية وابن عباس أيضاً: قَعُوا فيه وعَيِّبُوه ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ محمداً على قراءته؛ فلا يظهر ولا يستميل القلوب" [الجامع لأحكام القرآن 356/15].

وقال ابن كثير رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ أي: تواصَوْا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره ﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ أي: إذا تُلِيَ لا تسمعوا له، كما قال مجاهد:﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ يعني: بالمكاء والصفير والتخليط في

المنطق... ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومَن سلك مَسْلكَهم عند سماع القرآن، وقد أمرَ الله سبحانه وتعالى عبادَه المؤمنين بخلاف ذلك فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ (الأعراف 204)" [تفسير القرآن العظيم 123/4].

وما أصدقَ ما استنبطَه ابنُ عاشور رحمه الله من هذه الآية، فقال: "هذا مِن شأنِ دُعاةِ الضلالِ والباطلِ أن يَكُمُّوا أفواهَ الناطقين بالحق والحجَّة بما يستطيعون من تخويفٍ وتسويلٍ، وترهيبٍ وترغيبٍ، ولا يَدَعُوا الناسَ يتجادلون بالحجَّة ويتراجعون بالأدلّة؛ لأنهم يُوقِنُون أنَّ حُجَّة خُصومِهم أنهضُ، فهم يستورنها ويدافعونها لا بمثلها ولكن بأساليبَ من البهتان والتضليلِ؛ فإذا أعيَتْهم الحِيَلُ ورأَوْا بوارقَ الحق تخفقُ خشوا أن يَعُمَّ نورُها الناس الذين فيهم بقيَّةٌ من خير ورُشد؛ عَدلُوا إلى لَغو الكلام، ونفخُوا في أبواقِ اللغو والجعجعة؛ لعلّهم يغلبون بذلك على حُجَج الحق، ويغمرون الكلام القولِ الصالح باللّغو" [التحرير والتنوير 277/24].

8) الفوز بالرحمة من ثمرات الاستماع:

أكّد العلماءُ اقترانَ الرحمة بالسماع والإعراض بالعذاب، وقد حكى القرآن عن أصحاب النار أنهم ندموا على إعراضهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ (الملك10)0

قال الرازي رحمه الله: "فجعلوا السمعَ سبباً للخلاص من عذاب السعير" [التفسير الكبير 82/17].

وقد وَعدَ الله عزَّ وجلَّ عبادَه المستمعين للقرآن المنصِتين إليه بالرحمة، فقال جلَّ جلاله: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ (الأعراف 204) قال الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذِكرُه للمؤمنين به، المُصدِّقين بكتابه، الذين القرآن لهم هُدًى ورحمةٌ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ﴾ عليكم أيها

المؤمنون ﴿ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ ﴾ يقول: أصغوا له سمعكم؛ لتتفهَّموا آياته وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا إليه لتعقلوه وتتدبَّروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه؛ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ يقول: ليرحمكم ربُّكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعِبَره، واستعمالكم ما بيَّنَه لكم ربُّكم مِن فرائضِه في آيه" [جامع البيان 162/9].

وقال القرطبي رحمه الله: "الإنصاتُ: السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة. أنْصَتُ يُنصت إنصاتاً؛ ونَصت أيضاً؛ قال الشاعر:

قال الإمامُ عليكم أمْرَ سيِّدكم
فلم نُخالفْ وأنصتنا كما قالا!

ويُقال: أنصتوه وأنصتوا له: قال الشاعر:

إذا قالتْ حَذامِ فأنْصِتوها
فإنَّ القولَ ما قالت حَذامِ

... ومدحَ الجنَّ على ذلك فقال: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (الأحقاف 29) الآية" [الجامع لأحكام القرآن 354/7].

وروى محمد بن عبد الواحد الغافقي رحمه الله (ت 619 هـ) في (لمحات الأنوار) باب (ما جاء فيمن استمع آيةً من كتاب الله تعالى أو قرأها) عن الليث: "يُقال: ما الرحمةُ إلى أحدٍ بأسرع منها إلى مُستمِع القرآن؛ لقول الله جلّ ذكرُه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف 204)".

ولله دَرُّ صاحبِ الظلال حيث قال: "حيثما قُرىء القرآنُ واستمعتْ له النفسُ وأنصتَتْ؛ كان ذلك أرْجَى لأن تَعِي وتتأثَّرَ وتستجيب! فكان ذلك أرْجَى أن تُرْحَمَ في الدنيا والآخرة جميعاً؛ إنَّ الناس يخسرون الخسارةَ التي لا يُعارضها شيءٌ بالانصرافِ عن هذا القرآن، وإنَّ الآيةَ الواحدةَ لَتصنعُ أحياناً في النفس - حين تستمعُ لها وتُنْصِت - أعاجيبَ من الانفعال والتأثُّر والاستجابة والتكيُّف والرؤية

والإدراك والطمأنينة والراحة، والنُّقْلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة مما لا يُدْركُه إلا من ذاقه وعرفه! وإنّ العُكُوفَ على هذا القرآنِ - في وَعْيٍ وتدبُّرٍ لا مجرَّد التلاوة والترنُّم - لَيُنْشيءُ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى، ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة، ومن الحرارة والحيويّة والانطلاق، ومن الإيجابيّة والعزم والتصميم؛ ما لا تُدانيه رياضةٌ أخرى أو معرفةٌ أو تجريب"! [في ظلال القرآن 9/1425-1426].

9) الاستماع علامة المحبَّة:

قال ابن القيّم رحمه الله: "إذا أردتَ أن تعلمَ ما عندك وعند غيرك من محبة الله؛ فانظرْ محبَّةَ القرآنِ من قلبك، والتذاذَك بسماعِهِ أعظمَ من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المُطرب بِسَماعِهِم؛ فإنَّ من المعلوم أنّ مَن أحبَّ محبوباً كان كلامُه وحَديثُه أحبَّ شيءٍ إليه... فلِمُحِبِّي القرآنِ مِن الوَجدِ والذَّوقِ واللَّذَّةِ والحلاوةِ والسُّرورِ أضعافُ ما لِمَحِبِّي السماعِ الشيطاني" [الجواب الكافي لابن القيم ص 240].

ولِلّه دَرُّ ابن قدامة ما أحسنَ قولَه: "إنَّما الوَجدُ الصحيحُ وجْدُ القلبِ عند سماعِ القرآنِ العظيمِ والوَعظِ؛ فحينئذ يَثُورُ مِن الباطنِ خَوفٌ من الوَعيدِ، وشَوقٌ من الوَعد، وندمٌ على التفريط"! [مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ص156].

10) شتَّان بين سَماعٍ وسَماع!

ورحم الله أصحابَ النبيِّ ﷺ وأهلَ القرون الأولى المباركة؛ فقد كان سماعُهم للقرآنِ، وتلَذُّذُهم بالقرآن، وكانوا أبعدَ الخلقِ عن السماعِ المحرَّمِ، ورضي الله عن الصِّدِّيق فقد وصَفَته ابنته عائشة رضي الله عنها وَصفاً بديعاً وأثنتْ عليه ثناءً جميلاً بقولها: (كان أبو بكر رجلا بكّاءً؛ لا يملكُ عينيه إذا قرأ القرآن!) [فتح الباري 7/637].

ولله دَرُّ القحطاني حيث قال:

إنّ التقـيّ لربّـهِ مُتنـزّهٌ
عن صوتِ أوتارٍ وسَمـعِ أغانِ!
وتلاوةُ القرآنِ من أهلِ التُّقـي
سِيَما بحُسْنِ شَجًا وحُسْنِ بيانِ!
أشْهَى وأوْقَى للنفوسِ حَلاوةً
مِنْ صَوْتِ مزمارٍ ونَفْرِ مَثـانِ(*)
وحَنِيـنُهُ في الليلِ أطْيَبُ مَسْمَعاً
مِنْ نَغْـمَةِ النَّايَاتِ والعِيدَانِ!

نونيّة القحطاني ص 82-83.

(*) قال ابن منظور رحمه الله: "المثاني: من أوتـار العـود". [لسان العرب 120/14].

۞ المبحث السادس:
سُبُلُ الانْتِفَاعِ بالقُرْآن:

المبحث السادس: سُبُلُ الانْتِفَاعِ بالقُرْآن:
1) فضلُ الاستمساكِ بالقرآن:
2) فضلُ صاحبِ القرآنِ:
3) فضلُ تدبُّرِ القرآن:
4) ما يتعلَّقُ بنيةِ القراءة:
5) ما يتعلَّقُ بصفةِ القراءة:
6) ما يتعلَّقُ بالفَهْمِ والعَمل:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ (الكهف1-2)0 **وبعد، فمن أعظم النِّعم التي حبا اللهُ بها أهلَ الإسلام هذا الكتابُ المبين الذي** ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (الإسراء 9)0

1) فضلُ الاستمساكِ بالقرآن:

لقد اعتبرَ النبيُّﷺ التمسُّكَ بالقرآنِ من أسبابِ السعادةِ في الدنيا كما ورد في حديث عمرﷺ: (إنَّ الله تعالى يرفعُ بهذا الكلام أقواماً ويضع به آخرين) [رواه مسلم]، كما أنه سبيلٌ للفوز والنجاةِ يوم القيامة، فقد روى أبو أمامة الباهليﷺ قال: سمعتُ رسولَ اللهﷺ يقول: (اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه) رواه مسلم؛ وقد بشَّر الله عز وجل الذين يتلون كتابَ الله بالتجارة الرابحة في الدنيا والآخرة، فقال جلَّ جلاله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ (فاطر 29-30)0

وبَيّنَ النبيُّ ﷺ أنّ ذلك مِن أعظمِ النِّعَمِ والقُرُباتِ التي يُغبطُ عليها المؤمنُ، كما روى ابنُ عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (لا حَسَدَ إلاّ في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ القرآن فهو يقومُ به آناء الليل وآناء النهار، ورجلٌ آتاه اللهُ مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) [رواه البخاري ومسلم].

وحسب المرءِ دلالةً على جلالة شأن القرآن تعلّماً وتلاوةً وتعليماً ما أرشدَ إليه النبي ﷺ أنَّ ذلك في الغايةِ القُصوى مِن الخيرية، كما جاء في حديثِ عثمان ذي النورين ﷺ عن النبي ﷺ قال: (خَيْرُكم مَن تَعَلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَه) [رواه البخاري].

2) فضلُ صاحبِ القرآنِ:

وقد كانت معرفةُ القرآن والتفقه فيه غايةَ المرام عند الصحابة الكرام ﷺ؛ وذلك بسبب ما استقرَّ في وجدانِهم من تعظيمِ النبي ﷺ لصاحبِ القرآن، كما روى مسلم رحمه الله عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ عن النبي ﷺ قال: (يؤمُّ الناسَ أقرؤهم لكتابِ الله تعالى)؛ ومن أجلِ ذلك كان أصحابُ القرآنِ زمن الصحابة ﷺ مُقدَّمِين في الإمامة والشورى؛ بخلافِ ما عليه الناس في الأزمنة المتأخرة، والله المستعان! وقد روى البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان القُرَّاءُ أصحابَ مجلس عمر ﷺ ومُشاوَرتِه كُهُولاً وشَباباً"، وروى البخاري أيضاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (أنَّ النبيَّ ﷺ كان يجمعُ بين الرَّجُلَين مِن قتلى أُحُد، ثم يقول: أيُّهما أكثرُ أخذاً للقرآن؟ فإن أُشيرَ إلى أحدِهما؛ قدَّمَه في اللَّحْد).

ولكنْ لكلِّ زمانٌ أهلُه؛ فحين كان الناسُ أصحابَ علم وقرآن وآخرة قدَّموا أهلَ القرآن والعلم؛ وحين أعرض الناس عن القرآن أخّروا أهلَه وأقبلوا على أهل الدنيا والمال والجاه والسلطان! فكأنما عنانا الشاعر بقوله:

لما تبدَّلت المجالسُ أوجُهاً
غيرَ الذينِ عَهدتُ مِن عُلمائها!
ورأيتُها محفوفةً بسِوى الألى
كانوا وُلاةَ صُدورِها وفِنائها!
أنشدتُ بيتاً سائراً مُتقدِّما
والعينُ قد شَرِقَت بجاري مائها!
أما الخيامُ فإنها كخِيامِهم
وأرى نساءَ الحي غيرَ نسائها!

3) فضلُ تدبُّرِ القرآن:

لا ريبَ أنَّ تدبُّرَ القرآنِ مِن الواجباتِ التي ينبغي للمسلِمين أنْ يعتنُوا بإحيائها ولا يستهِينُوا بها؛ فقد قال القرطبي رحمه الله: "الواجبُ علىِ مَن خصَّه الله بحفظِ كتابِه أن يتلوَه حقَّ تلاوتِه، ويتدبرَ حقائقَ عبارتِه، ويتفهمَ عجائبَه ويتبيَّنَ غرائبَه، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (ص 29)0 وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد 24)؛ جعلَنا الله ممن يرعاه حقَّ رعايتِه، ويتدبره حقَّ تدبُّره، ويقوم بقِسطِه ويُوفِي بِشَرطِه، ولا يلتمسُ الهُدى في غيره. وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة؛ فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة" [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي1/1-2].

ولا يخفى أنَّنا لا ننتَفِعُ بهذه الآياتِ المشتمِلَة على المعرفةِ والنُور؛ إلا إذا صارتْ آياتٍ بيِّناتٍ في الصُّدور! كما قال الله عزَّ وجل: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت 49)0

فما أحسنَ أن تجتمعَ كثرةُ التلاوة مع جَنْي الثمراتِ وإدراكِ العِظات.

4) ما يتعلَّقُ بنيةِ القراءة:

وحَريٌّ بمن يقرأ القرآنَ أن يقرأه بِنيَّة العمل به والتخلُّق بأخلاقِه، كما وصفت أمُّنا عائشة رضي الله عنها النبيَّ ﷺ

بأنه (كان خُلُقُه القرآن) [رواه مسلم]. فعلى هذا الأساس ينبغي أن نفهمَ فضلَ قارئِ القرآنِ ونَعِيَ أمانتَه وواجبَه تجاه كتابِ الله، كما قال القرطبي رحمه الله تعالى: "خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مُرادَه فعلموا؛ فقُرَّاءُ القرآنِ حَمَلَةُ سرِّ اللهِ المكنون، وحَفَظَةُ علمِه المخزون، وخُلَفاءُ أنبيائه، وأُمَناؤه، وهم أهلُه وخاصَّتُه وخِيرتُه وأصفِياؤه. قال رسولُ اللهِﷺ: (إنَّ لله أهلِين من الناس. قالوا: يا رسولَ الله مَن هم؟ قال: هم أهلُ القرآن أهل الله وخاصَّته) أخرجه ابن ماجه في سننه وأبو بكر البزار في مُسنده" [الجامع لأحكامِ القرآن للقرطبي 1/1].

ويُستحَبُّ الدعاءُ والتسبيحُ أثناءَ قراءةِ القرآن؛ تأسِّياً بالنبيِّﷺ، فقد روى مسلم رحمه الله أنَّ النبيﷺ (إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبَّحَ، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مَرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذ).

5) ما يتعلَّقُ بصفةِ القراءة:

ومِن أعظمِ أسبابِ الانتفاعِ بالقرآنِ أنْ يقرأه بعَقلٍ حاضِرٍ وقلبٍ خاشِعٍ؛ وأنْ يتدبَّرَ الآياتِ ويشعُرَ بحلاوةِ المناجاة؛ ويا فوزَ مَن انسكبَتْ في قلبِه الآياتُ وسالتْ على خَدَّيْه العبرات! فالبُكاءُ عند قراءةِ القرآن "صِفةُ العارفين، وشِعارُ عِبادِ الله الصالحين؛ قال الله تعالى: (ويَخِرُّون للأذقانِ يَبْكُون ويَزيدُهم خُشوعاً)" [التبيان في آدابِ حملةِ القرآن للنووي ص45-46].

فالبكاءُ خوفاً مِن اللهِ ثمرةُ تدبُّر القرآنِ، كما قال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلَى عليهم يخِرُّون للأذقان سُجَّداً ويقولون سُبحانَ ربِّنا إنْ كان وَعْدُ ربِّنا لَمَفعولا وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهم خُشُوعا) [الإسراء107- 109]: "هذه مُبالغةٌ في صفتِهم ومَدْحٌ لهم، وحقٌّ لكلِّ مَن تَوسَّمَ بالعلمِ وحَصَّلَ منه شيئاً أن يجريَ إلى هذه المرتبة؛ فيخشع عند استماعِ القرآنِ ويتواضعَ ويَذِلَّ. وفي مسند الدّارميِّ أبي محمد عن التَّيْميِّ قال: من أوتي من العلم ما لم يُبكِهِ لخليق ألا يكون أوتي علماً؛ لأن الله

تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية. ذكره الطبري أيضاً" [الجامع لأحكام القرآن10/341-342].
وقد بكى النبيﷺ عند قوله تعالى: (فكيف إذا جئنا من كلّ أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً)، وقالت عائشة في وصف أبيها رضي الله تعالى عنهما: (إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ رقيقٌ - وفي رواية: رجلٌ أسيفٌ - لا يتبيّن الناسُ قراءتَه مِن كثرةِ بُكائه). وقرأ عمرﷺ سورةَ يوسف وهو يُصلّي بالناس فبكى حتى سمع بكاءه من كان في آخر الصفوف، كما أخرج البخاري في كتاب (الأذان) باب (إذا بكى الإمام في الصلاة) قولَ عبد الله بن شدادﷺ: (سمعتُ نشيجَ عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأ: (إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله) [فتح الباري 2/441].
ويُستَحْسَنُ أن يجلسَ العبدُ مُنكسِراً في سكينةٍ ووَقار، ذليلاً بين يَدَيْ مولاه، مُطرِقاً رأسَه، مُلْقِياً سمعَه، ذارفاً دَمعَه، فيقرأه "على تُؤَدَةٍ وتَرْسِيل وتَرْتِيل" [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي1/27]؛ لقولِه تعالى: (ورتّل القرءانَ ترتيلاً)؛ لاسيما وقد جاء النَّهيُ عن الهذْرَمة، وهي قراءتُه هذّاً كهذّ الشّعر.
ولا بُدَّ من إحضار القلبِ عند تلاوة القرآن؛ لأنَّ القلوبَ هي التي تشعرُ بسِحرِ البيان وحَلاوة القرآن؛ فلا تُلقي الأذنُ سمعاً، ولا تَذْرِفُ العينُ دَمعاً؛ إلا إذا أدركَ القلبُ روعةَ القرآنِ وخالَطَتْهُ بشاشةُ الإيمان! فحينئذٍ تصيرُ الكلماتُ عِلماً وتُثيرُ فِقهاً وذوقاً، وتَسيرُ بين الناسِ معرفةً وفهماً؛ (وكذلك الإيمانُ حين تُخالِطُ بشاشتُه القلوب)! [رواه البخاري ومسلم].
ويُستحبُّ تحسينُ الصوتِ والتَّغنّي بالقرآن، فقد أثنى النبيﷺ على أبي موسىﷺ بقوله: (لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود)، وقولهﷺ: (إني لأعرفُ أصواتَ رفقة الأشعريين بالليْل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليْل وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار) كما في الصحيحين. وقد قال البراءﷺ: "سمعت رسول اللهﷺ قرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعت

أحداً أحسن صوتاً منه ﷺ" متفق عليه، وقال الشافعي رحمه الله: "وأحَبُّ ما يُقرأُ حدراً وتحزيناً" [التبيان: 60].
ومن آدابه أن يتحيَّنَ ذِكرَه في الأوقات المباركة بالغدوِّ والآصال، والثلث الأخير من الليل (وقرآن الفجر إنَّ قرآنَ الفجرِ كان مشهوداً ومِن الليلِ فتهجَّدْ به نافلةً لك عسى أن يَبعثَك ربُّك مَقاماً محموداً). [الإسراء 78-79].

6) ما يَتعلَّقُ بالفَهْمِ والعَملِ:

ومن أدبِ صاحبِ القرآنِ أن يعتمدَ في تدبُّره على العلماءِ الراسخين امتثالاً لأمر الله تعالى: (فاسْألُوا أهلَ الذِّكْرِ إنْ كنتم لا تعلمون), فلا يفسِّره بالجهل والهوى؛ ولا يجادلُ في كتابِ اللهِ بغيرِ علمٍ؛ فيَضلَّ عن سبيلِ الله. ورحِم الله القرطبي حيث قال: "فما أحقَّ مَن عَلِمَ كتابَ الله؛ أن يزدجرَ بنواهيه، ويتذكَّر ما شرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه؛ فإنه قد حُمِّلَ أعباءَ الرسل وصار شهيداً في القيامة على مَن خالف مِن أهل المللِ، قال الله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناس). ألا وإنَّ الحُجةَ على مَن عَلِمَه فأغفله أوْكَدُ منها على مَن قصَّر عنه وجَهله! ومن أُوتيَ علمَ القرآنِ فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدعْ، وارتكب من المآثمِ قبيحا، ومن الجرائم فضوحا؛ كان القرآن حُجةً عليه، وخصماً لديه، قال رسول الله ﷺ: (القرآنُ حُجةٌ لك أو عليك) خرجه مسلم" [الجامع لأحكام القرآن1/1].
وليت شعري هل ضُيِّعت الأماناتُ إلا بسببِ الغفلةِ عن هذا الضابطِ في التعاملِ مع كتابِ الله. فقد ابتُلِيَ بعضُ الناسِ بالإعراضِ عن التفاسير النافعة؛ فلم يَصِلُوا إلى عِيرٍ أو نفير، بل كانَتْ بِضاعتُهم حَشفاً وسوءَ كِيلة؛ وتلك سُنَّةُ اللهِ فيمن استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير كما قال السعدي رحمه الله: "من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أنَّ مَن تركَ ما ينفعُه وأمكنَهُ الانتفاعُ به فلم ينتفعْ؛ ابتُلِيَ بالاشتغال بما يضرُّه!" [تيسير الكريمِ الرحمن ص 60].
ومنِ أدبِ صاحبِ القرآنِ أن لا يُماريَ في آياته, ولا يضرب بعضَها ببعضٍ, ولا يتَّبع المتشابهات ويُغفل المحكمات, بل يُصدِّقُ الآيات ويُسلِّم بما لم يُدرك حقيقته, كشأن

الراسخين القائلين: (آمنَّا به كلٌّ مِن عند ربِّنا)، ويضع نصبَ عَيْنَيْه ما رواه ابنُ رجب في (فضل علمِ السلف على الخلف) مِن هديِ الخليفة الراشد عمرِ بنِ عبد العزيز رحمه الله أنه قال: "إنَّ السابقين عن عِلمٍ وَقَفُوا, وبِبَصرٍ قد كَفُّوا, وكانوا هم أقْوَى على البحثِ لو بحثوا"!

ورحم اللهُ الإمام الشاطبيَّ فقد أفنى عُمرَه في خدمةِ القرآن ثم قال:

ولو أنَّ عيناً ساعَدت لتوكَّفتْ
سحائبُها بالدَّمعِ دِيماً وهُطَّلا
ولكنَّها عن قسوةِ القلبِ قَحْطُها
فيا ضَيعةَ الأعمار تمشي سَبَهْلَلا

فلنسألْ أنفسَنا - مَعَاشِرَ المسلِمِين - أينَ مِنَّا ثَمَراتُ الآياتِ؟ وآثارُها على قلوبِنا وعُقولِنا ومنهجِنا في الحياةِ؟ وما فائدةُ ما نتلُو ونحفظُ إذا لم تتحوَّلْ إلى عِبَرٍ وعِظاتٍ؟! إنَّما الآياتُ لأهلِها، الذين أثْنَى اللهُ عزَّ وجلَّ عليهم بأنهم (كانوا قليلاً مِنَ الليلِ ما يَهْجَعُون وبالأسْحار هُمْ يستغفِرُون)! [الذاريات17-18]. فهي تُوقِظُهم بالأسْحار وتُعمِّرُ قلوبَهم بالنَّهار، كما روى ابنُ عمر عن النبيِّ ﷺ أنه قال: (لا حسدَ إلا في اثْنَتَيْنِ: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ؛ فهو يقومُ به آناءَ اللَّيْلِ وآناءَ النَّهار، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً؛ فهو يُنْفِقُهُ آناءَ اللَّيْلِ وآناءَ النَّهار) [رواه البخاري ومسلم].

وأمَّا الذين لم يَقُومُوا بالآياتِ لَيْلاً.. ولَمْ يَصْحَبُوها نَهارا؛ بل كانوا عنها غافلون؛ فلَيْسُوا في الحقيقةِ مِن أهْلِها المنتفِعِين بها، بلْ هُمْ أبعَدُ الناسِ عنِ التخلُّقِ بها؛ لأنَّهم كما قال صاحبُ الظلال: "وَرِثُوا الكِتابَ ودَرَسوه؛ ولَكِنَّهُمْ لم يَتَكَيَّفُوا به، ولم تتأثَّرْ بهِ قُلوبُهم... شأنَ العقيدةِ حين تتحوَّل إلى ثقافةٍ تُدْرَسُ وعِلْمٍ يُحفَظُ... هُمْ دَرَسُوا الكتابَ وعَرَفُوا ما فِيهِ، بلى! ولكنَّ الدِّراسةَ لا تُجْدِي ما لم تُخالِطْ القُلُوبَ؛ وكَمْ مِن دارسِينَ للدِّينِ وقُلوبُهم عنهُ بعيد؟...وهل آفةُ الدِّينِ إلا الذين يَدْرُسُونَهُ دِراسةً ولا يأخُذُونَهُ عقيدةً؟!" [في ظلال القرآن 1387/9].

فنسأل اللهَ العظيمَ ربَّ العرشِ الكريم أن يمنَّ علينا بصحبةِ القرآنِ في الدنيا, وبشفاعتِه في الآخرةِ، وأن يجعلَنا مِن

أهـل القـرآن الـذين يتعلّمونـه ويُعلّمونـه ويعمَلـون بـه وينصحون له، كما قال النـووي رحمـه الله: "قـد أوجَـبَ اللهُ سبحانه وتعالى النُّصحَ لكتابِه. ومن النصيحةِ لـه بيـانُ آدابِ حَمَلَتِه وطُلّابِه، وإرشادُهم إليها، وتنبيهُهم عليها" [التبيان في آداب حَمَلَة القرآن ص 5]. ولله درُّ الشاطبي حيث قال:

بنفسي من استهدى إلى الله وحده
وكان له القرآن شربا ومغسلا!
وطابت عليه أرضه فتفتقت
بكل عبير حين أصبح مخضلا!
فطوبى له والشوق يبعث همَّه
وزند الأسى يهتاج في القلب مشعلا!
هو المجتبى يغدو على الناس كلهم
قريبا غريبا مستمالا مؤملا!
لعل إله العرشِ يا إخوتي يقي
جَماعتنا كل المكاره هُوَّلا!
ويجعلنا ممن يكون كتابه شفيعا
لهم إذ ما نسوه فيمحلا!
وبالله حولي واعتصامي وقوتي
ومالي إلا ستره متجللا!
فيا رب أنت الله حسبي وعُدتي
عليك اعتمادي ضارعا متوكلا!

[حرز الأماني للشاطبي 1/24-25].

۞ المبحث السابع:
الإحسان في تحبير القرآن:

الحمد لله الذي (علَّمَ القرآنَ خَلقَ الإنسانَ علَّمَه البيان)، والصلاةُ والسلامُ على أعظمِ مَنْ رتَّلَ القرآن، وخَيْرِ مَن عَلِمَ الذِّكرَ الحكيمَ وعَلَّمَه وعَمِلَ به؛ فـ(كان خُلُقُه القرآنَ). ورَضِيَ اللهُ عن آلِه الكِرامِ وصَحْبِه العِظام، ومَن تبعَهم بإحسان.

وبعد، فقد اعتنَى العلماءُ بتحبير القرآنِ عِنايتَهم بتفسير القرآنِ؛ إذ التحبيرُ يتعلقُ بتلاوة ألفاظِه الكريمة، كما أنَّ التفسيرَ يتعلقُ بِمعرفةِ معانيه العظيمة. فقد دعا النبيُّﷺ لابن عباس رضي الله عنهما أنْ يؤتيَه اللهُ حُسنَ التأويل، كما أثْنَىﷺ على أبي موسى‌ﷺ لِما أُوتِيَه مِن جَمالِ الترتِيل؛ فتحصَّلَ مِن فقهِ الحديثَين الحَثُّ على إحسانِ الترتيل والتأويل.

وقد ذكرَ المفسِّرُون مِن معاني قولِ اللهِ عز وجلّ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ (البقرة121) أنهم "يُرتِّلُون ألفاظَه ويفهَمُون مَعانِيَه" [الجامع لأحكام القرآن 96/2]. وذكَرَ النووي رحمه اللّه من النصيحةِ لِكتابِ اللّه: "تلاوته حقَّ تلاوتِه وتَحسينها، والخشوع عندها، وإقامةُ حُرُوفِه في التلاوةِ... وتفهُّمُ علُومِه وأمثالِه، والاعتبارُ بِمَواعِظِه" [شرح النووي على مسلمٍ 38/2]؛ فالموفَّقُ من جَمعَ بينَ العِنايةِ بتلاوةِ القرآنِ وتدبُّر مَعانيه والعملِ به. نسأل اللّه أن يُوفِّقنا لذلك.

1) ثنـاءُ القـرآن علـى حُـسنِ قـراءة داود عليـه السلام:

فقد قال اللّه عزَّ وجَل: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ (سبأ 10)0 قال ابن كثير رحمه اللّه: "يُخبِرُ تعالى عما أنعَمَ به على عَبدِه ورسولِه داودَ عليه الصلاة والسلام مما آتاهُ مِن الفضلِ المبين... وما أعْطاه ومنَحَه مِن الصوتِ العظيمِ الذي كان إذا سبَّحَ به؛ تُسبِّحُ معه الجبالُ الراسيات الصُّمُّ الشامِخات، وتَقِفُ له الطيورُ السارحات والغادِيات والرائحات، وتُجاوبُه بأنواعِ اللغات" [تفسير القرآن العظيم 527/3]؛ "وذلك لِطِيبِ صوتِه بتلاوةِ كتابِه الزَّبُورِ، وكان إذا ترنَّمَ به تقفُ الطيرُ في الهواء؛ فتُجاوبُه وتَرُدُّ عليه الجبالُ تأويباً!" [تفسير القرآن العظيم188/3].

2) التحبيرُ في اللغة:

قال الخليل بنِ أحمد رحمه اللّه: "حبَّرْتُ الكلامَ والشِّعرَ تَحبيراً: أي حَسَّنتُه" [كتاب العينِ للخليل 218/3]. وقال ابن منظور رحمه اللّه: "كلُّ ما حَسُنَ من خطٍّ أو كلامٍ أو شِعرٍ أو غير ذلك؛ فقد حُبِرَ حبْراً وَحُبِّرَ، وكان يقال لِطُفَيل الغَنَوي في الجاهلية (مُحَبِّرٌ)؛ لِتَحسِينِه الشِّعر... وفي حديثِ أبي موسى: (لو عَلِمتُ أنك تسمعُ لقراءتي؛ لَحَبَّرتُها لك

تَحبِيراً): يُريد تَحسِينَ الصَّوتِ" [لسان العرب لابن منظور 157/4].

3) التحبير صفةُ قراءةِ النبيﷺ:

فقد روى البخاري رحمه الله في باب (القراءة في العشاء) وفي باب (قول النبيﷺ: الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة وزيِّنوا القرآن بأصواتكم)، ومسلم رحمه الله في (باب القراءة في العشاء) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (سمعتُ النبيَّﷺ يقرأ (والتين والزيتون) في العشاء؛ فما سمعتُ أحداً أحسنَ صوتاً منه ﷺ أو قراءةً) [صحيح البخاري 266/1، حديث 735. و2743/6، حديث 7107. وصحيح مسلم 339/1، حديث 464].

4) استحباب ترتيل القرآنِ:

فقد ذكرَ أهلُ العلمِ من آدابِ قارىءِ القرآنِ: أن يقرأه "على تُؤَدَةٍ وتَرْسِيل وتَرْتِيل" [الجامع لأحكام القرآن 27/1] لقولِه تعالى: ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ۝٤ ﴾ (المزمل 4)0 قال ابن عبد البر رحمه الله: "الترتيلُ: التمهُّل والترسُّلُ؛ ليقعَ مع ذلك التدبُّرُ، وكذلك كانت قراءتهﷺ حَرفاً حَرفاً" [التمهيد لابن عبد البر 222/6]. وقال القرطبي رحمه الله: "الترتيلُ في القراءة: هو التأنِّي فيها والتمهُّلُ وتبيينُ الحروفِ والحركاتِ؛ تشبيهاً بالثغر المرتَّل، وهو المشبه بنور الأقحوان، وهو المطلوبُ في قراءةِ القرآن قال الله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ وسئلت أم سلمة عن قراءةِ رسولِ اللهﷺ... فإذا هي تنعَتُ قراءةً مُفسَّرةً حَرفاً حَرفاً) أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي" [الجامع لأحكام القرآن 17/1].

وقال ابن كثير رحمه الله: "﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ (المزمل 4): أي اقرأه على تَمَهُّلٍ؛ فإنه يكون عَوناً على فَهمِ القرآنِ وتَدبُّره، وكذلك كانت تلاوة النبيﷺ القرآن، قالت عائشة رضيَ الله عنها: (كان يقرأ السورة فيُرَتِّلُها؛ حتى تكونَ أطولَ مِن أطولَ منها)، وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول اللهﷺ؟ فقال: كانت مَدًّا، ثم قرأ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ

﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يَمُدُّ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾، ويَمُدُّ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾، ويَمُدُّ ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾" [تفسير القرآن العظيم 435/4].

5) الحث على تحبير الصوت بالقرآن:

وإذا كان الترتيلُ عبارةً عن التأنّي والتمهُّل في القراءة دون إفراطٍ أو تفريطٍ، فإنَّ التحبيرَ هو تحسين الصوت وتزيينُه دون تلاعُبٍ أو تهاوُنٍ بقواعد القراءة الصحيحة. وقد قال النووي رحمه الله: "قال القاضي: أجمعَ العلماء على استحبابِ تحسينِ الصوتِ بالقراءةِ وترتيلها" [شرح النووي على مسلم 79/6]. ونقلَ ابنُ حَجَر رحمه الله "الإجماعَ على استحبابِ سماعِ القرآنِ مِن ذي الصوتِ الحسن" [فتح الباري 93/9].

وروى البخاري رحمه الله في باب (حُسن الصوتِ بالقراءةِ للقرآن) عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال له: (يا أبا موسى لقد أُوتِيتَ مِزْماراً مِن مَزامير آلِ داود) [صحيح البخاري 1925/4، حديث4761. وهو عند الترمذي في باب (مناقب أبي موسى الأشعري رضي الله عنه) بلفظ: (لقد أُعْطِيتَ..). سنن الترمذي 693/5، حديث 3855].

ورواه بلفظِ الخبر علي بن الجعد رحمه الله عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ (أُعطِيَ أبو موسى مِزماراً مِن مَزامير آلِ داود) [مسند علي بن الجعد 496/1، حديث 3457]. ورواه الدارمي رحمه الله عن أبي سلمة بن عبد الرحمن رضي الله عنهما (أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول لأبي موسى؛ وكان حَسَنَ الصوتِ بالقرآن: لقد أُوتِيَ هذا مِزماراً مِن مَزامير آلِ داود) [سنن الدارمي563/2، حديث 3492]. ورواه النسائي رحمه الله عن عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهما (أنَّ رسولَ الله ﷺ سمع قراءةَ أبي موسى؛ فقال: لقد أوتِيَ مِزماراً مِن مزامير آل داود عليه السلام) [سنن النسائي 180/2، حديث 1019-1020].

ورواه مسلم رحمه الله أتَمَّ من ذلك في باب (استحباب تحسين الصوت بالقرآن) ولفظُه: (لو رأيتَنِي وأنا أستمع لِقراءتِك البارحة! لقد أوتيتَ مِزماراً مِن مَزامير آلِ داود)

[صحيح مسلم 546/1، حديث 793. ورواه البيهقي وابن حبان رحمهما الله مقروناً بجواب أبي موسى: (فقال: لو عَلِمْتُ؛ لَحَبَّرْتُه لك تحبيراً) [سنن البيهقي الكبرى12/3، حديث 4484. وصحيح ابن حبان 169/16، حديث 7197].
وقد رواه أبو يعلى رحمه الله في (مُسنَدِه) أتمَّ من ذلك كلِّه، فذَكَرَ (أنَّ النبيﷺ وعائشة مرَّا بأبي موسى وهو يقرأ في بيتِه، فقاما يستمعان لقراءته، ثم إنهما مضيا، فلما أصبحَ لَقِيَ أبا موسى رسولُ اللهﷺ فقال: يا أبا موسى مَرَرْتُ بك البارحةَ ومعي عائشة، وأنت تقرأ في بيتِك؛ فقُمنا فاستمَعْنا! فقال له أبو موسى: أما إني يا رسولَ الله لو عَلِمتُ؛ لَحَبَّرتُ لك تحبيراً) [مسند أبي يعلى 266/13، حديث 7279].
قال القرطبي رحمه الله: "التحبيرُ: التزيينُ والتحسينُ؛ فلو عَلِمَ أنَّ النبيَّﷺ كان يسمَعُه لَمَدَّ في قراءتِه ورتَّلَها كما كان يقرأ على النبيﷺ؛ فيكون ذلك زيادةً في حُسْنِ صوتِه بالقراءة" [الجامع لأحكام القرآن 12/1]. قال النووي رحمه الله: "قولهﷺ في أبي موسى الأشعري: (أُعْطِيَ مِزماراً مِن مَزامير آلِ داود) قال العلماء: المرادُ بالمزمار هنا الصوتُ الحسنُ. وأصلُ الزمرِ الغناءُ، وآلُ داود هو داودُ نفسُه... وكان داودﷺ حَسَنَ الصوتِ جدا" [شرح النووي على مسلم 79/6].

6) الحَثُّ على التغَنِّي بالقرآن:

وقد روى البخاري رحمه الله في باب (من لم يتغن بالقرآن) عن أبي هريرة أنه كان يقول: قال رسول اللهﷺ: (لم يأذَن اللهُ لشيءٍ ما أذِنَ للنبيﷺ يتغَنَّى بالقرآن. وقال صاحبٌ له: يريد: يَجهر به) [صحيح البخاري 1918/4، حديث 4735]. وفي رواية: (أن يتغَنَّى بالقرآن) [صحيح البخاري 1918/4، حديث 4736]. وفي رواية: (وزاد غيره: يجهر به) [2737/6، حديث 7089].
ورواه مسلم رحمه الله في باب (استحباب تحسين الصوتِ بالقرآن) عن أبي هريرة يبلُغُ به النبيَّﷺ قال: (ما أذِنَ الله لشيءٍ ما أذِنَ لِنَبِيٍّ يَتغنَّى بالقرآن). [صحيح مسلم 545/1، حديث 792]. وفي لفظ: (كما يأذَنُ) [حديث792]،

وفي لفظٍ: (كإذْنِه لِنَبِيٍّ) [حديث 792]. وفي رواية: (لِنَبِيٍّ حَسنِ الصَّوتِ يتغنَّى بالقرآن؛ يجهر به) [حديث 792].
ورواه البيهقي رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه وابن حبان عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهﷺ قال: (ما أذِنَ اللهُ لِشَيءٍ ما أذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصوتِ يَتغنَّى بالقرآنِ يجهر به). [السنن الكبرى للبيهقي 12/3، حديث 4485. وصحيح ابن حبان 326/1، حديث 120]. وقال ابن حبان رحمه الله: "معنى قولهﷺ: (ليس منا) في هذه الأخبار يريد به: ليس مثلنا في استعمالِ هذا الفعل؛ لأنا لا نفعله؛ فمن فعلَ ذلك فليس مثلنا" [صحيح ابن حبان 328/1].

7) ثمرةُ تحسينِ الصوتِ بالقرآن:

لا ريبَ أنَّ الصوتَ الحسنَ يأسِرُ القلوبَ بِحَلاوَتِه، ويحملُ الأسماعَ على مُتابَعَتِه والتعلُّقِ به؛ ولذلك استحَبَّ العلماءُ أن يكون المؤذِّنُ حسنَ الصوت؛ وقد أمرَ النبيﷺ أبا مَحْذُورَة الجمحي أن يُلقِيَ الأذانَ على بلالٍ؛ مع أنه "كان مِن أندَى الناسِ صَوتاً وأطْيَبِه" [سير أعلام النبلاء 117/3] (قم مع بلال فألق عليه ما رأيتَ؛ فليؤذن به؛ فإنه أنْدَى صوتاً منك). [سنن أبي داود 135/1، حديث 499. وسنن ابن ماجه 232/1، حديث 706. والترمذي359/1 حديث 189، بلفظ: (فإنه أندى وأمَدُّ صوتاً منك)].
قال الشوكاني رحمه الله: "أي: أحسن صوتاً منك. وفيه دليلٌ على استحبابِ اتخاذِ مؤذنٍ حَسنِ الصوتِ. وقد أخرج الدارمي وأبو الشيخ بإسناد متصل بأبي محذورة أنَّ رسولَ الله أمر بنحو عشرين رجلا فأذنوا فأعجبَه صوتُ أبي محذورة؛ فعلَّمه الأذان. وأخرَجَه أيضا ابن حبان من طريق أخرى. ورواه ابن خزيمة رحمه الله في صحيحِه قال الزبير بن بكار: (كان أبو محذورة أحسن الناس صوتا وأذانا)،
ولبعضِ شعراءِ قريشٍ في أذان أبي محذورة:

أما وربِّ الكعبةِ المستُورَهْ وما تلا محمدٌ من سُورَهْ
والنغماتِ من أبي مَحذورَهْ لأفعَلَنَّ فِعلةً مَذكُورَهْ"

[نيل الأوطار للشوكاني 20/2].

فالصوتُ الجميلُ يزيد مِن شُعُورنا بجمالِ التَّنْزيل، ويجلب الخشوعَ والخضوع، ويُعِينُ على التدبُّر والتفكُّر، ويبعثُ على جَمْعِ القلبِ على معاني القرآن؛ كما روى البيهقي في (شُعَب الإيمان) فصل (تحسين الصوت بالقراءة والقرآن) عن البراءِ بن عازب‌ قال: قال رسولُ الله ﷺ: (زَيِّنُوا القرآنَ بأصواتكم) [شُعَب الإيمان 386/2، حديث2140]. وفي رواية: (حَسِّنُوا القُرآنَ بأصواتكم؛ فإنَّ الصوتَ الحسنَ يزيدُ القرآنَ حُسْناً) [شعب الإيمان 386/2، حديث2141].

وقد روى أبو يوسف رحمه الله عن عمر بن الخطاب‌ أنه قال: "اقرأ يا فلان؛ اقرأ (الْحِجر). قال: أولَيستْ معك؟ قال: أما بِمِثلِ صوتِك فلا!" [الآثار لأبي يوسف 45/1، حديث 226]. وعن إبراهيم النخعي‌ (أنَّ أزواجَ النبي ﷺ اجتمَعنَ إلى أبي موسى‌ ذات ليلة، وهو يُصلِّي فلما أصبحَ، قُلنَ له: يا أبا موسى ما كان أحسنَ صوتَك البارحة؛ فقال: لو عَلِمتُ لَحبَّرْتُه تَحبيراً) [الآثار 45/1، حديث 227].

ولذلك كان مِن هَدْيِ السلفِ الصالِحِ سَماعُ القرآنِ مِمَّن أوتِيَ الصوتَ الحسن. وقد ذكرَ العلماءُ أنَّ أبا موسى‌ "كان أحسنَ أصحابِ رسولِ الله ﷺ صَوتاً" [معرفة الثقات 52/2]. وروى علي بن الجعد عن إبراهيم النخعي عن علقمة‌ قال: (كنتُ رجلا أعطاني الله عزَّ وجلَّ حُسْنَ الصوتِ بالقرآن، وكان ابنُ مسعود يُرسِلُ إلَيَّ فأقرأ عليه؛ فإذا فرَغتُ من قراءتي قال: زدْنا فِداكَ أبي وأمِّي؛ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (إنَّ حُسنَ الصوتِ زينةُ القرآن!) [مسند علي بن الجعد 496/1، حديث 3456].

وأخرجَ ابنُ أبي داود من طريق ابن أبي مسجعة قال: (كان عمر يُقدِّمُ الشابَ الحسنَ الصوت؛ لِحُسْنِ صَوتِه بين يَدَيْ القوم) [فتح الباري 93/9]. وروى الذهبي رحمه الله عن أبي عثمان النهدي قال: (ما سمعتُ مِزماراً ولا طُنبوراً ولا صَنْجاً أحسنَ من أبي موسى الأشعري؛ إنْ كان لَيُصلِّي بنا فنوَدُّ أنه قرأ البقرةَ مِن حُسنِ صَوتِه)! سير أعلام النبلاء 392/2 [والصَّنْج: صَفِيحةٌ مُدَوَّرة يُضرَبُ بها على أخرى، وآلة ذاتُ أوتار].

وروى علي بن الجعد عن أنسﷺ قال: (قَدِمْنا البصرةَ مع أبي موسى، وهو أميرٌ على البصرة، فقام من الليل يتهجَّدُ، فلما أصبحَ قيل له: أصلَحَ اللهُ الأميرَ؛ لو رأيتَ إلى نِسوَتِك وقرابَتِك وهم يستمِعُون لقِراءتِك! فقال: لو علِمتُ أنَّ أحداً يسمعُ قراءتي لَزيَّنتُ كتابَ الله تعالى بِصوتي ولَحَبَّرْتُه تحبيراً) [مسند علي بن الجعد 496/1، حديث 3458].

[8] ضَوابطُ تحسينِ الصوت بالقرآن:

أولا: أن يكونُ التحبيرُ خالِصاً لِوَجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛

فليس تَحسِينُ الصوتِ بالقرآن رياءَ الناس؛ و(لِيُقالَ قارىءٌ)! والعياذ بالله.

وقد روى الذهبي رحمه الله عن بُرَيدةﷺ قال: خرجتُ ليلةً من المسجد فإذا النبيِّﷺ عند باب المسجد قائم، وإذا رجلٌ يصلي، فقال لي: يا بُريدة أتُراه يرائي؟ قلت: الله ورسوله أعلم! قال: بل هو مؤمنٌ مُنيبٌ؛ لقد أُعْطِيَ مِزماراً مِن مَزامير آلِ داود؛ فأتيتُه، فإذا هو أبو موسى فأخبرتُه) [سير أعلام النبلاء 368/2]. ورواه الخطيب البغدادي بزيادة: (قال: قلتُ: أُخبِرُه يا رسولَ الله؟ قال: نعم؛ قال: فأخبرتُه، فقال: لم يزلْ لي صديقاً!) [تاريخ بغداد 442/8].

ثانياً: مُراعاةُ الاعتدالِ والبُعدُ عن التمطيط:

قال الشافعي رحمه الله: "قال الله تبارك وتعالى لنبيهﷺ: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ (المزمل4) فأقلُّ الترتيل تركُ العَجَلة في القرآنِ عن الإبانةِ، وكلما زاد على أقلِّ الإبانةِ في القرآن؛ كان أحبَّ إلَيَّ ما لم يبلُغ أن تكونَ الزيادةُ فيه تَمطِيطاً" [أحكام القرآن للشافعي 64/1].

ثالثاً: مُراعاة الخشوع:

فقد روى أبو نعيم عن حرملة قال: سمعت الشافعي يقول في تفسير الحديث: (ليس مِنا مَن لم يتغن بالقرآن) قال: يتحزَّن به ويترنَّمُ به" [حِلية الأولياء 104/9]. وقال البيهقي رحمه الله في شرح حديث (ما أذن الله...): "إنما أراد والله أعلمُ الاستماعَ له، وقول النبيِّﷺ (يتغنَّى) يريدُ به تحسينَ القارىء صَوتَه أنه يَميل

بـه نحـو التحـزين دون التطريـب" [شُـعَب الإيمـان 389/2، حديث 2144].

فـالعبرةُ بالخـشوع والتـدبُّر؛ ومـا أحـسَنَ مـا رواه الـدارمي رحمـه الله عـن طـاوس قـال: سـئل النبـيﷺ: أيُّ النـاسِ أحسنُ صوتاً للقرآنِ وأحسنُ قـراءة؟ قـال: مَـن إذا سَـمِعتَه يقرأ؛ أُريتَ أنه يَخشَى الله)! قال طاوس: وكان طلقٌ كذلك. [سنن الدارمي563/2، حديث 3489. وطلق هو: طلـق بـن حبيب العنزي قال الذهبي: "بصريٌّ زاهدٌ كبيـرٌ مـن العلمـاءِ العاملِين... وكان طيب الصوت بالقرآن برا بوالديه، روي عـن طاووس قال: ما رأيتُ أحداً أحـسنَ صـوتاً منـه، وكـان مِمَّـن يخشى الله تعالى" سير أعلام النبلاء 601/4].

رابعـاً: أن لا يكـون القـصدُ مـن تحبيـر القـراءةِ التطريبَ كما يصنع أصحابُ الأغاني، قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة رحمـه الله: "معنـى الترجيـع تحـسين التلاوة، لا ترجيـع الغنـاء؛ لأن القـراءةَ بترجيـع الغنـاء تنـافِي الخشوعَ الذي هو مقصودُ التلاوة" [فتح الباري 93/9].

ونبَّه القرطبي رحمه الله على خطورة ذلك بقولِه: "إنَّ فـي الترجيـعِ والتطريـبِ هَمْـزَ مـا لـيس بمهمـوز ومَـدَّ مـا لـيس بِممدود؛ فترجع الألف الواحدة ألفات، والواو الواحدة واوات؛ فيؤدي ذلك إلى زيادة فيِ القرآن؛ وذلك ممنوعٌ. وإن وافـق ذلـك موضـع نبـر وهمـز صَيَّرُوها نَبَـراتٍ وهَمَـزات" [الجـامع لأحكام القرآن 16/1].

خامساً: أن لا يكون تحبيرُ الصوتِ بالقرآنِ بغرضِ التكسُّبِ وابتغاء العَرضِ الزائلِ الـذي يُوقِـعُ القـارىءَ فـي اتبـاعِ الهـوى والتلاعـب بـالقراءة؛ لِكَـسبِ إعجـابِ الجهَلـةِ والرَّعاع. وقد ذكرَ القرطبي رحمه الله هذه العـادةَ القديمـة الذميمة، وحذَّرَ من صَنيعِ بعضِ القراء الـذين يُخلُّـون بقـراءةِ القرآنِ؛ "حتى لا يُفهَمَ معناه؛ فذلك حَرامٌ باتفاقٍ، كما يفعلُ القراءُ بالديار المصرية الذينِ يقرءون أمامِ الملـوكِ والجنـائز، ويأخذُون على ذلـك الأجـورَ والجـوائز؛ ضَـلَّ سَـعيُهم وخـاب عملُهم؛ فيَستحِلُّون بـذلك تغييرَ كتابِ الله ويُهَوِّنُـون علـى أنفسِهم الاجتراءَ على الله بأن يَزيدُوا فـي تنزيلِـه مـا لـيس

فيه؛ جهلا بدينِهم ومُرُوقاً عن سُنةِ نبيِّهم ورفضاً لِسِيَر الصالحين فيه مِن سلفِهم، ونُزوعاً إلى ما زَيَّن لهم الشيطانُ مِن أعمالِهم وهم يحسبُون أنهم يُحسِنُون صُنعاً؛ فهم في غَيِّهم يتردَّدُون وبكتابِ الله يتلاعبُون؛ فإنا لله وإنَّا إليه راجِعُون!" [الجامع لأحكام القرآن 16/1-17. وقد توفي القرطبي رحمه الله سنة 671 هـ].

[9] وصيةُ ابنِ أبي مُلَيكة ﷺ:

لا يخفى أنَّ تحسينَ الأصواتِ مسألةٌ نِسبيةٌ؛ تختلف باختلافِ الأذواقِ؛ وقد يتوهمِ بعضُ الناسِ أنَّ صوتَه من القبح بحيث لا يمكنه أن يُحسِّنَه. وهذا خِلافُ الحقيقة؛ فقد كان السلف يُحسِّنون أصواتَهم قدرَ ما يستطيعون. وقد روى الطبراني [في المعجم الكبير 34/5، حديث 4514] وأبو بكر الشيباني [في الآحاد والمثاني 450/3، حديث 1903] عن عبد الجبارِ بن الوردِ، قال: (قلتُ لابنِ أبي مليكة: أرأيتَ إنْ لم يكنْ حَسنَ الصوت؟ قال: يُحسِّنُه ما استطاع).

[10] موْعِظة:

أخي المسلم.. تَذَكَّرْ ما يَبذلُه أهلُ الدنيا واللهو من الجهد في صناعةِ الألحانِ والاجتهاد في قوانينِ الغناءِ، مع أنهم لا يرجون عليه ثواباً؛ فما لنا لا نتغنَّى بالذِّكر الحكيم؟ ولا نعتني بتحبير كلامِ ربِّ العالمين؟

ورَحِمَ الله القحطاني ما أحسنَ قولَه:

إنَّ التقيَّ لربِّهِ متنزِّهٌ
عن صوتِ أوتارٍ وسَمْعِ أغانِ!
وتلاوةُ القرآنِ من أهلِ التُّقى
سِيَما بحُسْنِ شجاً وحُسْنِ بيانِ!
أشْهَى وأوْفَى للنفوسِ حَلاوةً
مِنْ صَوْتِ مِزمارٍ ونَقْرِ مَثانِ!
وحنينُهُ في الليلِ أطْيَبُ مَسْمَعاً
مِنْ نَغْمَةِ النَّايَاتِ والعِيدَانِ!

[نونية القحطاني ص 82-83].

الفصل الثاني:
تفسير الفاتحة

المبحث الأول: مَدخلٌ إلى سُورَة الفاتحة

المبحث الثاني: تفسير الاستعاذة

المبحث الثالث: تفسير البسملة:

المبحث الرابع: تفسير الحمد

المبحث الخامس: الرحمة

المبحث السادس: الملك

المبحث السابع: العبادة والاستعانة

المبحث الثامن: الهداية

۞ المبحث الأول: مَدخلٌ إلى سُورَة الفاتحة

أولا: بين الفاتحة وحديث (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين):

[1] روى أبو هريرة ﷺ عن النبيﷺ قال: (يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ (الفاتحة2)0 قال الله: حمدني عبدي, فإذا قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ﴾ (الفاتحة3) قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ (الفاتحة4) قال الله: مَجَّدني عبدي, فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ (الفاتحة5) قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل, فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾ (الفاتحة 6-7)) [أخرجه مسلم].

[2] قال ابن منظور رحمه الله: "في حديث قراءة الفاتحة: (قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين) أراد بالصلاة

هاهنا القراءة؛ تسميةً للشيء ببعضِه، وقد جاءت مُفسَّرةً في الحديث. وهذه القسمة في المعنى لا اللفظ؛ لأن نصفَ الفاتحة ثناءٌ، ونصفها مسألةٌ ودُعاءٌ. وانتهاء الثناء عند قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (الفاتحة5) وكذلك قال في ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هذه الآية بيني وبين عبدي" [لسان العرب لابن منظور 480/12].

[3] قال ابن عبد الوهاب رحمه الله في (تفسير الفاتحة): "مِن أحسنِ ما يفتح لك الباب في فهمِ الفاتحة حديث أبي هريرة الذي في صحيح مسلمٍ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: (يقولُ اللهُ تعالى: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نِصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال الله: حمدني عبدي, فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، قال الله: مَجَّدَني عبدي, فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل, فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) انتهى الحديث أخرجه مسلم؛ فإذا تأمل العبد هذا, وعلم أنها نصفان: نصف لله وهو أولها إلى قوله: ﴿إياك نعبد﴾ ونصف للعبد دعاء يدعو به لنفسه, وتأمَّلْ أنَّ الذي علَّمَه هذا هو الله تعالى، وأمره أن يدعو به ويكرره في كل ركعة, وأنه سبحانه من فضلِه وكرمِه ضمن إجابةَ هذا الدعاء إذا دعاه بإخلاص وحُضور قلبٍ تبيَّنَ له ما أضاع أكثرُ الناسِ.

قد هيَّئوك لأمرٍ لو فَطِنتَ له
فأربأ بنفسِك أن تَرْعَى مع الهمل".

ثانيا: من أسرار قراءة الفاتحة في كل ركعة:

[1] قال ابن القيم رحمه الله: "لَما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافعِ والعملِ الصالحِ... كان حَقِيقاً بالإنسانِ أن يُنفقَ ساعاتِ عُمره - بل أنفاسَه - فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين؛ وليس ذلك إلا

بالإقبالِ على القرآنِ وتفهُّمِه وتدبُّره واستخراج كُنوزه وإثارةِ دَفائنِه، وصَرفِ العنايةِ إليه، والعُكوفِ بالهمةِ عليه؛ فإنه الكفيلُ بمصالحِ العبادِ في المعاشِ والمعاد. والموصِلُ لهم إلى سبيلِ الرشاد. فالحقيقةُ والطريقةُ والأذواقُ والمواجيدُ الصحيحةُ كلُّها لا تُقتَبس إلا مِن مشكاتِه، ولا تستثمر إلا من شجَراته. ونحن بعونِ اللهِ نُنبِّهُ على هذا بالكلامِ على فاتحةِ الكتابِ وأم القرآن، وعلى بعضِ ما تضمَّنَتْه هذه السورةُ مِن هذه المطالب، وما تضمَّنَتْه مِن الرَّدِّ على جميعِ طوائفِ أهلِ البِدَعِ والضَّلالِ. وما تضمَّنَتْه مِن مَنازلِ السائرين ومقاماتِ العارفين، والفرقِ بينِ وسائلِها وغاياتِها، ومَواهبِها وكَسْبِياتِها، وبيانِ أنه لا يَقومُ غيرُ هذه السُّورةِ مَقامَها، ولا يَسُدُّ مَسَدَّها؛ ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها" [مدارج السالكين1/6-7].

[2] قال سيد قطب رحمه الله: "يُردِّدُ المسلمُ هذه السورةَ القصيرة ذات الآيات السبع سبعَ عشرة مرةً في كل يوم وليلة على الحد الأدنى، وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلَّى السُّنَن، وإلى غير حَدٍّ إذا هو رغب في أن يقفَ بين يَدَيْ ربّه متنفلاً غير الفرائض والسنن. ولا تقومُ صلاةٌ بغير هذه السورة؛ لما ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ من حديث عبادة بن الصامت: (لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحةِ الكتاب). إنَّ في هذه السورة مِن كُلِّيَّاتِ العقيدةِ الإسلاميةِ، وكُلِّياتِ التصور الإسلامي، وكُلِّياتِ المَشاعِرِ والتوجُّهات؛ ما يُشيرُ إلى طرفٍ من حِكمةِ إختيارِها للتكرار في كلِّ ركعةٍ، وحكمةِ بُطلانِ كلِّ صلاةٍ لا تُذكَرُ فيها" [في ظلال القرآن 21/1].

ثالثا: أسماء سورة الفاتحة:

[1] قال ابن عاشور رحمه الله: "ذكروا لتسمية الفاتحة (أمَّ القرآن) وجُوهاً ثلاثة: أحدها: أنها مبدؤه ومُفتَتَحُه؛ فكأنها أصلُه ومَنشؤه، يعني أنَّ افتتاحَه الذي هو وُجودُ أولِ أجزاءٍ القرآن قد ظهر فيها؛ فجُعِلَتْ كالأمِ للولد في أنها الأصلُ والمنشأ؛ فيكون (أم القرآن) تشبيهاً بالأم التي هي منشأ الولد لمشابهتها بالمنشأ من حيث ابتداء الظهور والوجود.

الثاني: أنها تشتملُ محتوياتها على أنواعِ مقاصدِ القرآن وهي ثلاثة أنواع: الثناءُ على الله ثناءً جامعاً لوصفِه بجميع المحامدِ وتنزيهه من جميعِ النقائص، ولإثباتِ تفرُّدِه بالإلهية وإثباتِ البعثِ والجزاءِ. وذلك مِن قولِه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ إلى قولِه: ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، والأوامر والنواهي مِن قولِه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، والوعد والوعيد من قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ ﴾ إلى آخرها. فهذه هي أنواعُ مقاصدِ القرآن كله، وغيرها تكملاتٌ لها؛ لأنَّ القصدَ مِن القرآنِ إبلاغُ مقاصدِه الأصلية، وهي صلاحُ الدارَيْن وذلك يحصُلُ بالأوامر والنَّواهي. ولما توقَّفَتْ الأوامرُ والنَّواهي على معرفةِ الآمرِ وأنه اللهُ الواجِبُ وجودُه خالقُ الخلق؛ لزم تحقيقُ معنى الصفات، ولما توقفَ تمامُ الامتثال على الرجاءِ في الثواب والخوفِ من العقاب؛ لزمِ تحققُ الوعدِ والوعيدِ. والفاتحة مشتملةٌ على هاته الأنواع؛ فإن قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ إلى قولِه: ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ حمدٌ وثناء، وقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ من نوع الأوامر والنواهي، وقوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ ﴾ إلى آخرها من نوع الوعدِ والوعيدِ مع أنَّ ذكر ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ و﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يشير أيضا إلى نوع قصص القرآن، وقد يؤيِّدُ هذا الوجه بما ورد في الصحيح في ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ (الإخلاص1) أنها تعدل ثلث القرآن؛ لأنَّ ألفاظَها كلَّها ثناءٌ على الله تعالى. الثالث: أنها تشتمل معانيها على جملةِ معاني القرآن من الحِكَمِ النظريَّة والأحكامِ العملية؛ فإنَّ معانِي القرآن إما علومٌ تُقصَدُ معرفتُها، وإما أحكامٌ يُقصدُ منها العملُ بها، فالعلوم: كالتوحيد والصفات والنبوءات والمواعظ والأمثال والحكم والقصص. والأحكامُ: إما عملُ الجوارحِ وهو العبادات والمعاملات، وإما عملُ القلوب أي العقول وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة؛ وكلُّها تشتمل عليها معاني الفاتحة بدلالة المطابقة أو التضمن أو

الالتزام. فـ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ يشمل سائرَ صفاتِ الكمالِ التي استحقّ اللهُ لأجلها حصرَ (الحمد) له تعالى؛ بناءً على ما تدلُّ عليه جملةُ ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ من اختصاصِ جنسِ الحمدِ به تعالى واستحقاقه لذلك الاختصاص كما سيأتي. و﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يشمل سائرَ صفاتِ الأفعالِ والتكوينِ عند من أثبتها. و﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يشمل أصولَ التشريعِ الراجعةِ للرحمةِ بالمكلّفين. و﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ يشمل أحوالَ القيامة. و﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ يجمع معنى الديانة والشريعة. و﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ يجمع معنى الإخلاص لله في الأعمال. قال عز الدين بن عبد السلام في كتابه (حلِّ الرموزِ ومفاتيحِ الكنوز): الطريقة إلى الله لها ظاهرٌ (أي عملٌ ظاهر أي بدني)، وباطنٌ (أي عملٌ قلبيٌّ). فظاهرُها الشريعةُ وباطنُها الحقيقةُ، والمرادُ من الشريعةِ والحقيقةِ إقامةُ العبوديةِ على الوجهِ المرادِ من المكلّف. ويجمع الشريعة والحقيقة كلمتان هما قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، فـ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ شريعةٌ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ حقيقةٌ.اهـ. و﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يشمل الأحوالَ الإنسانية وأحكامَها: من عباداتٍ ومعاملاتٍ وآدابٍ. و﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ يشير إلى أحوالِ الأممِ والأفراد الماضية الفاضلة. وقوله: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يشمل سائرَ قصصِ الأممِ الضالة، ويشير إلى تفاصيل ضلالاتهم المحكية عنهم في القرآن؛ فلا جَرَم يحصل من معاني الفاتحة - تصريحاً وتضمُّناً - عِلمٌ إجماليٌّ بما حواه القرآنُ من الأغراض؛ وذلك يدعو نفسَ قارئها إلى تطلُّبِ التفصيل على حسب التمكُّنِ والقابليَّة؛ ولأجل هذا فُرضَتْ

قراءةُ الفاتحة في كلِّ ركعةٍ من الصلاة حِرصاً على التذكير لما في مَطاويها" التحرير والتنوير 1/133-134.

[2] ذكر البيضاوي رحمه الله في سياقٍ ما للفاتحة من أسماء: "السبع المثاني؛ لأنها سبعُ آياتٍ بالاتفاق إلا أن منهم من عَدَّ التسميةَ دون ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفاتحة7)، ومنهم من عكس... وقد صحَّ أنها مَكيةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ (الحجر87)، وهو مَكِّيٌّ بالنصِّ" [أنوار التنزيل للبيضاوي1/2].

[3] قال القرطبي رحمه الله في أسماء الفاتحة: "هي اثنا عشر: الأول: الصلاة، قال الله تعالى: (قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين) الحديث... الثاني: سورة الحمد؛ لأن فيها ذكرَ الحمد، كما يقال سورة الأعراف والأنفال والتوبة ونحوها. الثالث: فاتحة الكتاب من غير خلافٍ بين العلماء؛ وسُمِّيتْ بذلك لأنه تُفتَتَحُ قراءةُ القرآن بها لفظاً، وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطّاً، وتُفتَتَح بها الصلواتُ. الرابع: أم الكتاب، وفي هذا الاسم خلافٌ جوَّزَه الجمهورُ وكَرِهَه أنس والحسن وابن سيرين قال الحسن: أم الكتاب: الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ (آل عمران7)، وقال أنس وابن سيرين: أمُّ الكتابِ: اسمُ اللَّوْحِ المحفوظِ، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (الزخرف4). الخامس: أمُّ القرآنِ: واختلف فيه أيضاً، فجَوَّزَه الجمهورُ وكَرِهَه أنس وابن سيرين، والأحاديثُ الثابتةُ تَرُدُّ هذين القولين، روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: (الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني) قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وفي البخاري قال: وسُمِّيَتْ أم الكتاب؛ لأنه يُبتَدَأ بكتابتها في المصاحف ويُبدَأ بقراءتِها في الصلاة... السادس: المثاني: سُمِّيَتْ بذلك لأنها تُثَنّى في كلِّ ركعةٍ، وقيل: سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنها اسْتُثْنِيَتْ لهذه الأمة فلم تنزلْ على أحدٍ قبلَها ذُخْراً لها. السابع: القرآن

العظيم؛ سُمِّيَتْ بذلك لتضمُّنِها جميعَ علومِ القرآن؛ وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عزّ وجلّ بأوصافِ كَمالِه وجَلالِه وعلى الأمر بالعباداتِ والإخلاصِ فيها والاعترافِ بالعجز عن القيامِ بشيءٍ منها إلا بإعانتِه تعالى، وعلى الابتهالِ إليه في الهداية إلى الصراطِ المستقيمِ وكفايةِ أحوالِ الناكثين، وعلى بيانِه عاقبةَ الجاحِدين. الثامن: الشفاء، روى الدارمي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللهﷺ: (فاتحة الكتاب شفاءٌ من كل سم). التاسع: الرقية، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدرِي، وفيه: أن رسول اللهﷺ قال للرجل الذي رَقَى سيدَ الحَيِّ: ما أدراك أنها رُقية؟ فقال: يا رسول الله شيءٌ أُلقِيَ في رُوعِي) الحديث خرجه الأئمة. العاشر: الأساس: شكا رجل إلى الشَّعبي وجعَ الخاصرة؛ فقال: عليك بأساس القرآن: فاتحة الكتاب... الحادي عشر: الوافية قاله سفيان بن عيينة؛ لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة ونصفها الآخر لأجزأ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز. الثاني عشر: الكافية، قال يحيى بن أبي كثير: لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها" [الجامع 1/111-113].

[4] قال القرطبي رحمه الله: "قال يحيى بن يعمر: أُمُّ القرى: مكة، وأُمُّ القرآن: سورة الحمد. وقيل: سُمِّيت أمّ القرآن؛ لأنها أولُه ومُتضمِّنةٌ لجميعِ عُلومِه، وبه سُمِّيَتْ مكة أم القرى؛ لأنها أولُ الأرضِ، ومنها دُحِيَتْ ومنه: سُمِّيَتْ الأمُّ أُمّاً؛ لأنها أصلُ النسلِ والأرضُ أُمّاً في قول أمية بن أبي الصلت:

فالأرضُ مَعقلُنا وكانت أمَّنا
فيها مَقابِرُنا وفيها نُولَدُ

ويقال لراية الحرب: أم؛ لتقدُّمِها واتباع الجيشِ لها" [الجامع لأحكام القرآن1/112].

رابعا: سِرُّ افتتاح القرآن بسورة الفاتحة:

[1] قال السيوطي رحمه الله في (أسرار ترتيب القرآن): "افتتحَ سبحانه كتابَه بهذه السورة؛ لأنها جمعَتْ مقاصِدَ القرآن؛ ولذلك كان مِن أسمائها: أم القرآن وأم الكتاب

والأساس؛ فصارت كالعنوانِ وبراعةِ الاستهلالِ... وبيان اشتمالها على علوم القرآن قرره الزمخشري باشتمالها على الثناء على الله بما هو أهلُه وعلى التعبُّدِ والأمر والنهيِ، وعلى الوعدِ والوعيدِ. وآيات القرآن لا تخرجُ عن هذه الأمور، قال الإمام فخر الدين: المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة: الإلهيات والمعاد والنبوات وإثبات القضاء والقدر. فقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة2) يدل على الإلهيات وقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة4) يدل على نفي الجبر، وعلى إثباتِ أنَّ الكلَّ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة6) إلى آخر السورةِ يدلُّ على إثباتِ قضاءِ اللهِ وعلى النبواتِ؛ فقد اشتملَتْ هذه السورةُ على المطالبِ الأربعةِ التي هي المقصدُ الأعظمُ من القرآنِ. وقال البيضاوي: هي مُشتَمِلةٌ على الْحِكَم النظرية والأحكام العملية التي هي سُلوكُ الصراطِ المستقيمِ والإطلاعِ على مراتبِ السعداء ومنازلِ الأشقياء. وقال الطيبي: هي مُشتمِلةٌ على أربعةِ أنواعٍ من العلومِ التي هي مَناطُ الدِّين: أحدها: علم الأصول، ومعاقِدُه: معرفةُ اللهِ عزَّ وجلَّ وصفاتِه، وإليها الإشارةُ بقولِه: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾ (الفاتحة2-3)، ومعرفةُ المعادِ: وهو ما إليه الإشارةُ بقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة4)، وثانيها: عِلمُ ما يحصُلُ به الكَمالُ وهو عِلمُ الأخلاقِ وأجَلُّهُ الوُصُولُ إلى الحضرةِ الصَّمدانيَّةِ والالتجاءِ إلى جَنابِ الفردانية والسلوكِ لطريقةِ الاستقامةِ فيها، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ (الفاتحة7) قال: وجميعُ القرآنِ تفصيلٌ لما أجملَتْهُ الفاتحة؛ فإنها بُنِيَتْ على إجمالِ ما يحويهِ القرآنُ مُفصَّلاً: فإنها واقِعةٌ في مَطْلَعِ التنزيل، والبلاغةُ فيه: أن تتضمَّنَ ما سِيقَ الكلامُ لأجلِه؛ ولهذا لا ينبغي أن يُقيَّدَ شيءٌ مِن كلماتِها ما أمْكَنَ الحملُ على

الإطلاق، وقال الغزالي في (خواص القرآن): مقاصدُ القرآن ستةٌ، ثلاثةٌ مهمةٌ، وثلاثةٌ تتمة، الأولى: تعريفُ المدعوِّ إليه، كما أشيرُ إليه بِصَدْرِها، وتعريفُ الصراطِ المستقيم، وقد صرَّحَ به فيها، وتعريفُ الحالِ عند الرُّجوعِ إليه تعالى وهو الآخرة، كما أشير إليه بقوله:﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ والأخرى: تعريفُ أحوالِ المطيعِين كما أشارَ إليه بقولِه:﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وتعريفُ مَنازلِ الطريق كما أشير إليه بقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾".

خامسا: سورة الفاتحة مكية:

قال البغوي رحمه الله: "هي مكيةٌ على قولِ الأكثرين. وقال مجاهد: مدنيةٌ، وقيل: نزلتْ مرَّتينِ مرةً بمكة ومرةً بالمدينة؛ ولذلك سُمِّيتْ مَثاني، والأول أصحُّ: أنها مكية؛ لأنَّ الله تعالى مَنَّ على الرسولﷺ بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ (الحجر87) والمراد منها فاتحة الكتاب. وسورة الحِجْر مكيةٌ؛ فلم يكن يَمُنُّ عليه بها قبلَ نزولِها" [معالم التنزيل للبغوي 49/1].

سادسا: الفاتحة أعظم سورة في القرآن:

[1] روى البخاري رحمه الله في تفسير الفاتحة والأنفال والحِجر: باب (ما جاء في فاتحة الكتاب) [فتح الباري5/9]، وباب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾(الأنفال24) [فتح الباري199/9]، وباب قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (الحجر87) [فتح الباري293/9]. ورواه كذلك في كتاب فضائل القرآن باب (فاتحة الكتاب) عن أبي سعيد بن المعلىرضي الله عنه قال: (كنت أصلي فدعاني رسول اللهﷺ، فلم أُجبْهُ، قال: فأتيتُه، فقال: ما منعك أن تأتيني؟ قال: قلتُ: يا

رسولَ الله إنّي كنتُ أصلّي، قال: ألمْ يقل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ (الأنفال 24). ثم قال: لأعلّمنَّك أعظمَ سورةٍ في القرآنِ قبل أن تخرجَ من المسجد، قال: فأخذَ بيدي، فلما أراد أن يخرجَ من المسجدِ قلتُ: يا رسولَ الله إنك قلتَ: لأعلمنَّك أعظمَ سورة في القرآن، قال: نعم: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم الذي أُوتِيتُه)".

سابعا: الفاتحة شفاء:

[1] فقد روى البخاري في كتاب (فضائل القرآن): باب (ما جاء في فاتحة الكتاب) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كُنَّا في مَسِير لنا، فجاءتْ جارِيةٌ فقالت: إنَّ سيدَ الحيِّ سَلِيمٌ (أي لديغ)، وإنْ نفرْنا غُيَّبَ فهل منكم راقٍ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه (أي نعيبه أو نتهمه) برقية، فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن؟ أو كنت ترقي؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا: لا تحدث حتى نأتي ونسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ، فقال: (وما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا واضربوا لي بسهم).

[2] قال القرطبي رحمه الله: "قال المهلب: إنَّ موضعَ الرُّقيةِ منها إنما هو ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، وقيل: السورةُ كلُّها رُقيةٌ؛ لقوله عليه السلام لرجلٍ لما أخبره: (وما أدراكَ أنها رُقيةٌ)؛ ولم يقلْ: إنَّ فيها رُقيةً؛ فدلَّ هذا على أنَّ السورةَ بأجمعِها رُقيةٌ لأنها فاتحةُ الكتاب ومبدؤه ومُتضمِّنةٌ لجميعِ عُلومِه كما تقدَّم" [الجامع لأحكام القرآن1/113].

[3] قال ابن القيم رحمه الله مُبيناً فوائد الرقية بالفاتحة: "فقد أثَّرَ هذا الدواءُ في هذا الداءِ وأزاله؛ حتى كأنه لم يكن، وهو أسهلُ دواءٍ وأيسرُه؛ ولو أحسنَ العبدُ التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء. ومكثتُ بمكة مدةً تعتريني أدواء، ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنتُ أعالجُ نفسي بالفاتحة؛ فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنتُ أصِفُ ذلك

لمن يشتكي ألماً، فكان كثيرٌ منهم يبرأ سريعاً. ولكن هاهنا أمرٌ ينبغي التفطُّنُ له، وهو أنَّ الأذكارَ والآياتِ أو الأدعيةَ التي يُستشفَى بها، ويُرقَى بها هي في نفسِها نافعةٌ شافِيةٌ، ولكن تستدعي قبولَ المحل، وقوةَ هِمَّةِ الفاعلِ وتأثيره؛ فمتى تخلَّفَ الشفاءُ كان لضعفِ تأثيرِ الفاعلِ، أو لعدمِ قبولِ المنفعِل، أو لمانعٍ قويٍّ فيه يمنع أن ينجعَ فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسيَّة؛ فإنَّ عدمَ تأثيرها قد يكون لعدمِ قبولِ الطبيعةِ لذلك الدواء، وقد يكون لمانعٍ قويٍّ يمنع من اقتضائه أثرَه؛ فإنَّ الطبيعةَ إذا أخذَتْ الدواءَ بقبولٍ تامٍّ كان انتفاعُ البدنِ به بحسب ذلك القبولِ؛ فكذلك القلبُ إذا أخذَ الرُّقَى والتعاويذَ بقبولٍ تامٍّ، وكان للراقي نفسٌ فَعَّالةٌ، وهِمَّةٌ مُؤثِّرةٌ في إزالةِ الداء" [الجواب الكافي لمن سألَ عن الدواءِ الشافي ص5].

ثامنا: فاتحة الكتاب نور:

فقد روى مسلم رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بينما جبريل قاعدٌ عند رسولِ الله ﷺ سمع نَقيضاً من فوقِه؛ فرفع رأسَه فقال: هذا بابٌ من السماء فُتِحَ اليومَ لم يُفتَحْ قط إلا اليوم، فنزلَ منه ملَكٌ فقال: هذا ملَكٌ نزلَ إلى الأرضِ لم ينزلْ قط إلا اليومَ فسلَّمَ وقال: أبْشِرْ بنُورَيْن أوتِيتَهما لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلَك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة؛ لن تقرأ بحرفٍ منهما إلا أُعطيتَه) [شرح النووي على مسلم 91/6]. قلتُ: والنقيضُ: الصوتُ. ولله درُّ ابنِ منظور حيث قال: "في التنزيلِ العزيز: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ ﴾ (الشرح2-3)... يُحمَل هذا على أنه عز وجلَّ وضعَ عنه وزرَه الذي أنقضَ ظهرَه من حملِه همَّ قريشٍ إذْ لم يُسلِموا، أو همَّ المنافقين إذْ لم يُخلِصوا، أو همَّ الإيمان إذْ لم يعُمَّ عشيرتَه الأقربين، أو همَّ العالَمِ إذْ لم يكونوا كلُّهم مؤمنين، أو همَّ الفتح إذْ لم يُعجَّلْ للمسلمين، أو همومَ أُمتِه المذنبين؛ فهذه أوزاره التي أثقلَتْ ظهرَه ﷺ؛ رغبةً في انتشار دعوتِه، وخشيةً على أُمتِه، ومُحافظةً

على ظهور مِلَّتِه، وحِرْصاً على صفاءِ شِرْعَتِه؛ ولعلَّ بين قولِه عز وجلَّ: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾ (الشرح2) وبين قولِه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (الكهف6) مُناسَبةً من هذا المعنى الذي نحن فيه؛ وإلا فمن أينَ لمن غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخَّرَ ذُنوبٌ؟... وما أولَى هذا المكانَ أنْ يُنشَدَ فيه:

ومن أينَ للوجهِ الجميل ذُنوبُ؟!"

[لسان العرب 244/7].

تاسعا: الفاتحة جامعة لأغراض القرآن:

[1] قال ابن عاشور رحمه الله: "لَمَّا أراد الله أن تكون هذه السورة أولَى سُوَر الكتابِ المجيد بتوقيفِ النبيﷺ ... نبَّه اللهُ تعالى قراءَ كتابِه وفاتحي مُصحفِه إلى أصولِ هذه التزكية النفسية بما لقَّنهم أن يبتدئوا بالمناجاة التي تضمَّنَتْها سورةُ الفاتحة من قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلى آخر السورة. فإنها تضمَّنَتْ أصولا عظيمة: أولها: التخلية عن التعطيل والشرك بما تضمنه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾. الثاني: التخلي عن خواطر الاستغناء عنه بالتبرؤ من الحول والقوة تجاه عظمته بما تضمنه ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. الثالث: الرغبة في التحلِّي بالرُّشد والاهتداء بما تضمنه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾. الرابع: الرغبة في التحلِّي بالأسوة الحسنة بما تضمنه ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾. الخامس: التهمم بالسلامة من الضلال الصريح بما تضمنه ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾. السادس: التهمم بسلامة تفكيرهم من الاختلاط بشبهات الباطل المموَّه بصورةِ الحق وهو المسمَّى بالضلال؛ لأن الضلال خطأ الطريق المقصود بما تضمَّنه ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾" [التحرير والتنوير 152/1].

[2] قال ابن القيم رحمه الله: "اعْلَمْ أنَّ هذه السورةَ اشتملَتْ على أُمَّهاتِ المطالبِ العاليةِ أتمَّ اشتمالٍ وتَضَمَّنَتْها أكملَ تضمُّنٍ. فاشتملَتْ على التعريفِ بالمعبودِ تبارك وتعالى بثلاثةِ أسماء مَرجعُ الأسماءِ الحسنى والصفاتِ العُليا إليها ومَدارُها عليها. وهي: الله والرب والرحمن. وبُنِيَتْ السُّورة على الإلهية والربوبية والرحمة. فـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مبنِيٌّ على الإلهية، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمدُ يتضمَّنُ الأمور الثلاثة. فهو المحمود في إلهيته وربُوبيَّتِه ورَحمتِه. والثناء والمجد كمالان لحمده. وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكونُ حُكمِه بالعدل. وكل هذا تحت قوله:﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

وتضمنت إثبات النبوات من جهاتٍ عديدة: أحدها: كونه رب العالمين؛ فلا يليق به أن يترك عباده سدىً هملاً لا يُعرِّفهم ما ينفعهم في معاشِهم ومعادِهم وما يضرهم فيهما؛ فهذا هضمٌ للربوبية... الثاني: أخذها من اسم الله وهو المألوه المعبود؛ ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله. الموضع الثالث: من اسمه الرحمن؛ فإن رحمته تمنع إهمالَ عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم... الموضع الرابع: من ذكر ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾؛ فإنه اليوم الذي يدين الله العبادَ فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات ويعاقبهم على المعاصي والسيئات. وما كان الله لِيعذِّب أحداً قبل إقامةِ الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه... الموضع الخامس: من قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾؛ فإنَّ ما يُعبَدُ به الربُّ تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه. وعبادتُه: وهي شكرُه وحُبُّه وخَشيتُه فطريٌّ ومعقولٌ للعقول السليمة. لكن طريق التعبد وما يعبد به؛ لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم... الموضع السادس: من قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فالهداية: هي البيان والدلالة...

ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل" [مدارج السالكين 1/7-9].
[3] قال القرطبي رحمه الله: "في الفاتحة ما ليس لغيرها حتى قيل: إنَّ جميعَ القرآنِ فيها، وهي خمس وعشرون كلمةً، تضمنت جميعَ علومِ القرآن. ومن شرفِها أنَّ اللهَ سبحانه قسَمَها بينَه وبينَ عبدِه، ولا تصحُّ القُربةُ إلا بها، ولا يلحق عملٌ بثوابِها؛ وبهذا المعنى صارت أمَّ القرآن العظيم، كما صارت ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلثَ القرآن؛ إذ القرآن توحيدٌ وأحكامٌ ووعظٌ، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فيها التوحيدُ كلُّه؛ وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه السلام لأُبَيٍّ: "أي آية في القرآن أعظم؟ قال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (البقرة 255)"؛ وإنما كانت أعظمَ آيةٍ لأنها توحيدٌ كلُّها، كما صار قوله: (أفضلُ ما قلتُه أنا والنبيُّون مِن قبلِي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له) أفضلَ الذكر؛ لأنها كلماتٌ حوت جميعَ العلوم في التوحيدِ، والفاتحة تضمَّنَتْ التوحيدَ والعبادةَ والوعظَ والتذكيرَ، ولا يُستبعَدُ ذلك في قُدرةِ الله تعالى" [الجامع لأحكام القرآن1/110-111].
[4] ذكر ابن عبد الوهاب في (تفسير الفاتحة): "مسائل مستنبطة من سورة الفاتحة: الأولى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فيها التوحيد. الثانية: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فيها المتابعة. الثالثة: أركان الدين الحب والرجاء والخوف. فالحب في الأولى، والرجاء في الثانية، والخوف في الثالثة. [قلتُ: أراد بالأولى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، وبالثانية: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وبالثالثة: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾]. الرابعة: هلاك الأكثر في الجهل بالآية الأولى أعني استغراق الحمد واستغراق ربوبية العالمين. الخامسة: أول المنعم عليهم وأول المغضوب عليهم والضالين. السادسة: ظهور الكرم والحمد في ذكر المنعم عليهم. السابعة: ظهور القدرة والمجد في ذكر المغضوب عليهم والضالين. الثامنة:

دعاء الفاتحة مع قوله لا يستجاب الدعاء من قلب غافل. التاسعة: قوله ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه حُجة الإجماع.

العاشرة: ما في الجملة من هلاك الإنسان إذا وكل إلى نفسه. الحادية عشر: ما فيها من النص على التوكل. الثانية عشر: ما فيها من التنبيه على بُطلان الشرك. الثالثة عشرة: التنبيهُ على بُطلان البِدَع. الرابعة عشرة: آياتُ الفاتحة كلُّ آيةٍ منها لو يعلمها الإنسان صار فقيهاً, وكلُّ آيةٍ أفردَ معناها بالتَّصنيف".

[5] قال السعدي رحمه الله: "هذه السورة على إيجازها, قد احتوت على ما لم تَحْتَو عليه سُورةٌ من سُوَر القرآن, فتضمَّنتْ أنواعَ التوحيد الثلاثة: توحيد الرُّبوبيَّة يؤخَذ من قوله: ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾, وتوحيد الألوهيّة: وهو إفراد الله بالعبادة؛ يؤخذ من لفظ (الله) ومن قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾, وتوحيد الأسماء والصفات: وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله؛ من غير تعطيلٍ ولا تمثيلٍ ولا تشبيهٍ؛ وقد دلَّ على ذلك لفظ ﴿ ٱلۡحَمۡدُ﴾ كما تقدم. وتضمَّنَتْ إثباتَ النُّبُوَّة في قولِه: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾؛ لأنّ ذلك ممتنعٌ بدون رسالة. وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾, وأنَّ الجزاء يكون بالعدل؛ لأنّ الدِّين معناه: الجزاء بالعدل. وتضمّنت إثبات القدر, وأنّ العبد فاعلٌ حقيقةً؛ خلافاً للقدريّة والجبريّة. بل تضمّنت الردَّ على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾؛ لأنه معرفة الحق والعمل به, وكلّ مبتدعٍ وضالٍّ فهو مخالفٌ لذلك. وتضمّنت إخلاص الدِّين لله تعالى: عبادةً واستعانةً؛ في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾" [تيسير الكريم الرحمن ص39-40].

عاشرا: الفاتحة تهدي إلى كمالِ العُبُودِيةِ:

قال ابن القيم رحمه الله: "للإنسان قُوّتان: قُوةٌ علميةٌ نظريةٌ، وقوة عمليةٌ إرادية. وسعادتُه التامةُ موقوفةٌ على استكمالِ قوتيْه العلمية والإرادية. واستكمالُ القوة العلمية إنما يكون بمعرفةِ فاطرِه وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاتِه، ومعرفةِ الطريق التي توصِل إليه، ومعرفة نفسِه ومعرفة عيوبِها؛ فبهذه المعارفِ الخمسِ يحصل كمالُ قوتِه العلمية، وأعلمُ الناسِ أعرفُهم بها وأفقهُهم فيها. واستكمالُ القوةِ العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقِه سبحانه على العبد، والقيامِ بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعةً وشهوداً لِمِنَّتِه عليه، وتقصيره هو في أداءِ حقِّه؛ فهو مستحْيٍ من مواجهتِه بتلك الخدمةِ لعلمِه أنها دون ما يستحقُّه عليه، ودون دونَ ذلك، وأنه لا سبيلَ له إلى استكمالِ هاتين القوتينِ إلا بمعونتِه؛ فهو مضطرٌّ إلى أن يهديَه الصراطَ المستقيمَ الذي هدى إليه أولياءَه وخاصَّتَه، وأن يُجنِّبَه الخروجَ عن ذلك الصراطِ: إما بفسادٍ في قوتِه العلمية؛ فيقع في الضلالِ، وإما في قوتِه العملية؛ فيوجب له الغضب. فكمالُ الإنسانِ وسعادتُه لا تتم إلا بمجموعِ هذه الأمور، وقد تضمنَتْها سورةُ الفاتحة وانتظمَتْها أكملَ انتظامٍ؛ فإن قولَه: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ (الفاتحة2-4) يتضمَّن الأصلَ الأول: وهو معرفة الربِّ تعالى ومعرفة أسمائه وصفاتِه وأفعالِه. والأسماء المذكورةُ في هذه السورةِ هي أصولُ الأسماء الحسنى؛ وهو اسم الله والرب والرحمن. فاسم (الله) متضمن لصفاتِ الألوهية، واسم (الرب) متضمنٌ لصفاتِ الربوبية، واسم (الرحمن) متضمِّنٌ لصفاتِ الإحسانِ والجودِ والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا. وقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ (الفاتحة5) يتضمن معرفةَ الطريق الموصلةِ إليه، وإنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته. وقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ (الفاتحة 6)

يتضمن بيانَ أنَّ العبدَ لا سبيلَ له إلى سعادتِه إلا باستقامتِه على الصراطِ المستقيم، وأنه لا سبيلَ له إلى الاستقامةِ على الصراطِ إلا بهدايتِه [قلتُ: وهذا من أسرار ذِكر النعمةِ في تعريفِ الصراطِ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾]

وقوله: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ (الفاتحة7) يتضمَّن بيانَ طرفَي الانحرافِ عن الصراطِ المستقيم، وأنَّ الانحرافَ إلى أحدِ الطرفين انحرافٌ إلى الضلالِ الذي هو فسادُ العلمِ والاعتقادِ، والانحراف إلى الطرفِ الآخر انحرافٌ إلى الغضبِ الذي سببُه فسادُ القصدِ والعمل. فأولُ السورةِ رحمةٌ، وأوسطُها هدايةٌ، وآخرُها نعمةٌ. وحظُّ العبدِ من النعمةِ على قدر حظِّه من الهدايةِ، وحظُّه منها على قدر حظِّه من الرحمة؛ فعاد الأمرُ كلُّه إلى نعمتِه ورحمتِه، والنعمةُ والرحمةُ من لوازمِ رُبوبيَّتِه؛ فلا يكون إلا رحيماً منعماً، وذلك من موجباتِ إلهيَّتِه؛ فهو الإله الحقُّ وإنْ جحدَه الجاحدون وعدلَ به المشركون. فمَن تحققَ بمعاني الفاتحة علماً ومعرفةً وعملاً وحالاً؛ فقد فاز من كمالِه بأوفر نصيبٍ، وصارتْ عبوديَّتُه عبوديةَ الخاصَّة الذين ارتفعَتْ درجتُهم عن عوامِّ المتعبِّدين" [الفوائد ص26-28].

[2] قلتُ: فالعِلمُ الذي يستفيدُه المؤمنُ مِن معرفةِ الفاتحة؛ ينفعُه في حلاوةِ إيمانِه، وصَلاحِ قلبِه، واستقامةِ سلوكِه، وحرارةِ دعائه، وخُشوعِه في صلاتِه؛ فتنهاه عن الفحشاءِ والمنكر. وكذلك ينبغي أن يُفهَم تقسيمُ العلومِ إلى الحِكَم النظرية والأحكام العملية، فالمقصودُ التفريقُ بين القواعدِ والأصُول، وبين ما هو بمثابةِ الفُروع والثِّمار، وقد ترجمَ البخاري رحمه الله في كتابِ العلم: باب (العلم قبل القول والعمل؛ لقولِ الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد 19) فبدأ بالعلم). قال ابن حجر رحمه الله: "أي حيث قال: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ثم قال: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾" [فتح الباري 216/1].

✪ المبحث الثاني: تفسير الاستعاذة

أولا: دليل الاستعاذة في القرآن:

[1] قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

(النحل 98)0

[2] قال البخاري رحمه الله: "﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ (النحل98) **هذا مُقدَّمٌ ومُؤخَّر؛ وذلك أنَّ الاستعاذةَ قبل القراءة، ومعناها: الاعتصام بالله". [صحيح البخاري 4/1739ـ 1740].**

[3] قال ابن كثير رحمه الله: "المشهور الذي عليه الجمهورُ أنَّ الاستعاذةَ إنما تكونُ قبْلَ التلاوةِ لدفع المُوسْوس عنها. ومعنى الآيةِ عندَهم ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (النحل98) **أي إذا أردتَ القراءةَ، كقولِه تعالى:** ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ الآية (المائدة 6): **أي إذا أرَدْتم القيامَ، والدليلُ على ذلك الأحاديثِ عن رسولِ اللهﷺ بذلك قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله... عن أبي سعيد الخدري**ﷺ

قال: (كان رسولُ اللهﷺ إذا قامَ من الليل فاستفتَحَ صلاتَه وكَبَّرَ، قال: سُبحانك اللهمَّ وبِحمدِك وتباركَ اسمُكَ وتعالى جَدُّكَ ولا إله غيرُكَ ولا إله إلا الله ثلاثاً، ثم يقول: أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ من الشيطانِ الرجيمِ مِن همزه ونفْخِه ونَفْثِه)، وقد رواه أهلُ السنن الأربعة". [تفسير القرآن العظيم 1/22-23].

ثانيا: معنى الاستعاذة:

[1] قال ابن الجوزي رحمه الله: "قد أمرَ الله عزَّ وجل بالاستعاذة عند القراءة بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ومعناه: إذا أردتَ القراءة، ومعنى أعُوذ: ألجأ وألوذ" [زاد المسير 1/7].

[2] قال القرطبي رحمه الله: "﴿ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾: واحدُ الشياطين على التكسير، والنون أصليةٌ؛ لأنه من (شطن) إذا بعد عن الخير، وشطنت داره: أي بعدت، قال الشاعر:

نأتْ بِسُعادَ عنك نَوًى شَطُونُ
فبانَتْ والفؤادُ بها رَهينُ

وبئر شَطُون أي بعيدة القعر، والشطن الحبل؛ سُمِّي به لِبُعْدِ طَرَفَيه وامتدادِه، ووَصَفَ أعرابيٌّ فرساً فقال: كأنه شيطانٌ في أشطان. وسمِّي الشيطان شيطاناً؛ لِبُعدِه عن الحقِّ وتمردِه؛ وذلك أنَّ كلَّ عاتٍ مُتمرِّد من الجن والإنس والدواب شيطان قال جرير:

أيامَ يَدعونَنِي الشيطانَ مِن غزلٍ
وهُنَّ يَهْوينَنِي إذْ كنتُ شيطانا"

[الجامع لأحكام القرآن 1/90].

[3] قال ابن جزي رحمه الله: "﴿ ٱلرَّجِيمِ ﴾ فعيل بمعنى مفعول، ويحتمل معنيين: أن يكون بمعنى لعين وطريد، وهذا يناسب إبليس لقوله:﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الملك5)، والأول أظهر" [التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي 1/30].

[4] قال القرطبي رحمه الله: "﴿ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أي المبعَد من الخير المهان. وأصل الرجم: الرميُ بالحجارة، وقد رجمتُه أرجمه فهو رَجيم ومرجوم، والرجم: القتل واللعن والطرد والشتم، وقد قيل هذا كلُّه في قوله تعالى:﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ (الشعراء 116)، وقول أبي إبراهيم: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ (مريم 46)" [الجامع لأحكام القرآن 90/1].

ثالثا: الاستعاذة عند القراء:

[1] قال أبو شامة رحمه الله شارحاً بيتَ الشاطبي رحمه الله:

إذا ما أردتَ الدهرَ تقرأ فاستعِذْ
جهاراً من الشيطان بالله مُسجَلا

"أي تَعَوَّذْ جهارا، وهذا في استعاذة القارىء على المقرىء أو بحضرة من يسمع قراءته، أما من قرأ خاليا أو في الصلاة فالإخفاء له أولى. و(مسجلا) بمعنى مطلقا لجميع القراء في جميع القرآن لا يختص ذلك بقارىءٍ دون غيره ولا بسورةٍ ولا بحزبٍ ولا بآيةٍ دون باقي السور والأحزاب والآيات" [إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع لأبي شامة الدمشقي 61/1].

[2] قال أبو عمرو الداني رحمه الله: "اعلمْ أنَّ المستعمَلَ عند الحذاقِ من أهلِ الأداء في لفظِها: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) دون غيره؛ وذلك لموافقة الكتاب والسنة: فأما الكتاب فقول الله عزَّ وجلَّ لنبيه عليه السلام: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (النحل 98)، وأما السُّنة فما رواه نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبيﷺ أنه استعاذ قبل القراءة بهذا اللفظ بعينه، وبذلك قرأتُ وبه آخُذ" [التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني 17/1].

رابعا: حِكمةُ الاستعاذة:

[1] طهارة القلب بين يدي الله عزّ وجل، قال الزركشي رحمه الله: "إنّ مناجاته لا تصعد إلا إذا تطهر من أدناس الجهالة به، كما لا تسجد الأعضاء إلا بعد التطهير من حدث الأجسام؛ ولذلك قدمت الاستعاذة على القرآن" [البرهان في علوم القرآن للزركشي 328/3].

[2] ترك جميع المناهي، قال الرازي رحمه الله: "إنَّ قولنا: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لا شك أنَّ المرادَ منه: الاستعاذةُ بالله من جميعِ المنهيات والمحظورات، ولا شك أن المنهيات إما أن تكون من باب الاعتقاد، أو من باب أعمال الجوارح" [التفسير الكبير للرازي 15/1].

[3] الالتجاء إلى الله جلَّ جلاله، قال ابن كثير رحمه الله: "الاستعاذة هي الالتجاءُ إلى الله تعالى والالتصاقُ بجنابِه من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ، والعياذةُ تكون لِدفعِ الشرِّ، واللِّياذُ لطلبِ جَلْبِ الخيرِ، كما قال المتنبِّي:

يا مَن ألوذُ به فِيما أؤمِّلُهُ
ومَن أعوذُ به ممن أحاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ الناسُ عظماً أنتَ كاسِرُه
ولا يَهيضُون عظماً أنتَ جابِرُهُ

ومعنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم): أي أستجير بجنابِ الله من الشيطانِ الرجيم أن يَضرَّني في دِيني أو دُنياي أو يَصدُّني عن فعلِ ما أُمِرتُ به أو يَحُثَّني على فعل ما نُهيتُ عنه؛ فإنَّ الشيطانَ لا يَكفُّه عن الإنسانِ إلا الله؛ ولهذا أمر تعالى بمصانعةِ شيطانِ الإنسِ ومداراتِه بإسداءِ الجميل إليه لِيردَّه طبعُه عما هو فيه من الأذى، وأمَر بالاستعاذةِ به من شيطانِ الجن؛ لأنه لا يَقبلُ رشوةً ولا يُؤثِّرُ فيه جميلٌ؛ لأنه شِرِّيرٌ بالطبعِ ولا يَكفُّه عنك إلا الذي خَلَقَه" [تفسير القرآن العظيم 25/1].

[4] الاعتصام بالله تعالى، قال الرازي رحمه الله: "في قوله (أعوذ بالله) عُرُوجٌ من الخلق إلى الخالق... فقوله: (أعوذ) إشارةٌ إلى الحاجة التامة؛ فإنه لولا الاحتياج لما كان في الاستعاذة فائدة، وقوله (بالله) إشارةٌ إلى الغنى التام للحق؛ فقول العبد: (أعوذ) إقرارٌ على نفسِه بالفقر

والحاجةِ، وقوله (بالله) إقرارٌ بأمرين: أحدهما: بأن الحق قادرٌ على تحصيلِ كلِّ الخيرات ودفعِ كلِّ الآفات، والثاني: أنَّ غيرَه غيرُ موصوفٍ بهذه الصفة؛ فلا دافعَ للحاجات إلا هو ولا معطي للخيرات إلا هو؛ فعند مشاهدة هذه الحالة يَفِرُّ العبدُ من نفسِه ومن كلِّ شيء سوى الحقِّ؛ فيشاهد في هذا الفرار سرَّ قوله: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الذاريات 50)" [التفسير الكبير للرازي 81/1].

خامسا: حُكم الاستعاذة:

[1] قال القرطبي رحمه الله: "هذا الأمرُ على الندبِ في قول الجمهور. وحكى النقاشُ عن عطاء أنَّ الاستعاذةَ واجِبةٌ في صدر كلِّ قراءةٍ في غير الصلاة. واختلَفوا فيه في الصلاةِ حكى النقاش عن عطاء أنَّ الاستعاذة واجبةٌ، وكان ابن سيرين والنخعي وقومٌ يَتَعَوَّذُون في الصلاةِ كلَّ ركعةٍ ويَتَمَثَّلُون أمْرَ اللهِ في الاستعاذةِ على العُمومِ وأبو حنيفة والشافعي يَتعوَّذان في الركعةِ الأُولَى مِن الصلاةِ، ويَرَيانِ قراءةَ الصلاةِ كلها كقراءةٍ واحدةٍ، ومالك لا يرى التعوُّذَ في الصلاة المفروضة ويراه في قيامِ رمضان" [الجامع لأحكام القرآن 86/1].

[2] قال الشنقيطي رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (النحل 98) أظهر القولين في هذه الآية الكريمة أن الكلام على حذف الإرادة: أي فإذا أردتَ قراءةَ القرآن ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ الآية، وليس المراد أنه إذا قرأ القرآن وفرغ من قراءته استعاذ بالله من الشيطان كما يفهم من ظاهر الآية، وذهب إليه بعض أهل العلم والدليل على ما ذكرنا تكرر حذف الإرادة في القرآن وفي كلام العرب لدلالة المقام عليها كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (المائدة 6) أي: أردتم القيام إليها كما هو ظاهر وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ

﴿بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾ (المجادلة 9): أي إذ أردتم أن تتناجوا فلا تتناجوا بالإثم؛ لأن النهي إنما هو عن أمر مُستقبلٍ يراد فِعلُه، ولا يصح النهي عن فعلٍ مضى وانقضى كما هو واضح. وظاهر هذه الآية الكريمة أن الاستعاذة من الشيطان الرجيم واجبةٌ عند القراءة لأن صيغة (افعل) للوجوب كما تقرر في الأصول. وقال كثير من أهل العلم: إن الأمر في الآية للندب والاستحباب، وحكى عليه الإجماع أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وظاهر الآية أيضا الأمرُ بالاستعاذة عند القراءة في الصلاة؛ لعموم الآية والعلم عند الله تعالى". أضواء البيان للشنقيطي 443/2.

[3] قال ابن كثيرٍ رحمه الله: "جمهورُ العلماءِ على أنَّ الاستعاذةَ مُستَحَبةٌ ليستْ بِمُتحتِّمةٍ يأثمُ تاركُها. وحكى الرازي عن عطاء بن أبي رباح وُجوبَها في الصلاةِ وخارجَها كلّما أرادَ القِراءة، قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عُمره فقد كَفَى في إسقاطِ الوجوب. واحتجَّ الرازي لعطاء بظاهر الآية: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ (النحل 98)0وهو أمْرٌ ظاهرُه الوُجوبُ، وبمواظبةِ النبيِّﷺ عليها، ولأنها تَدْرَأ شرَّ الشيطان؛ وما لا يتمُّ الواجِبُ إلا به فهو واجِبٌ، ولأنَّ الاستعاذةَ أحْوَطُ، وهو أحَدُ مَسالِكِ الوُجُوبِ. وقال بعضُهم: كانتْ واجِبةً على النبيِّﷺ دون أُمَّتِه، وحُكِيَ عن مالكٍ أنه لا يَتعوَّذُ في المكتوبةِ ويَتعوَّذُ لقيامِ رمضانَ في أولِ ليلةٍ منه" [تفسير القرآن العظيم 24/1].

سادسا: أسرارُ سَنِّ الاستعاذة عند قراءة القرآن:

[1] لدفعِ كيد الشيطان الساعي إلى صدِّ الناسِ عن قراءةِ القرآن، قال الرازي رحمه الله: "سِرُّ الاستعاذة هو الالتجاءُ إلى قادرٍ يدفع الآفات عنك، ثم إنَّ أجلَّ الأمور التي يُلقي الشيطان وسوستَه فيها قراءةُ القرآن؛ لأنَّ مَنِ قرأ القرآنَ ونوى به عبادةَ الرحمن وتفكَّرَ في وَعدِه ووعيدِه وآياته وبيِّناته؛ ازدادت رَغبتُه في الطاعات ورَهْبتُه عن المحرمات؛

فلهذا السبب صارت قراءةُ القرآن من أعظم الطاعات؛ فلا جَرَمَ كان سَعيُ الشيطان في الصدِّ عنه أبلغَ وكان احتياجُ العبدِ إلى مَن يَصُونه عن شرِّ الشيطان أشَد؛ فلهذه الحكمة اختصَّت قراءة القرآن بالاستعاذة" [التفسير الكبير للرازي 82/1].

[2] إبعاد القواطع، قال ابن جزي رحمه الله: "القواطعُ عن الله أربعة: الشيطان والنفس والدنيا والخلق؛ فعلاجُ الشيطان الاستعاذة والمخالَفة له، وعلاجُ النفس بالقهر، وعلاجُ الدنيا بالزهد، وعلاج الخلق بالانقباض والعزلة" [التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي 30/1].

[3] الاستِعانة على الشيطانِ بالله الغالِبِ على أمره، كما قال الرازي رحمه الله: "الشيطانُ عدوُّك؛ وأنت عنه غافلٌ غائبٌ! قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف 27)؛ فعلى هذا لك عَدوٌّ غائبٌ ولك حبيبٌ غالبٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ (يوسف 21)؛ فإذا قصدَك العَدوُّ الغائب؛ فافزَعْ إلى الحبيبِ الغالب)" [التفسير الكبير للرازي 85/1].

سابعا: آيات الاستعاذة من الشيطان:

[1] قال ابن كثير رحمه الله: "قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (الأعراف 199-200)، وقال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (المؤمنون96-98)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ (فصلت 34-36)0 فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعةٌ في معناها. وهو أنَّ الله تعالى يأمر

بمُصانَعةِ العدوِّ الإنسيِّ والإحسانِ إليه لِيردَّه عنه طبعُه الطيِّبُ الأصلِ إلى المودَّةِ والمصافاةِ، ويأمُرُ بالاستعاذةِ به مِن العدوِّ الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبلُ مُصانعةً ولا إحساناً، ولا يبتغي غيرَ هلاكِ ابن آدم؛ لِشدةِ العَداوةِ بينَه وبينَ أبيه آدم مِن قبلُ، كما قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ (الأعراف 27)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ (فاطر 6)، وقال: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ (الكهف50). وقد أقْسَمَ للوالِدِ آدم عليه السلام أنه له ﴿ لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الأعراف 21) وكذَبَ؛ فكيف مُعاملَتُه لنا؟! وقد قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (ص 82-83)، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (النحل98-100)" [تفسير القرآن العظيم 22/1].

[2] قال الرازي رحمه الله: "أما إن نظرت إلى قصةِ أبيك؛ فإنه أقسم بأنه له من الناصحين! ثم كان عاقبة ذلك الأمر أنه سعى في إخراجه من الجنة! وأما في حقك فإنه أقسم بأنه يضلك ويغويك فقال: (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) [ص 82]؛ فإذا كانت هذه معاملته مع من أقسم أنه ناصحه؛ فكيف تكون معاملته مع من أقسم أنه يضله ويغويه؟!" [التفسير الكبير للرازي 84/1].

ثامنا: آداب الاستعاذة في أخلاق النبوة:

[1] قال الرازي رحمه الله: "إنه عليه الصلاة والسلام كان يعظم أمر الاستعاذة حتى أنه لما تزوج امرأة ودخل بها فقالت: أعوذ بالله منك؛ فقال عليه الصلاة والسلام: (عُذتِ بمعاذ؛ فالحقي بأهلك)، واعلم أنَّ الرجلَ المستبصِر بنور الله لا التفاتَ له إلى القائل، وإنما التفاتُه إلى القول؛ فلما ذكرت تلك المرأة كلمة (أعوذ بالله)؛ بقي قلب الرسولﷺ مشتغلا بتلك الكلمة ولم يلتفت إلى أنها قالت تلك الكلمة عن قصدٍ أم لا" [التفسير الكبير للرازي 69/1].

[2] قال الرازي رحمه الله: "عن ابن عباس عن النبيﷺ أنه كان يُعَوِّذ الحسنَ والحسين رضي الله عنهما، ويقول: أعيذكما بكلماتِ الله التامة من كلِّ شيطانٍ وهامةٍ ومن كل عينٍ لامة. ويقول: كان أبي إبراهيم عليه السلام يعوذ بها إسمعيل وإسحق عليهما السلام)" [التفسير الكبير للرازي 69/1].

[3] قال الرازي رحمه الله: "اعلَم أنَّ قوله: (أعوذ بالله) أمرٌ منه لعباده أن يقولوا ذلك، وهذا غيرُ مختصٍّ بشخصٍ مُعَيَّنٍ؛ فهو أمرٌ على سبيل العُموم؛ لأنه تعالى حكى ذلك عن الأنبياء والأولياء؛ وذلك يدلُّ على أنَّ كلَّ مخلوقٍ يجبُ أن يكون مُستعيذا بالله: فالأول: أنه تعالى حكى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ ﴾ (هود 47)؛ فعند هذا أعطاه الله خِلْعَتَين: السلام والبركات، وهو قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ ﴾ (هود48)، والثاني: حكى عن يوسف عليه السلام أن المرأة لما راودته ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (يوسف23)؛ فأعطاه الله تعالى خِلْعَتين: صرف السوء والفحشاء؛ حيث قال: ﴿ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ ﴾ (يوسف24)، والثالث: ﴿ فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ (يوسف78) فقال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ (يوسف 79)؛ فأكرمه الله تعالى بقوله: ﴿ وَرَفَعَ

﴿ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ (يوسف100). الرابع: حكى الله عن موسى عليه السلام أنه لما أمر قومه بذبح البقرة قال قومه: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (البقرة 67)؛ فأعطاه الله خِلْعَتين: إزالة التهمة وإحياء القتيل، فقال: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (البقرة73). الخامس: أن القوم لما خوفوه بالقتل قال: ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ (الدخان 20)، وقال في آية أخرى: ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ (غافر 27)؛ فأعطاه الله تعالى مراده فأفنى عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم. والسادس: أن أم مريم قالت: ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران 36)؛ فوجدت الخلعة والقبول، وهو قوله: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (آل عمران 37). والسابع: أنَّ مريم عليها السلام لما رأت جبريل في صورةِ بشر يقصدها في الخلوة ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ (مريم 18)؛ فوجَدَت نِعمَتين: ولدا من غير أب، وتنزيه الله إياها بلسان ذلك الولد عن السوء: وهو قوله: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ (مريم 30). الثامن: أن الله تعالى أمر محمدا عليه الصلاة والسلام بالاستعاذة مرة بعد أخرى، فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون 97-98)، وقال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ (الفلق 1)، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ (الناس1). والتاسع: قال في سورة الأعراف ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف 199-200)، وقال في

حم السجدة: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ (فصلت 34) إلى أن قال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (فصلت 36)؛ فهذه الآيات دالةٌ على أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام كانوا أبداً في الاستعاذة مِن شرِّ شياطينِ الإنس والجن" [التفسير الكبير للرازي 1/67-68].

تاسعا: الاستعاذة إطفاء لنار الغضب:

قال القرطبي رحمه الله: "روى مسلم عن سليمان بن صُرد ﷺ قال: (استَبَّ رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدُهما يغضب ويحمرُّ وجهه وتنتفخُ أوداجه، فنظر إليه النبيُّ ﷺ فقال: إنِّي لأعلمُ كلمةً لو قالها؛ لذهب هذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فقام إلى الرجل رجلٌ ممن سمع النبيَّ ﷺ فقال: هل تدري ما قال رسول الله ﷺ آنفا؟ إني لأعلمُ كلمةً لو قالها؛ لذهب هذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فقال له الرجل: أمجنوناً تراني؟) أخرجه البخاري أيضا" [الجامع 1/88-89].

عاشرا: من لطائف الاستعاذة:

[1] قال ابن كثير رحمه الله: "مِن لطائفِ الاستعاذةِ أنها طهارةٌ للفمِ مما كان يتعاطاهُ مِن اللَّغو والرَّفَثِ، وتطييبٌ له، وهو لتلاوةِ كلامِ الله، وهي استِعانةٌ بالله، واعتِرافٌ له بالقدرة، وللعبدِ بالضعفِ والعجز عن مُقاومةِ هذا العدوِّ المبينِ الباطني الذي لا يقدرُ على منعِه ودفعِه إلا اللهُ الذي خلقَه، ولا يقبلُ مُصانعةً ولا يُدارَى بالإحسانِ بخلافِ العدوِّ مِن نوعِ الإنسانِ كما دلَّتْ على ذلك آياتٌ مِن القرآنِ في ثلاثٍ من المثاني، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾(الإسراء 65)، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري؛ فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطني كان طريدا، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورا، ومن قهره العدوُّ الباطني كان مَفتونا أو مَوزورا؛ ولما كان الشيطانُ يرى الإنسانَ مِن حيث

لا يراه استعاذَ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان" [تفسير القرآن العظيم 1/24-25].

[2] قال الرازي رحمه الله: "اعلمْ أنَّ الاستعاذة لا تتم إلا بعلمٍ وحالٍ وعمل. أما العلم فهو كونُ العبدِ عالِماً بكونه عاجزاً عن جلبِ المنافع الدينية والدنيوية، وعن دفع جميع المضار الدينية والدنيوية، وأن الله تعالى قادر على إيجاد جميع المنافع الدينية والدنيوية، وعلى دفع جميع المضار الدينية والدنيوية قُدرةً لا يقدر أحدٌ سواه على دفعها عنه؛ فإذا حصل هذا العلم في القلب تولَّدَ عن هذا العلم حصولُ حالةٍ في القلب: وهي انكسارٌ وتواضعٌ، ويُعبَّر عن تلك الحالة بالتضرع إلى الله تعالى والخضوع له. ثم إنَّ حُصولَ تلك الحالة في القلب يُوجِب حُصولَ صفةٍ أخرى في القلب وصفةٍ في اللسان، أما الصفة الحاصلة في القلب فهي أن يصيرَ العبدُ مُريداً لأنْ يَصُونَه تعالى عن الآفاتِ ويَخُصَّه بإفاضةِ الخيراتِ والحسنات، وأما الصفة التي في اللسان: فهي أن يصيرَ العبدُ طالباً لهذا المعنى بلسانه من الله تعالى، وذلك الطلب هو الاستعاذة، وهو قوله: (أعوذ بالله). إذا عرفتَ ما ذكرنا يظهرُ لك أنَّ الركنَ الأعظمَ في الاستعاذة هو عِلمُه بالله وعِلمُه بنفسِه: وأما علمه بالله فهو أن يعلم كونَه سبحانه وتعالى عالماً بجميع المعلومات؛ فإنه لو لم يكن الأمر كذلك لجاز أن لا يكون الله عالما به ولا بأحواله؛ فعلى هذا التقدير تكون الاستعاذة به عبثاً، ولا بد أن يعلم كونَه قادراً على جميعِ الممكنات؛ وإلا فربما كان عاجزاً عن تحصيلِ مُرادِ العبدِ، ولا بد أن يعلم أيضا كونَه جواداً مُطلقا؛ إذ لو كان البخل عليه جائزا لما كان في الاستعاذة فائدة، ولا بد أيضا وأن يعلم أنه لا يقدرُ أحد سوى الله تعالى على أن يُعِينَه على مَقاصِدِه؛ إذْ لو جاز أن يكونَ غيرُ الله يُعِينُه على مَقاصِدِه لم تكن الرغبةُ قويةً في الاستعاذة بالله؛ وذلك لا يتم إلا بالتوحيدِ المطلقِ، وأعني بالتوحيد المطلق: أن يعلم أن مُدبِّرَ العالَم واحدٌ، وأن يعلم أيضا أنَّ العبدَ غيرُ مُستقِلٍّ بأفعالِ نفسِه؛ إذ لو كان مُستقلا بأفعال نفسه لم يكن في الاستعاذة بالغير فائدة؛ فثبت بما ذكرنا أنَّ العبدَ ما لم يعرفْ عِزةَ الرُّبوبية

وذِلةَ العُبودية لا يصحُّ منه أن يقول: أعوذ بالله من الشيطانِ الرجيمِ... وأما عِلمُ العبدِ بحالِ نفسِه فلا بد وأن يعلمَ عجزَه وقُصورَه عن رعايةِ مصالحِ نفسِه على سبيلِ التمامِ، وأن يعلمَ أيضا أنه بتقديرِ أن يعلمَ تلك المصالحِ بحسبِ الكيفية والكمّية لكنه لا يُمكِنه تحصيلُها عند عدمِها، ولا إبقاؤها عند وجودها. إذا عرفتَ هذا فنقول: إنه إذا حصلت هذه العلوم في قلبِ العبدِ وصار مُشاهِداً لها مُتيقّناً فيها؛ وجبَ أن يحصل في قلبه تلك الحالة المسماة بالانكسارِ والخضوعِ؛ وحينئذ يحصل في قلبه الطلبُ وفي لسانه اللفظُ الدالُّ على ذلك الطلب: وذلك هو قوله: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)" [التفسير الكبير 1/62-63].

[3] قال ابن جزي رحمه الله: "من استعاذ بالله صادقاً أعاذه؛ فعليك بالصدقِ! ألا ترى امرأةَ عمران لَمَّا أعاذت مريمَ وذُرّيتَها عصمَها الله، ففي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (ما من مولودٍ إلا نَخَسَه الشيطانُ فيستهلُّ صارخاً إلا ابن مريم وأمه)" [التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي 1/30].

[4] قال الرازي رحمه الله: "لقائلٍ أن يقولَ: لِمَ لَمْ يقلْ: أعوذُ بالملائكة؟ مع أن أدْوَنَ ملك من الملائكة يكفي في دفعِ الشيطان فما السبب في أن جعل ذكرِ هذا الكلب في مُقابلةِ ذكر الله تعالى؟ وجوابه: كأنه تعالى يقول: عبدي إنه يراك وأنت لا تراه بدليلِ قولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف 27)؛ وإنما نفذَ كَيدُه لأنه يراكم وأنتم لا ترَونه؛ فتمسَّكوا بمن يرى الشيطان ولا يراه الشيطان، وهو الله سبحانه وتعالى؛ فقولوا: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)". [التفسير الكبير للرازي 1/84].

[5] قال ابن جزي رحمه الله: "الشيطان عدوٌّ وحذَّرَ الله منه؛ إذْ لا مطمعَ في زوالِ عِلةِ عداوتِه وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم فيأمره أولا بالكفر، ويُشكّكه في الإيمان؛ فإن قدر عليه وإلا أمره بالمعاصي، فإنْ أطاعه وإلا ثبَّطه عن الطاعة؛ فإنْ سلم من ذلك؛ أفسدها عليه بالرياء والعُجْب" [التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي 1/30].

۞ المبحث الثالث: تفسير البسملة:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ﴾

أولا: الاسم والمسمى:

قال البغوي رحمه الله: "الاسمُ هو المسمَّى وعَيْنُهُ وذاتُه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ﴾ (مريم7)، **أخبرَ أنَّ اسْمَه يحيَى، ثم نادى الاسمَ فقال:** ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ ﴾ (مريم 12)، **وقال:** ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠ ﴾ (يوسف40)، **وأراد الأشخاصَ المعبودة؛ لأنهم كانوا يعبُدون المسمَّيات، وقال:** ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ﴾ (الأعلى1)، و﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن 78)" **[معالم التنزيل للبغوي 50/1].**

ثانيا: علاقة البسملة بالألوهية:

قــال الــسعدي رحمــه الله: "﴿ ٱللَّهِ ﴾: هــو المــألوهُ المعبــود، المستحِقُّ للعبادة لِما اتصفَ به مِن صِفاتِ الألوهية، وهـي صِفاتُ الكمال... واعلم أنَّ من القواعـدِ المتفَق عليها بـين سلَفِ الأمةِ وأئمتِها: الإيمـانُ بأسـماءِ الله وصـفاتِه، وأحكـامِ الصفات؛ فيؤمِنون مثلاً بأنه (رحمن رحيم)، ذو الرحمة التي اتّصف بهـا، المتعلقـة بـالمرحوم؛ فـالنِّعَمُ كلُّهـا أثـرٌ مِـن آثـار رحمتِه، وهكذا في سائر الأسماء. يُقال فـي (العلـيم): إنـه عليمٌ ذو عِلْمٍ يَعلَمُ كلَّ شيء، (قدير) ذو قدرةٍ يَقدِرُ على كلِّ شـيء" [تيسير الكريم الرحمن ص 39].

ثالثا: الرحمنُ صفةُ ذاتٍ والرحيمُ صفةُ فعلٍ:

قال ابن القيم رحمه الله: "وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى... وهو أنَّ الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دالٌّ على تعلُّقِها بالمرحوم؛ فكان الأول للوَصف، والثاني للفعل؛ فالأول دالٌّ أنَّ الرحمةَ صِفتَه والثاني دالٌّ على أنه يرحَم خَلقَه برحمتِه. وإذا أردتَ فهمَ هذا فتأمَّلْ قولَه: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الأحزاب43)0﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (التوبة117). ولم يجيء قط رحمن بهم؛ فعلم أنَّ الرحمن هو الموصُوفُ بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته؛ وهذه نُكتةٌ لا تكاد تجدُها في كتاب" [بدائع الفوائد28/1].

رابعا: الرحمة عامة وخاصة:

[1] قال الـسعدي رحمـه الله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ "اسـمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسِعَتْ كـلَّ شـيءٍ، وعَمَّـتْ كـلَّ حـيٍّ، وكتبَهـا للمتقـينَ المتبعـين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمة المطلَقة، ومـن عـداهم فلهم نصيبٌ منها" [تيسير الكريم الرحمن ص 39].

[2] قال سيد قطب رحمه الله: "مِنْ رَحمةِ الله أنْ تُحِسَّ بِرَحمةِ الله؛ فرحمةُ اللهِ تَضُمُّك وتَغمُرُك وتَفيضُ عَلَيْك؛ ولَكِنْ شعُورُك بِوجودِها هو الرَّحمةُ، ورَجاؤك فيها وتَطلُّعُك إليها هو الرَّحمةُ، وثِقَتُك بها وتوقُّعُها في كلِّ أمْرٍ هو الرَّحمة... ورحمةُ اللهِ لا تَعِزُّ على طالبٍ في أيِّ مكانٍ وفي أيِّ حالٍ؛ وَجدَها إبراهيمُ عليه السلامُ في النار، ووَجدَها يوسفُ عليه السلامُ في الْجُبِّ كما وَجدَها في السِّجن. ووجَدَها يونسُ عليه السلام في بطنِ الْحُوتِ في ظُلُماتٍ ثلاثٍ. ووَجدَها موسى عليه السلام في اليَمِّ وهو طِفلٌ مُجَرَّدٌ مِنْ كلِّ قُوةٍ ومِن كلِّ حِراسةٍ، كما وَجدَها في قَصرِ فرْعونَ وهو عَدُوٌّ له مُتَربِّصٌ به ويَبحثُ عنه. ووَجَدَها أصْحابُ الكهفِ في الكهفِ حين افْتَقَدُوها في القُصُور والدُّور، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ (الكهف 16) ووَجَدَها رسولُ اللهِ ﷺ وصاحبُه في الغار والقومُ يتبعونَهما ويَقُصُّون الآثارَ، ووَجَدَها كلُّ مَنِ آوَى إليها يائساً مِن كلِّ مَنْ سِواها؛ مُنقطِعاً مِن كلِّ شُبْهَةٍ في قُوةٍ ومِن كلِّ مَظِنَّةٍ في رحمةٍ؛ قاصِداً بابَ اللهِ وَحْدَه دُونَ الأبواب" [في ظلال القرآن 22/2923].

خامسا: دلالة الإضمار في البسملة:

قال الرازي رحمه الله: "إنَّ قولَه: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يتعلقُ بفعلٍ لا بُدَّ من إضماره. والتقدير: بإعانةِ اسمِ اللهِ اشْرَعُوا في الطاعات ـ أو ما يجري مجرى هذا المُضْمَر ـ ولا شكَّ أن استماعَ هذه الكلمة يُنبِّه العقلَ على أنه لا حولَ عن معصيةِ اللهِ إلا بعِصْمةِ الله، ولا قوةَ على طاعةِ اللهِ إلا بتوفيقِ الله. ويُنبِّه العقلَ على أنه لا يتمُّ شيءٌ مِن الخيراتِ والبركاتِ إلا إذا وقعَ فيه الابتداءُ بذِكرِ اللهِ. ومِن المعلومِ أنَّ المقصودَ من جميعِ العباداتِ والطاعاتِ حصولُ هذه المعاني في العُقول؛ فإذا كان له هذه الكلمة يُفيدُ هذه الخيرات الرفيعة والبركات العالية؛ دخل هذا القائلُ تحت

قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران110)؛ لأن هذا القائلَ بِسَبَبِ إظهار هذه الكلمةِ أمر بما هو أحسن أنواعِ الأمر بالمعروفِ، وهو الرُّجوعُ إلى الله بالكُلِّيَّةِ والاستعانةِ به في كلِّ الخيرات" [التفسير الكبير للرازي 210/1].

سادسا: استحباب الافتتاح بالبسملة:

[1] قال القرطبي رحمه الله: "نَدَبَ الشرعُ إلى ذِكْرِ البَسملةِ في أولِ كلِّ فعلٍ: كالأكلِ والشُّربِ والنَّحر والجِماعِ والطهارةِ ورُكوبِ البحر إلى غير ذلك من الأفعالِ قال الله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (الأنعام 118) وقال: ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ (هود41)، وقال رسول الله ﷺ: (أغلِقْ بابَك واذكُر اسمَ الله، وأطفِيءْ مِصباحَك واذكُر اسمَ الله، وخَمِّرْ إناءك واذكُر اسمَ الله، وأوْكِ سِقاءك واذكُر اسم الله). وقال: (لو أنَّ أحدَكم إذا أرادَ أن يأتِيَ أهلَه قال: بسم الله؛ اللهم جَنِّبْنا الشيطانَ وجَنِّبْ الشيطانَ ما رزقتَنا؛ فإنه إنْ يُقدَّرْ بينهما ولدٌ في ذلك؛ لم يضرَّهُ شيطانٌ أبداً). وقال لعُمَر بن أبي سلمة: (يا غلامُ سَمِّ الله، وكُلْ بِيَمينِك، وكُلْ مما يليك)، وقال: (إنَّ الشيطانَ ليستحلُّ الطعامَ ألا يُذكَرَ اسمُ الله عليه)، وقال: (مَنْ لم يذبحْ فلْيذبحْ باسم الله)، وشكا إليه عثمان بن أبي العاص وجعاً يجده في جسده منذ أسلم؛ فقال له رسولُ الله ﷺ: (ضعْ يدَك على الذي تألم من جسدِك وقلْ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ ثلاثاً، وقلْ سبعَ مرات: أعُوذُ بعزةِ الله وقُدرتِه مِن شرِّ ما أجِدُ وأحاذِرُ). هذا كلُّه ثابتٌ في الصحيح" [الجامع لأحكام القرآن 97/1-98].

[2] قال ابن كثير رحمه الله: "تُستحَب في أولِ كلِّ عملٍ وقولٍ؛ فتستحب في أول الخطبة لما جاء (كل أمر لا يبدأ فيه بـ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فهو أجذم)، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء لما وردَ من الحديث في ذلك، وتُستحَب

في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن من رواية أبي هريرة وسعيد بن زيد وأبي سعيد مرفوعا (لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه)، وهو حديثٌ حسنٌ. ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ها هنا، ومنهم من قال بوجوبها مطلقا، وكذا تُستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر ومطلقا في قول بعضهم... وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبه عمر بن أبي سلمة: (قل بسم الله وكل بيمينك وكل مما يليك)، ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه. وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (لو أنّ أحدَكم إذا أراد أن يأتي أهلَه قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا؛ فإنه إنْ يُقدَّرْ بينهما ولدٌ لم يَضُرَّه الشيطان أبدا)" [تفسير ابن كثير 19/1].

سابعا: حكمة البدء بالبسملة:

قال سيد قطب رحمه الله: "البدءُ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ هو الأدبُ الذي أوحى الله لنبيِّه في أولِ ما نزل من القرآنِ باتفاقٍ، وهو قولُه تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ ﴾ (العلق1). وهو الذي يتفقُ مع قاعدةِ التصوُّر الإسلامي الكبرى: مِن أنَّ اللهَ ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ ﴾ (الحديد 3)؛ فهو سبحانه الموجودُ الحقُّ الذي يَستَمِدُّ منه كلُّ مَوجودٍ وُجُودَه، ويبدأ منه كل مبدوءٍ بدأه؛ فباسمه إذن يكونُ كلُّ ابتداء، وباسمه إذن تكون كلُّ حركةٍ وكلُّ اتجاه. ووَصفُه سبحانه في البدء بـ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يستغرقُ كلَّ معاني الرَّحمةِ وحالاتها... وإذا كان البدءُ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ وما ينطوي عليه من توحيدٍ للهِ وأدبٍ معه يُمثِّل الكليةَ الأولى في التصوُّر الإسلامي؛ فإنَّ استغراقَ معاني الرَّحمةِ وحالاتها ومجالاتها في صِفَتَيْ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يُمثِّلُ

الكليةَ الثانية في هذا التصوُّر، ويُقرِّرُ حقيقةَ العلاقةِ بين اللهِ والعباد" [في ظلال القرآن21/1].

ثامنا: البسملةُ سببٌ لِحُضور القلب:

قال ابن عبد الوهاب رحمه الله في (تفسيرِ الفاتحة): "أما البسملة فمعناها أدخُلُ في هذا الأمرِ مِن قراءةٍ أو دُعاءٍ أو غير ذلك ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ لا بحولي ولا بقوتي، بل أفعلُ هذا الأمرَ مُستَعِيناً بِالله، ومُتبرِّكاً باسمِهِ تبارك وتعالى، هذا في كل أمرٍ تُسَمِّي في أوَّلِه مِن أمرِ الدِّينِ أو أمرِ الدنيا، فإذا أحْضَرتَ في نفسِكَ أنَّ دُخولَكَ في القراءةِ بالله مُستعيناً بِه، مُتبرِّئاً مِن الحولِ والقوةِ؛ كان هذا أكبرَ الأسبابِ في حُضور القلبِ، وطردِ الموانعِ مِن كلِّ خير".

تاسعا: البسملة من أسباب النجاة:

قال الرازي رحمه الله: "إنَّ نُوحاً عليه السلام لما ركبَ السفينةَ قال: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (هود41)؛ فوَجدَ النجاةَ بنِصفِ هذه الكلمةِ؛ فمَن واظبَ على هذه الكلمةِ طُولَ عُمره كيفَ يَبقَى محروماً مِن النجاة؟! وأيضاً إنَّ سليمان عليه السلام نالَ مملكةَ الدنيا والآخرة بقولِه: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النمل30)؛ فالمرجُوُّ أن العبدَ إذا قاله فاز بمُلكِ الدنيا والآخرة" [التفسير الكبير 175/1].

عاشرا: حُسنُ عاقبةِ مَن عظَّم اسمَ الله:

قال القرطبي رحمه الله: "قال سعيد بن أبي سكينة: بلغني أنَّ رجلاً نظرَ إلى قرطاسٍ فيه ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فقَبَّلَهُ ووَضَعَه على عَينَيه؛ فغفر له. ومن هذا المعنى قصةُ بِشْرِ الحافي؛ فإنه لما رفعَ الرقعة التي فيها اسم الله وطيَّبها طُيِّبَ اسمُه، ذكره القشيري" [الجامع لأحكام القرآن91/1].

۞ المبحث الرابع: تفسير الحمد

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾

أولا: تعريف الحمد:

[1] قال النسفي رحمه الله: "﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ الوَصفُ بالجميلُ على جِهَةِ التفضِيل" [مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي 3/1].

[2] قال الشنقيطي رحمه الله: "الألف واللام في ﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾؛ لاستغراقِ جميع المحامِد. وهو ثناءٌ أثنَى به تعالى على نَفسِه؛ وفي ضِمنِه أمْرٌ عِبادِه أن يُثْنُوا عليه به" [أضواء البيان 5/1].

[3] قال السعدي رحمه الله:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ "هو الثناءُ على الله بصفاتِ الكمال, وبأفعالِه الدائرة بين الفَضل والعَدلِ؛ فله الحمدُ الكامِلُ بجميع الوُجُوه" [تيسير الكريم الرحمن ص 39].

[4] قال الشنقيطي رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لم يذكر لحمده هنا ظرفاً مكانياً ولا زمانياً، وذكر في سورة الروم أنَّ من ظُروفِه المكانية السماواتِ والأرض في قوله: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الروم 18) ، وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية الدنيا والآخرة في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (القصص 70)، وقال في أول سورة سبأ: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (سبأ 1)" [أضواء البيان 5/1].

[5] قال ابن عبد الوهاب رحمه الله في (تفسير الفاتحة): "الألفُ واللامُ في قولِه: ﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ للاستغراق أي جميعُ أنواعِ الحمدِ لله لا لغيره, فأما الذي لا صُنعَ للخلقِ فيه مثل خَلقِ الإنسانِ, وخلقِ السمعِ والبصرِ والسماءِ والأرضِ والأرزاقِ وغير ذلك فواضحٌ, وأما ما يُحمد عليه المخلوقُ مثل ما يُثنَى به على الصالحين والأنبياءِ والمرسَلين, وعلى مَن فَعَلَ معروفاً خُصوصاً إنْ أسْداه إليك, فهذا كلُّه لله أيضاً بمعنى أنه خلقَ ذلك الفاعلَ, وأعطاه ما فعلَ به ذلك, وحبَّبَه إليه وقوَّاه عليه, وغير ذلك من أفضالِ اللهِ الذي لو يختلُّ بعضُها؛ لم يُحمَدْ ذلك المحمودُ؛ فصار ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ كلُّه بهذا الاعتبار".

ثانياً: الحمدُ اعترافٌ برُبُوبِية الله:

قال سيد قطب رحمه الله: "وعقب البدء ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يجيء التوجه إلى الله بـ﴿ ٱلْحَمْد ﴾ ووصفه بالربوبية المطلقة للعالمين: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ هو الشعورُ الذي يَفيضُ به قلبُ المؤمنِ بمجرَّدِ ذِكره لله؛ فإنَّ وُجودَه ابتداءً ليس إلا فَيضاً مِن فُيوضاتِ النِّعمةِ الإلهيةِ التي

تَستَحِيشُ الحمدَ والثناءَ. وفي كل لمحةٍ وفي كلِ لحظةٍ وفي كل خطوةٍ تتوالى آلاءُ اللهِ وتتواكبُ وتتجمّعُ وتغمُرُ خَلائقَهُ كلَّها، وبخاصةٍ هذا الإنسان؛ ومِن ثَمَّ كان ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ابتداء، وكان ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ خِتاماً قاعِدةً مِن قواعِدِ التصوُّر الإسلامي المباشِر: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (القصص 70)" [في ظلال القرآن 22/1].

ثالثاً: الرُّبوبية وصفاء العقيدة:

[1] قال سيد قطب رحمه الله: "الرُّبوبيةُ المُطلَقة هي مَفرقُ الطريقِ بين وُضوحِ التوحيدِ الكامِلِ الشامِلِ، والغَبَش الذي يَنشأ مِن عدمِ وُضوحِ هذه الحقيقةِ بصورتِها القاطعة. وكثيراً ما كان الناسُ يجمعون بين الاعترافِ بالله بِوَصْفِهِ المُوجِدِ الواحِدِ للكونِ، والاعتقادِ بتعدُّدِ الأربابِ الذين يَتحكَّمون في الحياة! ولقد يَبْدُو هذا غريباً مُضْحِكاً، ولكنه كان وما يزال. ولقد حَكَى لنا القرآنُ الكريمُ عن جماعةٍ من المشركين كانوا يقولُون عن أربابِهم المتفرِّقة: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر 3)، كما قال عن جماعةٍ من أهلِ الكتاب:﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة31). وكانت عقائدُ الجاهلياتِ السائدةِ في الأرضِ كلِّها يومَ جاءَ الإسلامُ تَعجُّ بالأربابِ المختلفة؛ بوصفِها أرباباً صِغاراً تقومُ إلى جانبِ كبيرِ الآلهةِ كما يزعُمون! فإطلاقُ الرُّبُوبيةِ في هذهِ السورةِ وشمولُ هذه الربوبيةِ للعالمين جميعاً: هي مَفرقُ الطريقِ بين النظامِ والفَوْضَى في العقيدة؛ لتتَّجِهَ العوالِمُ كلُّها إلى ربٍّ واحدٍ تُقِرُّ له بالسيادةِ المُطلَقة... ثم ليطمئن ضميرُ هذه العوالمِ إلى رعايةِ اللهِ الدائمةِ ورُبُوبيَّتِه القائمة، وإلى أنَّ هذه الرِّعايةَ لا تنقطِعُ أبداً ولا تفترُ ولا تَغيب" [في ظلال القرآن1/22-23].

رابعا: الحمدُ سعادة:

[1] قال السعدي رحمه الله: "الرَّب: هو المُربِّي جميعَ العالمين، وهم مَن سِوى اللهِ بِخَلْقِه لهم, وإعدادِه لهم الآلاتِ, وإنعامِهِ عليهم بالنِّعَمِ العظيمة, التي لو فَقَدُوها لم يُمْكِن لهم البقاء, فما بهم مِن نعمةٍ فمنه تعالى" [تيسير الكريم الرحمن ص 39].

[2] قال سيد قطب رحمه الله: "التوجُّهُ إلى اللهِ بالحمدِ يُمثِّلُ شعورَ المؤمنِ الذي يَستَجِيشُهُ مُجرَّدُ ذِكره للهِ كما أسلفنا، أما شطرُ الآيةِ الأخير: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ (الفاتحة2)

فهو يُمثِّل قاعدةَ التصوُّر الإسلامي؛ فالرُّبوبيةُ المطلقةُ الشاملةُ هي إحدَى كُلِّياتِ العقيدةِ الإسلاميَّة. والرَّبُّ هو المالكُ المتصرِّفُ، ويُطلَقُ في اللُّغةِ على السيِّدِ وعلى المتصرِّفِ للإصلاحِ والتربيةِ والتصرُّف للإصلاحِ والتربيةِ يشملُ ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي جميع الخلائق. والله سُبحانَه لم يخلُقْ الكونَ ثم يتركُه هملاً؛ إنما هو يَتصرَّفُ فيه بالإصلاحِ ويرعاهُ ويُربِّيهِ. وكلُّ العوالِمِ والخلائق تُحفَظُ وتُتعهَّد برعايةِ الله ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. والصِّلةُ بين الخالِقِ والخلائق دائمةٌ مُمْتَدةٌ قائمةٌ في كلِّ وَقتٍ وفي كلِّ حالة" [في ظلال القرآن 22/1].

خامسا: الجمع بين الألوهية والربوبية والملك:

قال ابن عبد الوهاب رحمه الله في (تفسير الفاتحة): "أما الربُّ فمعناه المالك المتصرف, وأما ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهو اسم لكل ما سوى الله تبارك وتعالى؛ فكلٍ ما سواه من ملك ونبي وإنسي وجني وغير ذلك مربوبٌ مقهورٌ يتصرف فيه, فقير محتاج كلهم صامدون إلى واحد لا شريك له في الدين, وهو الغني الصمد, وذكر بعد ذلك ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وفي قراءة أخرى ﴿ مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فذكر في أول هذه السورة التي هي أول المصحف الألوهية والربوبية

والملك, كما ذكره في آخر سورة من المصحف ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾ (الناس1-3). فهذه ثلاثة أوصاف لربنا تبارك وتعالى ذكرها مجموعةً في موضعٍ واحد في أول القرآن, ثم ذكرها مجموعةً في موضعٍ واحدٍ في آخر ما يطرق سمعَك من القرآن؛ فينبغي لمن نَصحَ نفسَه أن يَعتنِيَ بهذا الموضوع, ويَبذُلَ جُهدَه في البحثِ عنه, ويعلم أنَّ العليمَ الخبيرَ لم يَجمَعْ بينَهما في أولِ القرآن ثم في آخره إلا لما يعلم من شِدَّةِ حاجةِ العِبادِ إلى مَعرفتِها, ومَعرفةِ الفَرْقِ بين هذه الصفاتِ؛ فكلُّ صفةٍ لها مَعنًى غير مَعْنَى الأُخْرَى, كما يقال: محمد رسول الله, وخاتم النبيين, وسيد ولد آدم. فكلُّ وَصفٍ له معنى غير ذلك الوصفِ الآخر".

سادسا: الرُّبوبِيةُ رحمةٌ للعالمين:

[1] قال سيد قطب رحمه الله: "لقد جاء الإسلامُ وفي العالمِ رُكامٌ مِن العقائدِ والتصوُّراتِ والأساطير والفلسفاتِ والأوهامِ والأفكار؛ يختلطُ فيها الحقُّ بالباطلِ والصَّحِيحُ بالزائفِ، والدِّينُ بالخرافة... والضميرُ الإنسانيُّ تحتَ هذا الرُّكامِ الهائلِ يَتخبَّطُ في ظُلماتٍ وظُنونٍ، ولا يَستقرُّ منها على يقين. وكان التِّيهُ الذي لا قرارَ فيه ولا يقينَ ولا نُورَ هو ذلك الذي يُحيطُ بتصوُّرِ البشريةِ لإلهها وصِفاتِه وعلاقتِه بخلائقِه، ونوعِ الصلةِ بين اللهِ والإنسانِ على وجهِ الخصوص. ولم يكنْ مُستطاعاً أن يستقرَّ الضميرُ البشري على قرار في أمر هذا الكونِ، وفي أمر نفسِه وفي منهجِ حياتِه، قبل أن يَستقرَّ على قرارٍ في أمر عقيدتِه وتصوُّره لإلهه وصِفاته، وقبلَ أن ينتهِيَ إلى يقينٍ واضحٍ مُستقيمٍ في وَسطِ هذا العَماءِ وهذا التِّيهِ وهذا الرُّكام الثقيل" [في ظلال القرآن 23/1].

[2] قال البغوي رحمه الله: "﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: جمع عالم، لا واحد له في لفظه. واختلفوا في العالمين. قال ابن عباس: هم

الجن والإنس لأنهم المكلفون بالخطاب قال الله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان 1)، وقال قتادة ومجاهد والحسن: هم جميع المخلوقات. قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ (الشعراء23-24). واشتقاقُه من العلم والعلامة؛ سموا به لظهور أثر الصنعة فيهم" [معالم التنزيل للبغوي 52/1].

[3] قال الشنقيطي رحمه الله: "قال بعضُ العلماء: اشتقاقُ العالمِ من العَلامةِ؛ لأنَّ وُجودَ العالم علامةٌ لا شكَّ فيها على وُجودِ خالِقِه مُتصفًا بصفاتِ الكمالِ والجلالِ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ﴾ (آل عمران 190)، والآية في اللغة: العلامة" [أضواء البيان 5/1]. قلتُ: تأمَّلْ استشهادَ الشيخِ رَحِمَهُ اللهُ على اشتقاقِ (العالَمِ) من (العَلامةِ) بآيةِ آلِ عمران التي ليس فيها التصريحُ بذكر (العالم)؛ وإنما فيها ذِكرُ ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي (العالَمين) المُصرَّح بها في آيةِ الشعراء: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ ﴾ (الشعراء 23-24). وآيةُ آلِ عمرانَ فيها ذِكْرُ الآيةِ وهيَ العلامة؛ فما أشبَهَ هذا الاستدلالَ الإشاري بروائعِ البخاري، وهو لَعَمْري آيةٌ على أنه رَحِمَهُ اللهُ من أُولي الألباب!

سابعا: فضائل الحمد:

[1] قال سيد قطب رحمه الله: "ومع هذا يبلغُ مِن فَضل اللهِ سبحانه وفَيضِه على عَبدِه المؤمن، أنه إذا قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ كتبَها له حسنةً ترجحُ كلَّ الموازين. في سُنن ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ حَدَّثهم أنَّ عبداً من عبادِ الله قال: (يا رب لك الحمد كما ينبغي

لجلال وجهك وعظيم سلطانك)؛ فعضلت الملكين فلم يدريا كيف يكتبانها. فصعدا إلى الله فقالا: يا ربَّنا إنَّ عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها. قال الله وهو أعلم بما قال عبده: وما الذي قال عبدي؟ قالا: يا رب، إنه قال: (لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك). فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها" [في ظلال القرآن 22/1].

[2] قال ابن عاشور رحمه الله: "إنَّ الذي لقنَ أهلَ القرآنِ ما فيه جماعُ طرائقِ الرُّشدِ بوجهٍ لا يُحيطُ به غيرُ علامِ الغُيوب؛ لم يُهمِلْ إرشادَهم إلى التحلِّي بزينةِ الفضائلِ وهي أن يقدِروا النِّعمةَ حقَّ قدرِها بشُكرِ المنعِمِ بها؛ فأراهم كيف يتوجَّهون مُناجاتِهم بحمدِ واهبِ العقلِ ومانِحِ التوفيقِ؛ ولذلك كان افتتاحُ كلِّ كلامٍ مُهِمٍّ بالتحميدِ سنةَ الكتابِ المجيدِ. فسورة الفاتحة - بما تقرَّر - مُنزَّلةٌ مِن القرآنِ مَنزلةَ الدِّيباجةِ للكتابِ أو المقدمةِ للخُطبة، وهذا الأسلوبُ له شأنٌ عظيمٌ في صناعةِ الأدبِ العربي؛ وهو أعْوَنُ للفهمِ وأدْعَى للوعي. وقد رسمَ أسلوبُ الفاتحةِ للمُنشِئين ثلاثَ قواعدَ للمُقدِّمة: القاعدة الأولى: إيجازُ المقدمة؛ لئلا تَمَلَّ نُفوسُ السامِعِين بطُولِ انتظارِ المقصود... ومن هذا يَظهرُ وجهُ وَضعِها قَبْلَ السُّوَرِ الطِّوالِ مع أنها سورةٌ قصيرةٌ. الثانية: أنْ تُشيرَ إلى الغرضِ المقصودِ وهو ما يُسمَّى (براعة الاستهلال)؛ لأنَّ ذلك يُهيِّئُ السامِعِين لسماعِ تفصيلِ ما سَيَردُ عليهم فيتأهَّبُوا لِتَلَقِّيه... الثالثة: أنْ تكونَ المقدمةُ مِن جوامعِ الكَلِم. وقد بَيَّنَ ذلك عُلَماءُ البيانِ عند ذِكْرِهم المواضعَ التي ينبغي للمُتكلِّمِ أن يَتَأنَّقَ فيها" [التحرير والتنوير 152/1-153].

[3] قال سيد قطب رحمه الله: "كانت عِنايةُ الإسلامِ الأولى مُوجَّهةً إلى تحريرِ أمر العقيدة، وتحديدِ التصوُّرِ الذي يستقرُّ عليه الضميرُ في أمرِ اللهِ وصِفاتِه، وعلاقتِه بالخلائقِ، وعلاقةِ الخلائقِ به على وجهِ القطعِ واليقين؛ ومِن ثَمَّ كان التوحيدُ الكاملُ الخالصُ المُجرَّدُ الشامل، الذي

لا تَشوبُه شائبةٌ مِن قريبٍ ولا مِن بعيدٍ هو قاعدة التصوُّرِ التي جاء بها الإسلامِ، وظَلَّ يَجلُوها في الضَّمير، ويتتبعُ فيه كلَّ هاجِسةٍ وكلَّ شائبةٍ حولَ حقيقةِ التوحيدِ؛ حتى يُخلِّصَها مِن كلِّ غبشٍ. ويَدَعَها مَكِينَةً راكِزةً لا يَتطرَّقُ إليها وَهْمٌ في صُورةٍ مِن الصُّورِ... والذي يراجع الجهدَ المتطاول الذي بذلَه الإسلامُ لتقرير كلمةِ الفصلِ في ذاتِ اللهِ وصِفاتِه وعَلاقتِه بمخلوقاتِه، هذا الجهد الذي تُمثِّلُه النصوصُ القرآنية الكثيرة، الذي يراجعُ هذا الجهدَ المتطاول دون أن يُراجعَ ذلك الرُّكامَ الثقيلَ في ذلك التِّيهِ الشامِلِ الذي كانت البشريةُ كلُّها تَهيمُ فيه؛ قد لا يُدْرِك مدى الحاجةِ إلى كلِّ هذا البيانِ المؤكَّدِ المُكرَّر، وإلى كلِّ هذا التدقيقِ الذي يتتبعُ كلَّ مَسالكِ الضَّمِير. ولكن مراجعة ذلك الرُّكام تكشِفُ عن ضرورةِ ذلك الجهدِ المتطاول، كما تكشفُ عن مدى عَظمةِ الدَّور الذي قامت به هذه العقيدةُ وتقومُ في تحرير الضمير البشري وإعتاقِه وإطْلاقِه مِن عناءِ التخبُّطِ بين شتَّى الأربابِ وشتَّى الأوْهامِ والأساطِير! وإنَّ جَمالَ هذه العقيدةِ وكمالَها وتناسُقَها وبساطةَ الحقيقةِ الكبيرةِ التي تُمثِّلُها. كلُّ هذا لا يَتجلَّى للقلبِ والعقلِ كما يَتجلَّى مِن مُراجعةِ ركامِ الجاهليةِ مِن العقائدِ والتصوُّراتِ والأساطيرِ والفلسفاتِ! وبخاصة موضوع الحقيقة الإلهية وعلاقتها بالعالم. عندئذ تبدو العقيدةُ الإسلامية رحمةً، رحمةً حقيقيةً للقلبِ والعقلِ، رحمة بما فيها مِن جَمالٍ وبساطةٍ ووضوحٍ وتناسُقٍ وقُرْبٍ وأُنْسٍ وتَجاوُبٍ مع الفِطرةِ مُباشِرٍ عميقٍ" [في ظلال القرآن 1/23-24].

[4] قال ابن عاشور رحمه الله: "لَمَّا لُقِّنَ المؤمنون هاته المناجاةَ البديعة التي لا يهتدي إلى الإحاطةِ بها في كلامِه غيرُ عَلاَّمِ الغُيوبِ سبحانه قُدِّمَ ﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ عليها؛ لِيضعَه المناجُون كذلك في مُناجاتِهم جرياً على طريقةِ بُلَغاءِ العربِ عند مُخاطبةِ العظماءِ أنْ يَفْتَتِحُوا خِطابَهم إياهم وطِلْبَتَهم بالثناءِ والذِّكر الجميل. قال أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جُدعان:

أأذكُرُ حاجتي أم قدْ كفاني
حَياؤك إنَّ شيِمَتَك الحياءُ
إذا أثْنَى عليكَ المرءُ يوماً
كفاه عن تعرُّضِهِ الثناءُ!

فكان افتتاحُ الكلامِ بالتَّحميدِ سُنَّةَ الكتابِ المجيدِ لِكلِّ بَليغٍ مُجيدٍ؛ فلم يزل المسلمون مِن يومِئذ يُلقِّبون كلَّ كلامٍ نَفِيسٍ لم يَشتمِلْ في طالعِه على الحمدِ بالأبتر" [التحرير والتنوير 154/1].

ثامنا: الحمد والشكر:

[1] قال ابن جزي رحمه الله: "﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ أعمُّ من الشكر؛ لأن الشكر لا يكون إلا جزاءً على نعمه، و﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ يكون جزاءً كالشكر ويكون ثناء ابتداءً. كما أن الشكرَ قد يكون أعمُّ من الحمد؛ لأن الحمد باللسان والشكر باللسان والقلب والجوارح؛ فإذا فهمتَ عُمومَ الحمد علمت أن قولك ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ يقتضي الثناء عليه لما هو من الجلال والعظمة والواحدانية والعزة والإفضال والعلم والمقدرة والحكمة وغير ذلك من الصفات. ويتضمن معاني أسمائه الحسنى التسعة والتسعين، ويقتضي شُكرَه والثناءَ عليه بكلِّ نعمةٍ أعطى ورحمةٍ أولَى جميعَ خلقِه في الآخرة والأولى؛ فيا لَها مِن كلمةٍ جَمعت ما تضيقُ عنه المجلَّدات... ويكفيك أن الله جعلها أولَ كتابِه وآخرَ دعوى أهل الجنة!" [التسهيل لعلوم التنزيل 32/1].

[2] قال البغوي رحمه الله: "الحمدُ يكون بمعنى الشكر على النِّعمة، ويكون بمعنى الثناءِ عليه بما فيه من الخصال الحميدة. يقال: حمدتُ فلاناً على ما أسْدَى إلي من النِّعمةِ وحَمَدْتُه على عِلمِه وشَجاعتِه، والشُّكرُ لا يكونُ إلا على النعمة؛ فالحمدُ أعمُّ من الشُّكر إذ لا يقال: شكرتُ فلاناً

على عِلمِه؛ فكلُّ حامِدٍ شاكرٌ وليس كل شاكِرٍ حامِداً. وقيل: الحمدُ باللسان قولاً، والشكرُ بالأرْكان فعلاً؛ قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ (الإسراء 111)، وقال:﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ (سبأ 13)" [معالم التنزيل للبغوي 52/1]. قلتُ: وكذلك قال النسفي والراغب في (مفرداته)، وابنُ الجوزي في (زاد المسير). وهو كلامُ المحققين من أهلِ اللغة، كما قرره العلامة ابنُ فارس [في معجم مقاييس اللغة 100/2] بقولِه: (الحمد) "خلاف الذَّم"، و(الشكر): "الثناء على الإنسانِ بمعروفٍ يُوليكَه" [207/3]. وشواهدُ مجيءِ الشكر في مقابلةِ المعروفِ كثيرةٌ، منها: قولُهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ (إبراهيم 7). وقولُ سليمانﷺ: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (النمل 40). وأما شاهِدُ مجيءِ الحمدِ على معنى الجزاء، فقولُه تعالى: ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ (آل عمران 188).

تاسعا: تربية الله خلقه:

[1] قال السعدي رحمه الله: "تربيتُه تعالى لِخَلقِه نوعان: عامةٌ وخاصةٌ. فالعامة: هي خَلقُه للمخلوقين, ورزقُهم, وهِدايتُهم لما فيه مَصالِحُهم, التي فيها بقاؤهم في الدنيا. والخاصة: تربيتُه لأوليائه, فيربِّيهم بالإيمانِ, ويُوفِّقُهم له, ويُكمِّلُه لهم, ويدفعُ عنهم الصوارفَ والعوائقَ الحائلةَ بينهم وبينَه. وحقيقتُها: تربيةُ التوفيقِ لكلِّ خير, والعصمةِ من كلِّ شرٍّ؛ ولعلَّ هذا المعنَى هو السرُّ في كَوْنِ أكثرِ أدعيةِ الأنبياءِ بلفظِ الربِّ؛ فإنَّ مَطالِبَهم كلَّها داخِلةٌ تحت رُبوبِيَّتِه الخاصَّة. فدلَّ قولُه: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على انفرادِه بالخلق والملكِ والتدبيرِ والنِّعَمِ, وكمالِ غِناه, وتمامِ فقرِ العالمين إليه بكلِّ وَجهٍ واعْتِبارٍ" [تيسير الكريم الرحمن ص 39]. قلتُ: فالْمُوفَّقُ من وَفَّقَه اللهُ لِطَلَبِ التوفيق؛ فـ"إنَّ موسى

عليه السلامِ ذهبَ يحتطِبُ النارَ؛ فعادَ كَلِيمَ الواحِدِ القهّارِ!" كما قال ابنُ القيمِ، ومَن الذي يَأمنُ مَكْرَ اللهِ واللهُ يَحُولُ بين المرءِ وقلبِـهِ؟! ومَـن يـأمنُ أنْ يكـونَ مِمَّـن قـال فيـه ربُّ العــالمين: ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (التوبة 46).

[2] قال الرازي رحمه الله: "اعلمْ أنَّ تربيتَـه تعـالى لخلقِـه مُخالِفةٌ لتربيةِ غيرِه، وبيانُه مِن وُجوهٍ: الأول: ما ذكرنـاه أنـه تعالى يُربّي عبيـدَه لا لغـرضِ نفسِـه؛ بـل لغرضِـهِم، وغيـرُه يربُّون لغرضِ أنفسِهِم؛ لا لغرضِ غيـرِهِم. الثـاني: أنَّ غيـرَه إذا ربَّى؛ فبقدرِ تلك التربيةِ يظهرُ النقصانُ في خزائنِه وفي مالِه، وهو تعالى مُتعالٍ عن النقصانِ والضَّرر، كما تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحجر 21). الثالث: أنَّ غيرَه من المحسنين إذا ألَحَّ الفقيرُ عليه؛ أبغضَه وحرَمَـه ومنَعَه، والحقُّ تعالى بخـلافِ ذلـك، كمـا قـال عليـه الـصلاة والسلام: (إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُ الْمُلِحِّين في الدعاءِ). الرابـع: أنَّ غيرَه من الْمُحسِنين ما لم يُطلَبْ منه الإحْسانُ لم يُعطِ؛ أما الحقُّ تعالى فإنه يُعطي قبلَ السؤالِ؛ ألا ترى أنَّه ربَّـاكَ حالَ ما كنتَ جَنيناً في رَحِمِ الأمِّ، وحالَ ما كنـتَ جـاهِلاً غيـر عاقلٍ، لا تُحْسِنُ أن تسألَ منه، ووقاك وأحسنَ إليك مع أنكَ ما سألتَه! وما كان لك عقـلٌ ولا هدايـةٌ. الخـامس: أنَّ غيـرَه مِن الْمُحسِنين ينقطعُ إحسانُه؛ إما: بِسَبَبِ الفقـر أو الغَيبـةِ أو الموتِ؛ والحقُّ تعالى لا يَنقطعُ إحـسانُه البتـة. سادسـاً: أنَّ غيرَه مِن المحسنين يختصُّ إحسانُه بقومٍ دون قـومٍ، ولا يُمكِنُه التعميمُ؛ أما الحقُّ تعالى فقد وَصَلَ تَربيتَه وإحـسانَه إلى الكُلِّ، كما قال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ (الأعـراف 156)؛ فثبـت أنه تعالى ربُّ العـالمين، ومُحْـسِنٌ إلـى الخلائـقِ أجمعين؛ فلهذا قال تعالى في حـقِّ نفـسِه: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (الفاتحة 2)" [التفسير الكبير 1/234-235].

عاشرا: وُجُوهُ المحامد:

[1] قال الرازي رحمه الله: "الذي يُحمَدُ ويُمدَح في الدنيا؛ إنما يكون كذلك لِوُجوهٍ أربعةٍ: إما لكونِه كامِلاً في ذاتِه وفي صِفاتِه مُنَزَّهاً عن جميع النقائصِ والآفات، وإن لم يكنْ منه إحسانٌ إليك، وإما لكونِه مُحْسِناً إليك ومُنعِماً عليك، وإما لأنك تَرْجُو وُصُولَ إحْسانِه إليك في المستقبَل مِن الزمان، وإما لأجلِ أنك تكونُ خائفاً مِن قهره وقُدرتِه وكمالِ سطوتِه؛ فهذه الحالاتُ هي الجِهاتُ الموجبةُ للتعظيم؛ فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إنْ كنتم ممن تُعظِّمون الكمالَ الذاتيَّ؛ فاحمدوني فأني إلهُ العالمين، وهو المرادُ من قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وإنْ كُنتم ممن تُعظِّمون الإحسانَ؛ فإني ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة 2)، وإنْ كنتُم تُعظِّمون للطمع في المستقبل؛ فأنا ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة3)، وإن كنتم تُعظِّمون للخوفِ؛ فأنا ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ (الفاتحة4)" [التفسير الكبير 235/1].

[2] من لطيفِ الحمد قولُ القحطاني رحمه الله:

أنتَ الذي صوَّرتَني وخلقتَني
وهديتَني لشرائعِ الإيمانِ!

أنتَ الذي علَّمْتَني ورحمتَني
وجعلتَ صدري واعيَ القرآنِ!

أنتَ الذي أطعمتَني وسقيتَني
من غير كسبِ يدٍ ولا دكانِ!

وجبرتَني وسترتَني ونصرتَني
وغمرتَني بالفضلِ والإحسانِ!

أنت الذي آويتَني وحبوتَني
وهديتَني مِن حيرةِ الخذلانِ!

فلك المحامدُ والمدائحُ كلُّها
بِخَواطِري وجَوارِحِي ولِساني!

ولقد مَنَنْتَ عليَّ ربِّ بأنعمٍ
ما لي بشكرِ أقلِّهنَّ يدانِ"!

[نونية القحطاني ص 12-14].

المبحث الخامس: الرحمة

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾

أولا: حكمة تكرار الرحمة في الفاتحة:

قال سيد قطب رحمه الله: "﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾ هذه الصفة التي تستغرقُ كلَّ معاني الرحمةِ وحالاتِها ومَجالاتِها تتكررُ هنا في صُلْبِ السورةِ في آيةٍ مستقلةٍ؛ لتؤكِّدَ السِّمةَ البارزةَ في تلك الرُّبوبيةِ الشامِلةِ؛ ولِتُثْبتَ قوائمَ الصِّلةِ الدائمةِ بين الرَّبِّ ومربوبِيه، وبين الخالِقِ ومَخلوقاتِه. إنها صلةُ الرحمةِ والرِّعايةِ؛ التي تَستجِيشُ الحمدَ والثناءَ. إنها الصِّلةُ التي تقومُ على الطمأنينةِ وتنبضُ بالمودةِ؛ فالحمدُ هو الاستجابةُ الفِطريةُ للرَّحمةِ النَّديةِ. إنَّ الربَّ الإلهَ في الإسلامِ لا يُطاردُ عِبادَه مُطارَدةَ الخصومِ والأعداءِ كآلهةِ الأولمبِ في نَزَواتِها وثَوْراتِها كما تُصوِّرُها أساطِيرُ الإغريقِ. ولا يُدبِّرُ لهم المكايدَ الانتقاميَّة كما تزعمُ الأساطِيرُ المزوَّرة في "العهدِ القديم" كالذي جاء في أسطورةِ (بُرج بابل) في الإصحاح الحادي عشر من سفرِ التكوين" [في ظلال القرآن 24/1]. قلتُ: وَقَعَ لفظُ (المكايد) في طبعة (الظلال) هاهنا بالهمزة (المكائد) بدل الياء، وهو خطأٌ شائعٌ؛ لأنَّ الياء في (مكايد) أصليةٌ مثل الياء في (مشايخ). ورَحِمَ اللهُ الشيخَ عبد الفتاح أبو غدة فقد قال: "من اللطائفِ ما قلتُه لبعضِ العلماءِ في الهند حين زرتُها: إذا قيل لي: لماذا جئتَ إلى الهندِ؟ فالجواب: جئتُ لأقولَ: لا تهمزوا (المشايخ)؛ فإنَّ (همزَ) المشايخِ لا يجوزُ!" [الرفع

والتكميل في الجرح والتعديل للكنوي تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ص48].

ثانيا: الفرق بين الرحمن والرحيم:

قال الشنقيطي رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾ هُما وصْفان للَّهِ تعالى، واسْمان من أسْمائه الحسنَى، مُشتَقان مِن الرحْمةِ على وجهِ الْمُبالغة، و﴿ ٱلرَّحۡمَٰن ﴾ أشدُّ مُبالغةً من ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾؛ لأنَّ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰن ﴾ هو ذو الرحمةِ الشامِلة لجميعِ الخلائقِ في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، و﴿ ٱلرَّحِيم ﴾ ذو الرحمةِ للمؤمنين يومَ القيامة. وعلى هذا أكثرُ العلماء. وفي كلامِ ابنِ جرير ما يُفهَمُ منه حكايةُ الاتفاقِ على هذا. وفي تفسيرِ بعضِ السلف ما يدل عليه، كما قاله ابن كثير، ويدلُّ له الأثرُ المروي عن عيسى كما ذكره ابن كثير وغيره أنه قال عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: الرّحْمن رحمن الدنيا والآخرة والرَّحِيم رحيم الآخرة. وقد أشار تعالى إلى هذا الذي ذكرنا حيث قال: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ (الفرقان 59)، وقال: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ (طه 5)؛ فذكرَ الاستواءَ باسمه الرحمن لِيَعُمَّ جميعَ خَلقِه برحمتِه، قاله ابن كثير. ومِثلُه قولُه تعالى:﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ (الملك19) أي: ومِن رَحْمانِيَّتِهِ: لُطفُهُ بالطَّيْر، وإمْساكُه إياها صافاتٍ وقابضاتٍ في جَوِّ السماء. ومِن أظهر الأدلةِ في ذلك قولُه تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن 1-13)، وقال: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب 43)؛ فخَصَّهم باسْمِه ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾" [أضواء البيان 1/5-6].

ثالثا: حُسنُ الظنِّ بالله واسِعِ الرحمة:

من اللطائفِ هنا أنَّ الاستِفتاحَ باسْمَيْن مُشتقَّيْن مِن الرحمةِ (بسمِ الله الرحمن الرحيم) وتكرارهما في فاتحةِ الكتابِ دَعوةٌ إلى حُسْنِ الظنِّ بالله، وبَيانٌ لِسَعةِ رحمتِه وأنها تغلِبُ غَضبَه، وحَضٌّ على التوبةِ إلى الرحمنِ الرحيم الذي (يَقبلُ التوبةَ من عبادِه)، فهو (غافر الذنب وقابل التوب) (واسِعُ المغفرة). وقد روى مسلم رحمه الله في كتابِ التوبة، باب (في سَعَةِ رَحْمَةِ الله تعالى، وأنها سَبقَتْ غَضَبَه) عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (لَمَّا خَلقَ الله الخَلْق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي) [صحيح مسلم، حديث 2751]. وفي روايةٍ: (قال الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي)، وفي روايةٍ: (لما قضى الله الخلق، كتب في كتابِه على نفسِه، فهو موضُوعٌ عندَه: إن رَحمتِي تغلب غَضبِي). وفي روايةٍ: (إنَّ لله مائةَ رحمة. أنزل منها رحمةً واحِدةً بين الجن والإنس والبهائم والهوام؛ فبها يتعاطفُون، وبها يتراحَمُون، وبها تعطِفُ الوَحشُ على ولدها. وأخَّرَ الله تسعا وتسعين رَحْمةً يَرحَمُ بها عباده يومَ القيامة) [صحيح مسلم، حديث 2752]. وفي روايةِ سلمان الفارسي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنَّ لله مائةَ رحمة؛ فمنها رَحْمةٌ بها يتراحَمُ الخلقُ بينَهم، وتسعةٌ وتسعُون لِيَومِ القيامة) [صحيح مسلم، حديث 2753].

المبحث السادس: الملك

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾

المبحث السادس: الملك
أولا: عظمة هذه الآية:
ثانيا: المراد بالدِّين في هذه الآية:
ثالثا: الجمع بين ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ و﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾
رابعا: معنى ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾
خامسا: دلالة تخصيص يوم الدين بالملك:
سادسا: حكمة تقديم ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ على ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾
سابعا: مُناسَبة تقديم العذابِ على الرحمةِ:
ثامنا: تقرير ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ الإيمانَ باليومِ الآخر.
تاسعا: مُناسَبة صفاتِ الربِّ والرحمنِ والمالكِ للحمد:
عاشرا: ثمار عقيدة الإيمان بـ﴿ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

أولا: عظمة هذه الآية:

قال ابن عبد الوهاب رحمه الله في (تفسير الفاتحة): "قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وفي القراءة الأخرى ﴿ مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فمعناه عند جميع المفسِّرين كلهم ما فسَّره الله به في قوله: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩ ﴾ (الانفطار 17-19). فمَن عرَفَ تفسيرَ هذه الآية، وعَرَفَ تخصيصَ الملكِ بذلك اليوم، مع أنه سبحانه مالكُ كلِّ شيءٍ: ذلك اليوم وغيره، عرفَ أنَّ التخصِيصَ لهذه المسألة الكبيرة العظيمة التي بسبب مَعرفتِها دَخلَ الجنةَ مَن دَخلَها، وبسببِ الجهلِ بها دَخلَ النارَ مَن دَخلَها؛ فيالَها مِن مسألةٍ لو رَحَلَ الرجلُ فيها أكثر مِن عشرين سنةً لم يُوفِّها حقَّها". قلتُ: هذا من باب

تعظيمِ العلمِ والترغيبِ فيهِ والحثِّ على تحصيلِه كما قال عامر الشعبي﵀ بعد أن حدَّث مَن سألَه عمَّنْ يُعتق أمتَه ثم يتزوجُها بحديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: (ثلاثةٌ لهم أجرانِ: رجلٌ مِن أهلِ الكتابِ آمنَ بنبيِّه وآمنَ بمحمدٍ ﷺ، والعبدُ المملوكُ إذا أدَّى حقَّ اللهِ وحقَّ مواليه، ورجلٌ كانت عنده أمةٌ فأدَّبَها؛ فأحسنَ تأديبَها، وعلَّمَها فأحسنَ تعليمَها، ثم أعتقَها فتزوَّجَها؛ فله أجرانِ). ثم قال عامر: أعطيناكَها بغير شيءٍ؛ قد كان يُرحَلُ فيما دونَها إلى المدينة [رواه البخاري في كتاب العلم، باب (تعليم الرجل أمتَه وأهلَه) فتح الباري 256/1].

ثانيا: المراد بالدِّين في هذه الآية:

قال الشنقيطي رحمه الله: "﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ لم يُبَيِّنْهُ هنا، وبيَّنَهُ في قولِه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ (الانفطار 17-19). والمرادُ بالدِّين في الآيةِ الجزاء. ومنه قولُه تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ (النور 25)، أي جزاء أعمالهم بالعدل" [أضواء البيان 6/1].

ثالثا: الجمع بين ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ و﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾:

ما أعظمَ الجمعَ القرآنِيَّ بين ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾ و﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ فهو أولا: جمعٌ بين الترغيبِ والترهيبِ والخوفِ والرجاءِ، وهذه من اساليب القرآنِ في التربية، كما قال عزَّ وجل: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (الأنعام147). وثانيا: جمعٌ بين رحمة الدنيا ورحمة الآخرة، كما قال جلَّ جلاله حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا

مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الشعراء77-82)0 فهذه الآيات شبيهةٌ بمعاني سورة الفاتحة؛ ففيها جمعٌ بين صفات ربِّنا الرحمن: من الخلق والرزق والشفاء والإماتة والإحياء وبين المغفرة يوم الدين. وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرةﷺ أن رسول اللهﷺ قال: (إنَّ الله خلقَ الرحمة يومَ خلقَها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعةً وتسعين رحمةً، وأرسلَ في خلقِه كلِّهم رحمةً واحدة؛ فلو يعلم الكافرُ كلَّ الذي عند الله من رحمته لم ييأسْ من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار).

رابعا: معنى ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾:

قال السعدي رحمه الله: "المالك: هو مَن اتَّصَفَ بصفةِ الملك، التي مِن آثارها: أنه يأمُرُ وينْهَى, ويُثيبُ ويُعاقِب, ويَتصرَّفُ بِمَمالِيكِه جميعَ التصرُّفات. وأضاف الملك لـ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وهو يوم القيامة, يومَ يُدَان الناسُ فيه بأعمالِهم خَيْرِها وشَرِّها؛ لأنَّ في ذلك اليومِ يظهرُ للخلقِ تمامَ الظُّهور كَمالُ مُلْكِهِ وعَدْلِهِ وحِكْمَتِه, وانقطاعُ أملاكِ الخلائقِ؛ حتى إنه يستوي في ذلك اليومِ الملوكُ والرَّعايا, والعبيدُ والأحرار. كلُّهم مُذْعِنُون لِعَظَمَتِه، خاضِعُون لِعِزَّتِه, مُنْتَظِرُون لِمُجازاتِه, راجُون ثَوابَه, خائفُون مِن عِقابِه؛ فلذلك خَصَّه بالذِّكْر, وإلا فهو المالكُ ليوم الدين ولغيره من الأيام" [تيسير الكريم الرحمن ص 39].

خامسا: دلالة تخصيص يوم الدين بالملك:

قال البغوي رحمه الله: "إنَّما خَصَّ ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ بالذِّكْر مع كَوْنِهِ مالِكاً للأيامِ كلِّها؛ لأنَّ الأملاكَ يومَئذٍ زائلةٌ فلا مُلْكَ ولا أمرَ إلا له، قال الله تعالى: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ (الفرقان 26)،

وقال: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (غافر 16)، وقال: ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار 19)" [معالم التنزيل للبغوي 53/1].

سادسا: حكمة تقديم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ على ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾:

في تقديم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾ على ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ إشارةٌ إلى سَبق الرحمة وأنها تغلب العذاب؛ كما وردَ ذلك صريحاً في حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين قال: قال رسول الله ﷺ: (لَمَّا خلقَ الله الخلقَ كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي) وفي رواية: (تغلب غضبي)؛ فذلك من أسرار تقديم الرحمةِ على العذاب، وهي إشارةٌ كذلك إلى تقديم الوعدِ على الوعيدِ والترغيب على الترهيب، كما قال الله عز وجل: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠ ﴾ (الحجر 49-50)0 وقد أشار إلى هذه الفائدة الألوسي رحمه الله في تفسير سورة الحجر [روح المعاني 60/14].

سابعا: مُناسَبة تقديم العذابِ على الرحمةِ في بعض الآيات:

قال الزركشي رحمه الله في (البرهان في علوم القرآن): "قاعدة في ذكر الرحمة والعذاب في القرآن: من أساليبِ القرآنِ حيث ذكرَ الرحمةَ والعذابَ أن يبدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ (المائدة 18)، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۝٤٣ ﴾ (فصلت43)؛ وعلى هذا جاء قول النبي ﷺ حِكايةً عن الله تعالى: (إنَّ رحمتي سبقت غضبي). وقدِ خرجَ عن هذه القاعدة مواضعُ اقتضَت الحكمةُ فيها تقديمَ

ذِكر العذابِ ترهيباً وزَجراً، منها قوله في سورة المائدة: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (المائدة 40)؛ لأنها وردَت في ذِكْر قُطاع الطريق والمحاربين والسُّراق؛ فكان المناسِبُ تقديمَ ذكر العذابِ لهذا ختمَ آيةَ السرقة بـ﴿ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [قلت: الآية بتمامها: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (المائدة 38)]، وختمَها بالقُدرة مُبالَغةً في الترهيب؛ لأنَّ مَن توعَّدَه قادرٌ على إنفاذِ الوعيدِ... ومنها: قولُه في سورة العنكبوت: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (العنكبوت 21)؛ لأنها في سياقِ حكايةِ إنذارِ إبراهيم لقومه... ومنها في آخرِ الأنعامِ قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (الأنعام 165)؛ لأن سُورةَ الأنعامِ كلَّها مُناظرةٌ للكُفار ووعيدهم خصوصاً، وفي آخرها قبلَ هذه الآيات بِيَسير: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (الأنعام 159) الآية، وهو تهديدٌ ووعيدٌ إلى قوله: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾ (الأنعام 164) الآية، وهو تقريعٌ للكفار وإفسادٌ لدينهم إلى قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام 165)؛ فكان المناسبُ تقديمَ ذِكر العقابِ ترهيباً للكفار وزَجراً لهم عن الكُفر والتفرُّقِ وزجراً للخلائق عن الجور في الأحكام. ونحو ذلك في أواخر الأعراف: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ (الأعراف 167)؛ لأنها في سياقِ ذِكر معصيةِ أصحابِ السبت وتعذيبه إياهم؛ فتقديمُ العذاب مُناسِبٌ" [البرهان في علوم القرآن للزركشي 4/63-65].

ثامنا: تقرير ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ الإيمانَ باليوم الآخر:

قال سيد قطب رحمه الله: "﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ تُمثِّلُ الكلِّيَّةَ الضَّخمةَ العميقةَ التأثيرِ في الحياةِ البشريةِ كلِّها: كُلية الاعتقادِ بالآخرة. والمُلْكُ: أقصى درجاتِ الاستيلاءِ والسيطرةِ. و﴿ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ هو يومُ الجزاءِ في الآخرة. وكثيراً ما اعتقدَ الناسُ بألُوهِيةِ اللهِ وخَلْقِه للكونِ أولَ مَرةٍ؛ ولكنَّهم مع هذا لم يَعتقدُوا بيومِ الجزاءِ. والقرآنُ يقولُ عن بعضِ هؤلاء: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ (لقمان25)، ثم يحكي عنهم في موضع آخر: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ ﴾ (ق 2-3)" [في ظلال القرآن 24/1].

تاسعا: مُناسَبة صفاتِ الربِّ والرحمنِ والمالكِ للحمد:

قال النسفي رحمه الله: "هذه الأوصافُ التي أُجْرِيَتْ على اللهِ سُبحانه وتعالى مِن كَوْنِهِ رَباً أي مالِكاً للعالمين ومُنعِماً بالنِّعَمِ كُلِّها ومالِكاً للأمرِ كلِّه يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاصِ الحمد به في قولِه: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ (الفاتحة 2)؛ دليلٌ على أنَّ مَنْ كانت هذه صِفاته لم يكنْ أحدٌ أحقَّ منه بِالحمدِ والثناءِ عليه" [مدارك التنزيل للنسفي 4/1]. قلتُ: ألفاظُ النسفي مُتقاربةٌ من تعبير البيضاوي رحمه الله بأنه "للإشْعار مِن طريقِ المفهومِ على أنَّ مَنْ لم يتصفْ بتلك الصفاتِ لا يستأهلُ أنْ يُحْمَدَ فضلاً عن أن يُعبَدَ" [أنوار التنزيل للبيضاوي 4/1].

عاشرا: ثمار عقيدة الإيمان بـ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾:

قال سيد قطب رحمه الله: "الاعتقادُ بـ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ كُلِّيَّةٌ مِن كُلِّيَّاتِ العقيدةِ الإسلامية ذاتُ قيمةٍ في تعليقِ أنظارِ البشر وقُلُوبِهِم بعالمٍ آخر بعد عالمِ الأرضِ؛ فلا تَستَبِدُّ بهم ضروراتُ الأرضِ. وعندئذ يملكون الاستعلاءَ على هذه الضروراتِ، ولا يستبدُّ بهم القَلَقُ على تحقيقِ جزاءِ سَعْيِهم في عمرهم القصير المحدودِ، وفي مجالِ الأرضِ المحصورِ؛ وعندئذ يملكون العملَ لوجهِ اللهِ وانتظارَ الجزاءِ حيث يقدره الله في الأرضِ أو في الدار الآخرةِ سواء، في طُمأنينةٍ للهِ وفي ثقةٍ بالخير وفي إصرارٍ على الحقِّ وفي سعةٍ وسماحةٍ ويقينٍ. ومن ثم فإنَّ هذه الكُلِّيةَ تُعَدُّ مَفْرَقَ الطريقِ بين العبوديةِ للنزواتِ والرغائبِ والطلاقةِ الإنسانية اللائقةِ ببني الإنسان! بين الخضوعِ لِتصوُّراتِ الأرضِ وقِيَمِها وموازينِها، والتعلُّقِ بالقِيَمِ الرَّبانيَّةِ والاستعلاءِ على منطقِ الجاهلية.. مَفرَقَ الطريقِ بين الإنسانيةِ في حقيقتِها العُليا التي أرادَها اللهُ الربُّ لعبادِه، والصُّوَرِ المشوَّهةِ المنحرفةِ التي لم يُقَدَّرْ لها الكمالُ. وما تستقيمُ الحياةُ البشريةُ على منهجِ اللهِ الرَّفيعِ ما لم تَتحقَّقْ هذه الكُلِّيةُ في تصوُّرِ البشرِ؛ وما لم تطمئنَّ قلوبُهم إلى أنَّ جزاءَهم على الأرضِ ليس هو نَصيبَهم الأخير. وما لم يَثِقْ الفردُ المحدودُ العمرِ بأنَّ له حياةً أُخرى تستحِقُّ أنْ يُجاهِدَ لها، وأن يُضحّي لِنُصرةِ الحقِّ والخيرِ مُعتمِداً على العِوَضِ الذي يَلْقاهُ فيها! وما يستوي المؤمِنون بالآخِرةِ والْمُنْكِرُون لها في شُعورٍ ولا خُلُقٍ ولا سُلُوكٍ ولا عمَلٍ. فهما صِنْفان مُخْتلِفان من الخلق، وطَبِيعتان مُتَميِّزتان لا تَلْتقِيان في الأرضِ: في عمَلٍ ولا تلتقيان في الآخرةِ في جزاءٍ. وهذا هو مَفْرقُ الطريق" [في ظلال القرآن 1/24-25].

المبحث السابع: العبادة والاستعانة

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾

المبحث السابع: العبادة والاستعانة:

أولا: معنى العبادة:

ثانيا: الدلالة الاجتماعية لفِعْلَيْ ﴿ نَعْبُدُ ﴾ و﴿ نَسْتَعِينُ ﴾:

ثالثا: أفضلُ العبادة:

رابعا: حكمة تقديم (العبادة) على (الاستعانة):

خامسا: مُداواةُ القلب بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾:

سادسا: من لطائف الالتفاتِ في هذه الآية:

سابعا: التوسُّل بالعُبودية:

ثامنا: الاستعانة توكُّلٌ على المعبود:

تاسعا: العُبودية والاستعانة بالله تحرُّرٌ مِن عُبوديةِ سواه:

عاشرا: العُبُودية منهجٌ للإصلاح في الأرض:

أولا: معنى العبادة:

1) قال البغوي رحمه الله: "قوله: ﴿ نَعْبُدُ ﴾ أي: نُوَحِّدك ونُطِيعُك خاضعين، والعبادة: الطاعة مع التذلُّل والخضوع؛ وسُمِّيَ العبدُ عبداً لِذلَّتِه وانقيادِه يقال: طريقٌ مُعبَّد: أي مُذلَّل" [معالم التنزيل 53/1].

2) قال السعدي رحمه الله: "أي نخصُّك وحدك بالعبادة والاستعانة؛ لأنَّ تقديم المعمول يُفِيدُ الحصر, وهو إثبات الحكمِ للمذكور ونفيُه عما عداه, فكأنه يقول: نعبدك ولا نعبد غيرك, ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك. و(العبادة): اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويرضاه مِن الأعمالِ والأقوالِ الظاهرةِ والباطنة. و(الاستعانة): هي الاعتمادُ على اللهِ تعالى في جَلبِ المنافع ودَفع المضارِّ مع الثقةِ بهِ في تحصيل ذلك" [تيسير الكريم الرحمن ص39].

3) قال ابنِ القيم رحمه الله: "لله درُّ أبي مَدْيَن حيث يقول: مَنْ تحقَّق بالعُبودية؛ نظرَ أفعالَه بعينِ الرِّياءِ، وأحوالَه بعين الدَّعْوى، وأقوالَه بعينِ الافتِراء. وكلَّما عَظُمَ المطلوبُ في قلبِك؛ صَغرتْ نفسُك عندك، وتضاءلَت القِيمةُ التي تبذُلها في تحصيلِه، وكلَّما شَهِدْتَ حَقِيقةَ الرُّبوبية وحَقيقةَ العُبوديةِ وعَرفتَ اللهَ وعَرفتَ النَّفس؛ وتَبيَّنَ لك أنَّ ما معك مِن البضاعةِ لا يصلُحُ للمَلكِ الحقِّ، ولو جِئتَ بِعَمَلِ الثَّقَلَين خَشيتَ عاقِبتَه؛ وإنما يَقبَلُه بِكَرمِه وجُودِه وتَفضُّلِه ويُثيبُك عليه أيضاً بِكَرمِه وجُودِه وتَفضُّلِه" [مدارج السالكين 176/1].

ثانيا: الدلالة الاجتماعية لفِعْلَيْ ﴿ نَعۡبُدُ ﴾ و﴿ نَسۡتَعِينُ ﴾:

قال البيضاوي رحمه الله: "الضمير المستكن في الفعلين للقارئ ومَن معه مِن الحفظة، وحاضِري صلاةِ الجماعة، أو له ولسائرِ الموحِّدين؛ أدرجَ عِبادتَه في تَضاعيفِ عِباداتِهم وخَلَطَ حاجتَه بحاجتِهم لعلَّها تُقبَل ببركتِها ويُجاب إليها؛ ولهذا شُرعَت الجماعةُ" [أنوار التنزيل 4/1].

ثالثا: أفضلُ العبادة:

قال ابن القيم رحمه الله: "إنَّ أفضلَ العبادة: العملُ على مرضاةِ الربِّ في كلِّ وقتٍ بما هو مقتضى ذلك الوقتِ ووظيفتِه؛ فأفضلُ العباداتِ في وقتِ الجهادِ: الجهادُ وإنْ آلَ إلى تركِ الأورادِ من صلاةِ الليلِ وصيامِ النهار... والأفضلُ في أوقاتِ ضرورةِ المحتاجِ إلى المساعدةِ بالجاهِ أو البدنِ أو المال: الاشتغالُ بمساعدتِه وإغاثةِ لَهفتِه، وإيثارُ ذلك على أورادِك وخَلْوَتِك. والأفضلُ في وقتِ قراءةِ القرآنِ: جمعيةُ القلبِ والهمةِ على تدبُّره وتفهُّمِه؛ حتى كأنَّ اللهَ تعالى يُخاطبك به؛ فتجمع قلبَك على فهمِه وتدبُّره والعزمِ على تنفيذِ أوامره أعظمَ من جمعيةِ قلبِ مَن جاءهُ كتابٌ من السلطانِ على ذلك... فالأفضلُ في كلِّ وقتٍ وحالٍ: إيثارُ مرضاةِ اللهِ في ذلك الوقتِ والحالِ، والاشتغالُ بواجبِ ذلك ووظيفتِه ومُقتضاه، وهؤلاء هم أهلُ التعبُّدِ المُطلَق...

وصاحبُ التعبُّدِ المطلقِ ليس له غَرضٌ في تعبُّدٍ بعينِه يُؤثِره على غيرِه. بل غرضُه تتبُّعُ مرضاةِ اللهِ تعالى أينَ كانت؛ فمدارُ تعبُّدِهِ عليها, فهو لا يزالُ مُتنقِّلا في منازلِ العُبوديةِ, كلَّما رُفِعَتْ له منزلةٌ عَمِلَ على سَيْرِهِ إليها واشتغلَ بها حتى تلوحَ له منزلةٌ أخرى. فهذا دَأْبُهُ في السَّيْرِ حتى ينتهيَ سيرُه؛ فإنْ رأيتَ العلماءَ رأيتَهُ معهم, وإنْ رأيتَ العُبَّادَ رأيتَه معهم، وإنْ رأيتَ المجاهِدين رأيتَه معهم, وإنْ رأيتَ الذاكِرين رأيتَه معهم, وإنْ رأيتَ المتصدِّقين المحسِنين رأيتَه معهم, وإنْ رأيتَ أربابَ الجمعيةِ وعُكوفِ القلبِ على اللهِ رأيتَه معهم. فهذا هو التَّعبُّدُ المطلَقُ الذي لم تَمْلِكْه الرُّسُوم, ولم تُقيِّدْه القُيود, ولم يكنْ عملُه على مُرادِ نفسِه وما فيه لَذَّتُها وراحتُها من العِبادات بل هو على مُرادِ ربِّه ولو كانتْ راحةُ نفسِه ولَذتُها في سِواه؛ فهذا هو المتحقِّقُ بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حقاً القائمِ بها صدقاً" [مدارج السالكين 1/89-90]. قلتُ: ما أشبهَ كلامَ ابن القيم رحمه الله بحالِ الصِّدِّيق حيث رجا أن يدخُلَ من جميعِ أبواب الجنة! فحُقَّ لنا أن نسألَ أهلَ التربيةِ والتعليمِ في العالم الإسلامي وأهلَ الدعوةِ والجماعات العاملة: أين ثمرةُ جهدِكم مِن تربيةِ أمثالِ هذا الصِّنفِ الرباني ومن لنا بجيلٍ طاهرِ اللِّسانِ والجنانِ، سليمِ الصدر من الهوى والتعصُّب, بريءٍ من الحسدِ والحقدِ وحُظوظ النفس, حريصٍ على مُصاحبةِ الصادِقين والتعاونِ مع الصالحين؟! فقد صدق ابن القيم حين قال: "ما أغربه بين الناس! وما أشدَّ وحشتَه منهم! وما أعظمَ أُنسَه باللهِ وفرحَه به وطُمَأنِينته وسُكونَه إليه! والله المستعان وعليه التكلان".

رابعا: حكمة تقديم (العبادة) على (الاستعانة):

1) قال النسفي رحمه الله: "قُدِّمَت (العبادةُ) على (الاستعانة)؛ لأنَّ تقديمَ الوسيلةِ قبلَ طلبِ الحاجةِ أقربُ إلى الإجابة" [مدارك التنزيل 1/5].

2) قال السعدي رحمه الله: "قدَّم (العبادة) على (الاستعانة)؛ من باب تقديمِ العام على الخاص؛ واهتماماً بتقديمِ حقِّه تعالى على حقِّ عبدِه. و(العبادة): اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويرضاه مِن الأعمالِ والأقوالِ الظاهرةِ والباطنة. و(الاستعانة): هي الاعتمادُ على اللهِ تعالى في جَلبِ المنافعِ ودَفعِ المضارِّ مع الثقةِ بهِ في تحصيلِ ذلك" [تيسير الكريم الرحمن ص39].

3) قال البيضاوي رحمه الله: "لَما نسبَ المتكلِّمُ العبادةَ إلى نفسِه؛ أوهَمَ ذلك تبجُّحاً واعتداداً منه بما يصدُر عنه، فعقَّبَه بقولِه: "﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ العبادة أيضاً مما لا يتم ولا يستتب له إلا بمعونةٍ منه وتوفيقٍ، وقيل: الواو للحال والمعنى: نعبدك مُستعينين بك" [أنوار التنزيل 4/1].

خامسا: مُداواةُ القلب بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾:

قال ابن القيم رحمه الله: "إنَّ القلبَ يعرض له مَرضان عظيمان؛ إنْ لم يَتداركْهما تَرامَيا به إلى التَّلَفِ ولا بُدَّ، وهما: الرِّياءُ والكِبْرُ. فدواءُ الرياءِ بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ودواءُ الكِبر بـ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؛ وكثيراً ما كنتُ أسمعُ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية قدَّسَ اللهُ روحَه يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تدفع الرياء، و﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تدفع الكبرياء؛ فإذا عُوفِيَ من مرضِ الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ومن مرضِ الكِبْر والعُجبِ بـ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ومن مرضِ الضلالِ والجهلِ بـ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ عُوفِيَ من أمراضِه وأسقامِه، ورَفَلَ في أثوابِ العافية، وتمَّتْ عليه النعمة؛ وكان من المنعَمِ عليهم" [مدارج السالكين 54/1].

سادسا: من لطائف الالتفاتِ في هذه الآية:

1) قال النسفي رحمه الله: "﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾... المعنى نخصُّك بالعبادة وهي أقصَى غايةِ الخضوع والتذلُّل، ونخصُّك بطلبِ المعُونة، وعدلَ عن الغَيْبةِ إلى الخطابِ للالتفات، وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (يونس 22)، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ ﴾ (فاطر 9)، وقول امرىء القيس:

تطاوَلَ لَيْلُك بالإثمدِ ونامَ الخَلِيُّ ولم تَرْقُدِ
وباتَ وباتتْ له ليلةٌ كَلَيلةِ ذي العائر الأرْمدِ
وذلك مِن نبأٍ جاءني وخُبِّرْتُهُ عن أبي الأسودِ

فالتفَتَ في الأبياتِ الثلاثة حيث لم يَقُلْ: (ليلي) و(بِتُّ) و(جاءه)، والعرب يستكثرون منه ويَرَوْن الكلامَ إذا انتقل مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ أدخلَ في القَبولِ عند السامعِ وأحسنَ تطريةٍ لنشاطِه، وأملأَ لاستلذاذِ إصغائه. وقد تختصُّ مَواقعُه بفوائدَ ولطائفَ قلَّما تتضحُ إلا للحُذَّاقِ المهرةِ والعلماءِ النَّحارير وقليلٌ ما هم. ومما اختصَّ به هذا الموضعُ أنه لما ذكَرَ الحقيقَ بالحمدِ والثناء، وأجرَى عليه تلك الصفاتِ العِظامَ تعلَّقَ العلمُ بمعلومٍ عظيمِ الشأنِ حقيقٍ بالثناءِ وغايةِ الخضوعِ والاستعانةِ في المهماتِ؛ فخُوطِبَ ذلك المعلومُ المتميِّزُ بتلك الصفاتِ فقيل: إياك يا مَن هذه صفاتُه نَعبد ونستعينُ لا غيرك". [مدارك التنزيل 5/1].

2) قال ابن عاشور رحمه الله: "لأهلِ البلاغةِ عِنايةٌ بالالتفاتِ؛ لأنَّ فيه تجديدَ أسلُوبِ التعبير عن المعنى بِعينِه تحاشِياً مِن تكرُّرِ الأسلُوبِ الواحِدِ عِدةَ مِرارٍ؛ فيحصل بتجديدِ الأسلُوبِ تجديدُ نشاطِ السامِعِ كي لا يَملَّ من إعادةِ أسلُوبٍ بِعَينِه. قال السكاكي في (المفتاح) بعد أن ذكَرَ أنَّ العربَ يستكثِرون مِن الالتفاتِ: أفتَراهُم يُحسِنُون قِرَى الأشباحِ؛ فيخالِفُون بين لَونٍ ولَونٍ وطَعمٍ وطَعمٍ، ولا

يُحسِنُون قِرى الأرواحِ؛ فيُخالِفُون بين أسلوبٍ وأسلوبٍ؟ فهذه فائدةٌ مُطَّرِدةٌ في الالتفاتِ. ثم إنَّ البُلَغاءَ لا يَقتَصِرُون عليها غالباً، بل يُراعُون للالتفاتِ لطائفَ ومُناسَباتٍ، ولم يَزَلْ أهلُ النقدِ والأدبِ يَستخرجُون ذلك مِن مَغاصِه. وما هنا التِفاتٌ بَديعٌ؛ فإنَّ الحامِدَ لما حمد الله تعالى ووصفَه بعظيمِ الصفاتِ بلغَتْ به الفكرةُ مُنتهاها؛ فتخيَّلَ نفسَه في حَضرةِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ فخاطبَ ربَّه بالإقبالِ" [التحرير والتنوير 179/1].

3) قال البيضاوي رحمه الله: "﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لما ذكر الحقيقَ بالحمدِ، ووصفَ بصفاتٍ عظامٍ تميَّزَ بها عن سائرِ الذواتِ وتعلَّقَ العلمُ بمعلومٍ مُعيَّنٍ خُوطِبَ بذلك، أي: يا مَنْ هذا شأنُه نخصُّك بالعبادة والاستعانة؛ ليكونَ أدلَّ على الاختصاص، وللترقِّي مِن البرهانِ إلى العيانِ والانتقالِ مِن الغَيبةِ إلى الشُّهود؛ فكأنَّ المعلومَ صار عِياناً والمعقولُ مُشاهداً والغَيبةُ حُضوراً؛ بَنَى أولَ الكلامِ على ما هو مَبادي حالِ العارفِ مِن الذِّكرِ والتأمُّلِ في أسمائه، والنظرِ في آلائه، والاستدلالِ بصنائعِه على عظيمِ شأنِه وباهِرِ سُلطانِه، ثم قفَّى بما هو مُنتهى أمره وهو أن يخوضَ لُجَّةَ الوُصولِ، ويَصيرَ من أهلِ المشاهدةِ؛ فيراه عِياناً ويُناجِيه شِفاهاً. اللّهم اجْعَلْنا من الواصِلِين للعينِ دون السامعين للأثَر" [أنوار التنزيل 4/1]. قلتُ: فتأمَّلْ كيف انتَقَلَ الراسِخون في العلمِ إلى المعاني التربوية المستفادةِ من الالتفاتِ، ولم يقتصروا على مُجرَّدِ المعنى البلاغي؛ وإنما جعلوا المعنى البلاغيَّ سُلَّماً لفهمِ لطائفِ المعاني؛ فرحمةُ اللهِ على علماءِ المسلمين! أما ابنُ عاشورٍ فقد علَّلَ العُدولَ عن الغَيبةِ إلى الخطابِ بأنَّ الحامِدَ "بلغَتْ به الفكرةُ مُنتهاها؛ فتخيَّلَ نفسَه في حَضرةِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ فخاطبَ ربَّه بالإقبالِ"! وأما النسفي فقد علَّلَه بالانتقالِ مِن تأمُّلِ عظمةِ هذه الصفاتِ المحمودةِ إلى مُخاطبةِ صاحبِها؛ "فخُوطِبَ ذلك المعلومُ المتميِّزُ بتلك الصفاتِ فقيل: "﴿ إِيَّاكَ ﴾ يا مَن هذه صفاتُه "﴿ نَعْبُدُ ﴾ و"﴿ نَسْتَعِينُ ﴾ لا غيرك"! وأما البيضاوي فقد علَّلَ الالتفاتَ من الغَيبة

إلى الخطابِ بقوةِ حالِ هذا الحامدِ؛ "فكأنَّ المعلومَ صار عياناً والمعقولُ مشاهداً والغَيبةُ حُضوراً؛ بَنَى أولَ الكلامِ على ما هو مَبادي حالِ العارفِ مِن الذِّكرِ والتأمُّلِ في أسمائه، والنظرِ في آلائه، والاستدلالِ بصنائعِه على عظيمِ شأنِه وباهِرِ سُلطانِه، ثم قَفَّى بما هو مُنتهى أمره وهو أن يخوضَ لُجَّةَ الوُصولِ، ويَصيرَ من أهلِ المشاهدةِ؛ فيراه عِياناً ويُناجِيه شِفاهاً"؛ فانظرْ كيف استخرجَ كلُّ واحدٍ منهم معنًى بديعاً ولم يقتصِرُوا على مجرَّدِ الإشارةِ إلى أنَّ في الآيةِ التفاتاً كما نراه في الأساليبِ المعاصرةِ لتدريسِ البلاغةِ؛ حيث فقدَتِ الدروسُ البلاغيةُ روائعَ أسرارِها ولطائفَ معانيها؛ وصارتْ خاويةً على عُروشِها كأنْ لم تَغْنَ بالأمسِ! ومَن اطَّلعَ على أسلوبِ إمامِ البلاغةِ عبد القاهر الجرجاني في كِتابَيه: (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز)؛ أدركَ روائعَ هذا الفنِّ، وشِدةَ تعلُّقِه بالقرآن؛ ولذلك ترى النابِهين من المفسِّرين مثل ابن عاشورٍ يَعْتَنُون بما يقرره من بدائعِ الأسرارِ البلاغيةِ المستخرجةِ مِن روائعِ النظمِ القرآني! وما أصدقَ قولَ النسفي عنِ الالتفات: "تختصُّ مَواقعُه بفوائدَ ولطائفَ قلَّما تتضحُ إلا للحُذَّاقِ المهرةِ والعلماءِ النَّحارير. وقليلٌ ما هم"!

سابعا: التوسُّل بالعُبودية:

1) قال ابن القيم رحمه الله: "قد جَمَعَت الفاتحةُ الوَسِيلَتَيْنِ: وهما التوسُّلُ بالحمدِ والثناءِ عليه وتَمْجيدِه، والتوسُّلُ إليه بِعُبودِيَّتِه وتوحِيدِه. ثم جاء سؤالُ أهَمِّ المطالِبِ وأنْجَحِ الرغائبِ: وهو الهدايةُ بعد الوَسِيلَتين؛ فالدَّاعي به حَقِيقٌ بالإجابة. ونظيرُ هذا: دُعاءُ النبيِّ ﷺ الذي كان يدعُو به إذا قام يُصلِّي من الليل، رواه البخاري في صحيحِه من حديث ابنِ عباس: (اللهم لك الحمدُ؛ أنتَ نُورُ السمواتِ والأرضِ ومَن فِيهِنَّ. ولك الحمدُ؛ أنتَ قَيُّومُ السمواتِ والأرضِ ومَن فِيهِنَّ. ولك الحمدُ؛ أنتَ الحقُّ، ووَعْدُك الحقُّ، ولقاؤك حَقٌّ، والجنة حقٌّ، والنارُ حَقٌّ، والنبيُّون حقٌّ، والساعةُ حَقٌّ، ومحمد حقٌّ. اللهم لكَ أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليكَ توكَّلْتُ، وإليكَ أنَبْتُ. وبك

خاصَمتُ، وإليك حاكَمْتُ؛ فاغْفِرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسْرَرْتُ وما أعْلَنْتُ، أنتَ إلهي لا إلهَ إلا أنتَ)؛ فذَكَرَ التوسُّلَ إليه بِحَمْدِهِ والثناءِ عليهِ وبعُبوديَّتِهِ له. ثم سألَهُ المغفرة" [مدارج السالكين 24/1].

2) قال السعدي رحمه الله: "القيام بـ(عبادة) الله و(الاستعانة) به هو الوسيلةُ للسَّعادةِ الأبديَّةِ, والنجاةِ مِن جميعِ الشُّرورِ؛ فلا سبيلَ للنجاةِ إلا بالقيامِ بهما, وإنما تكونُ العبادةُ عبادةً إذا كانت مأخوذةً عن رسولِ اللهﷺ مقصوداً بها وجهُ اللهِ؛ فبِهَذَين الأمْرَيْن تكونُ عبادةً, وذكر (الاستعانة) بعد (العبادة) مع دُخولِها فيها؛ لاحتياجِ العبدِ في جميعِ عِباداتِهِ إلى الاستعانةِ باللهِ تعالى؛ فإنه إنْ لم يُعِنْهُ اللهُ, لم يَحصُلْ له ما يُريدُه مِن فِعْلِ الأوامرِ واجتنابِ النَّواهي" [تيسير الكريم الرحمن ص 39].

ثامنا: الاستعانة توكُّلٌ على المعبود:

قال الشنقيطي رحمه الله: "﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ (الفاتحة 5) أي: لا نطلب العونَ إلا منك وحدك؛ لأنَّ الأمرَ كلَّه بِيدِك وحدَك لا يملك أحدٌ منه معك مثقالَ ذرةٍ. وإتيانه بقولِه: "﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بعد قولِه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (الفاتحة 5)، فيه إشارةٌ إلي أنه لا ينبغي أن يتوكَّلَ إلا على مَنْ يَستحقُّ العبادة؛ لأنَّ غيرَه ليس بِيدِهِ الأمر. وهذا المعنى المشارُ إليه هنا جاء مبينًا واضِحًا في آياتٍ أُخَر كقولِه: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (هود 123)، وقولِه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ (التوبة 129)، وقولِه: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ۝ ﴾ (المزمل 9)، وقولِه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (الملك 29)، وإلى غير ذلك مِن الآيات" [أضواء البيان 7/1-8].

تاسعا: العُبودية والاستعانة بالله تحررٌ مِن عُبوديةِ سواه:

1) قال سيد قطب رحمه الله: "﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾..

هذه هي الكُلِّيةُ الاعتقادية التي تنشأ عن الكُلِّيات السابقة في السورة؛ فلا عبادة إلا لله، ولا استعانة إلا بالله. وهنا كذلك مَفرقُ طريق.. مفرقُ طريقٍ بين التحرر المطلق مِن كل عُبودية، وبين العُبودية المطلَقة للعبيد! وهذه الكلّية تعلن ميلادَ التحرُّر البشري الكامل الشامل، التحرُّر من عُبودية الأوهام، والتحرُّر من عُبودية النُّظُم، والتحرُّر من عُبودية الأوضاع. وإذا كان الله وحده هو الذي يُعبَد، والله وحده هو الذي يُستعان؛ فقد تخلَّص الضميرُ البشريِ مِن استذلالِ النُّظُمِ والأوضاعِ والأشخاص، كما تخلَّص من استذلالِ الأساطير والأوهامِ والخرافات" [في ظلال القرآن 25/1].

2) قال الشنقيطي رحمه الله: "﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أشار في هذه الآيةِ الكريمةِ إلى تحقيقِ معنى (لا إلـه إلا اللّـه)؛ لأنَّ معناها مُركَّبٌ مِن أمرين: نَفي وإثبات. فالنَّفي: خَلعُ جميع المعبوداتِ غير اللّـه تعالى في جميعِ أنواعِ العبادات، والإثبات: إفرادُ ربِّ السمٰواتِ والأرضِ وحده بجميعِ أنواع العِباداتِ على الوجهِ المشروع. وقد أشارَ إلى النَّفيِ مِن (لا إله إلا اللّه) بتقديمِ المعمولِ الذي هو ﴿ إِيَّاكَ ﴾ وقد تقرَّر في الأصُولِ في مَبحثِ دليلِ الخطابِ الذي هو مفهومِ المخالفة، وفي المعاني في مَبحث القصر: أنَّ تقديمَ المعمولِ مِن صِيَغِ الحصر. وأشارَ إلى الإثباتِ منها بقولِه: ﴿ نَعْبُدُ ﴾. وقد بيَّنَ مَعناها المشارَ إليه هنا مُفصَّلاً في آياتٍ أُخَر، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ (البقرة 21)؛ فصرَّحَ بالإثباتِ منها بقولِه: ﴿ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾، وصرَّحَ بالنَّفيِ منها في

آخـر الآيـةِ الكريمـة بقولِـه: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقـرة 22)، وكقولِـهِ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحـل 36)، فـصرَّحَ بالإثبـاتِ بقولِـه: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وبـالنَّفيِ بقولِـه:﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾، وكقولِـه: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ (البقـرة 256)، فـصرَّحَ بـالنَّفيِ منها بقولِه: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾، وبالإثباتِ بقولـه: ﴿ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾؛ وكقولِـه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ (الزخرف 26-27)، وكقولِه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبيـاء 25)، وقولِـه: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (الزخرف 45) إلـى غيـر ذلـك من الآيات" [أضواء البيان 7/1].

عاشرا: العُبُودية منهجٌ للإصلاح في الأرض:

قال سيد قطب رحمه الله: "هنا يُعرضُ موقفُ المسلم من القُـوَى الإنـسانية ومـن القـوى الطبيعيـة. فأمـا القـوى الإنـسانية - بالقيـاس إلـى المـسلم - فهـي نوعـان: قـوةٌ مُهتديةٌ تؤمن بالله وتتبع منهجَ الله؛ وهذه يجب أن يؤازرَها ويتعاونَ معها على الخيرِ والحقِّ والصلاحِ، وقوةٌ ضالةٌ لا تتصلُ باللهِ ولا تتبعُ منهجَه. وهذه يجبُ أن يُحاربَها ويُكافحَها ويُغيرَ عليها. ولا يَهولَنَّ المسلمَ أن تكون هذه القوةُ الضالةُ ضخمةً أو عاتيةً. فهي بضلالِها عن مَصدرِها الأول - قوة الله - تَفقِدُ قُوتَها الحقيقية، تَفقِدُ الغذاءَ الدائمَ الذي يحفظ لها طاقتَها. وذلك كما ينفصلُ جُرمٌ ضخمٌ من نجمٍ مُلتهبٍ؛ فما يلبثُ أنْ ينطفىءَ ويبردَ ويفقدَ ناره ونُورَه، مهما كانت كُتلتُه من الضخامة. على حين تبقـى لأيـة ذرةٍ مُتـصلةٍ بمـصدرها المـشع قوتَهـا وحرارتَهـا ونورَهـا: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً

﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة 249).. غَلَبَتْها باتصالِها بمصدر القوةِ الأول، وباستمدادِها من النَّبعِ الواحدِ للقوةِ وللعزةِ جميعاً. وأما القوى الطبيعيةُ فموقفُ المسلمِ منها هو موقفُ التعرُّفِ والصداقة، لا موقف التخوُّفِ والعداء؛ ذلك أنَّ قوةَ الإنسانِ وقوةَ الطبيعةِ صادرتان عن إرادةِ اللهِ ومَشيئتِه، مَحكومَتان بإرادةِ اللهِ ومشيئتِه، مُتناسقتان مُتعاونَتان في الحركةِ والاتجاهِ. إنَّ عقيدةَ المسلمِ تُوحِي إليهِ أنَّ اللهَ رَبُّه قد خَلَقَ هذه القُوى كلَّها لتكونَ له صَديقاً مُساعِداً مُتعاوناً، وأنَّ سَبيلَه إلى كَسبِ هذه الصداقةِ أن يتأمَّلَ فيها ويتعرَّفَ إليها، ويتعاونَ وإياها ويَتجهَ معها إلى اللهِ ربِّهِ وربِّها. وإذا كانت هذه القوى تُؤذِيهِ أحيانا؛ فإنَّما تُؤذِيهِ لأنَّه لم يَتدبَّرْها ولم يَتعرَّفْ إليها، ولم يَهتَدِ إلى الناموسِ الذي يُسيِّرُها. ولقد دَرَجَ الغربيُّون - ورثةُ الجاهليةِ الرُّومانية - على التعبيرِ عن استخدامِ قُوى الطبيعةِ بقولِهم: (قهر الطبيعة)، ولهذا التعبيرِ دلالتُه الظاهرةُ على نظرةِ الجاهليةِ المقطوعةِ الصِّلةِ باللهِ وبِروحِ الكَونِ المستجيبِ لله. فأما المسلمُ الموصولُ القلبِ بربِّه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة 3) الموصولُ الرُّوحِ بروحِ هذا الوجودِ المسبحةِ للهِ ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة 2)؛ فيؤمن بأنَّ هنالك علاقةً أُخْرَى غيرَ علاقةِ القهرِ والجفوةِ. إنه يعتقدُ أنَّ اللهَ هو مُبدِعُ هذه القُوى جميعاً، خلَقَها كُلَّها وفْقَ نامُوسٍ واحِدٍ؛ لتتعاونَ على بُلوغِ الأهدافِ المُقدَّرةِ لها بحسبِ هذا الناموسِ. وأنه سخَّرَها للإنسانِ ابتداءً ويَسَّرَ له كَشْفَ أسرارِها ومعرفةَ قوانينِها. وأنَّ على الإنسانِ أنْ يَشكرَ اللهَ كلَّما هَيَّأَ له أن يَظفرَ بمعونةٍ مِن إحداها؛ فاللهُ هو الذي يُسخِّرُها له، وليس هو الذي يقهرها: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (الجاثية 13)؛ وإذن فإنَّ الأوهام لن تملأ حِسَّه تجاه قوى الطبيعة، ولن تُقيمَ بينه وبينها المخاوف. إنه يؤمن بالله وحده ويعبد الله وحده، ويستعين بالله وحده. وهذه القوى من خلق ربه، وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها؛ فتبذل له معونتها وتكشف له عن أسرارها؛ فيعيش معها في كَوْنٍ مأنوسٍ

صديقٍ ودودٍ. وما أروعَ قولَ الرسولﷺ وهو ينظر إلى جبل أحد: (هذا جبلٌ يُحبُّنا ونُحِبُّه)؛ ففي هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمدﷺ من وُدٍّ وأُلفةٍ وتَجاوُبٍ بينَه وبين الطبيعةِ في أضخمِ وأخشنِ مجاليها" [في ظلال القرآن 1/25-26].

المبحث الثامن: الهداية

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾

المبحث الثامن: الهداية

أولا: معنى الهداية:
ثانيا: الهدايةُ أعظمُ المطالبِ:
ثالثا: أنواع الهداية:
رابعا: الهداية نجاة من الضلالة:
خامسا: الهداية سلامةٌ من فتن الدنيا والآخرة:
سادسا: الدعاء بالهداية طلبٌ للتثبيت:
سابعا: التوجه بالثناء بين يَدَي الدعاء:
ثامنا: من آداب الدعاء:

أولا: معنى الهداية:

قال السعدي رحمه الله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ "أي: دُلَّنا وأرْشِدْنا ووَفِّقْنا للصراطَ المستقيم: وهو الطريقُ الواضحُ الموصِلُ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه، وهو معرفةُ الحقِّ والعملُ به. فاهْدِنا إلى الصراطِ، واهْدِنا في الصراطِ. فالهدايةُ إلى الصراطِ: لزومُ دينِ الإسلام، وترك ما سواه مِن الأديان، والهدايةُ في الصراطِ تشملُ الهدايةَ لجميعِ التفاصيلِ الدينيةِ عِلماً وعملاً. فهذا الدعاءُ مِن أجمعِ الأدعيةِ وأنفعِها للعبدِ؛ ولهذا وَجَبَ على الإنسانِ أن يدعوَ الله به في كلِّ ركعةٍ مِن صلاتِه لضرورته إلى ذلك" [تيسير الكريم الرحمن ص 39].

ثانيا: الهدايةُ أعظمُ المطالبِ:

قال سيد قطب رحمه الله: "﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾.. وَفِّقْنا إلى معرفةِ الطريقِ المستقيمِ الواصِلِ؛ ووَفِّقْنا للاستقامةِ عليه بعدَ معرفتِه.. فالمعرفةُ والاستقامةُ كِلتاهما ثمرةً

لهدايةِ اللهِ ورعايتِهِ ورَحمتِه. والتوجهُ إلى اللهِ في هذا الأمرِ هو ثَمرةُ الاعتقادِ بأنه وحدَه المعين. وهذا الأمرُ هو أعظمُ وأوَّلُ ما يطلبُ المؤمنُ مِن ربِّه العونَ فيه. فالهدايةُ إلى الطريقِ المستقيمِ هي ضمانُ السعادةِ في الدنيا والآخرةِ عن يقين.. وهي في حقيقتِها هدايةُ فطرةِ الإنسانِ إلى ناموسِ اللهِ الذي يُنسِّقُ بين حركةِ الإنسانِ وحركةِ الوُجود كلِّه في الاتجاهِ إلى اللهِ ربِّ العالمين. ويكشفُ عن طبيعةِ هذا الصراطِ المستقيم: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ (الفاتحة 7).. فهو طريقُ الذين قَسَمَ لهم نِعمتَه، لا طريق الذين غضبَ عليهم لمعرفتَهم الحقَّ ثم حَيدتِهم عنه، أو الذين ضلُّوا عن الحقِّ فلم يَهتدُوا أصلاً إليه.. إنه صراطُ السُّعداءِ المهتدِين الواصِلِين" [في ظلال القرآن 26/1].

ثالثا: أنواع الهداية:

قال ابن القيم رحمه الله: "قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ يتضمن طلبَ الهداية ممن هو قادرٌ عليها وهي بيده؛ إن شاء أعطاها عبدَه، وإن شاء منعه إياها. والهداية معرفةُ الحقِّ والعملُ به؛ فمن لم يجعلْه اللهُ تعالى عالماً بالحقِّ عاملاً به؛ لم يكن له سبيلٌ إلى الاهتداء؛ فهو سبحانه المُنْفَردُ بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها، وهي جعلُ العبدِ مُريداً للهدى مُحِباً له مُؤثِراً له عامِلاً به. فهذه الهدايةُ ليستْ إلى مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا نبيٍّ مُرْسَلٍ، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص 56)، مع قولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى 52). فهذه هدايةُ الدعوة والتعليم والإرشاد. وهي التي هدى بها ثمودَ فاستحبُّوا العمى عليها، وهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ

﴿ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ (التوبة 115). فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجتُه عليهم، ومنعَهم الهدايةَ الموجِبةَ للاهتداء التي لا يضلُّ من هداه اللهُ بها؛ فذلك عدلُه فيهم، وهذه حِكمتُه فأعطاهم ما تقوم به الحجةُ عليهم، ومنعَهم ما ليسوا له بأهلٍ ولا يليق بهم" [شفاء العليل ص52-53. نقلا عن بدائع التفسير 108/1 جمع يسري السيد].

رابعا: الهداية نجاة من الضلالة:

قال الرازي رحمه الله: "لَما رأينا الأكثَرين غرقُوا في بَحْر الضَّلالات؛ عَلِمْنا أنَّ الوُصولَ إلى الحقِّ ليس إلا بهدايةِ اللهِ تعالى؛ ومما يُقوِّي ذلك أنَّ كلَّ الملائكةِ والأنبياءِ أطبَقوا على ذلك. أما الملائكةُ فقالوا: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ (البقرة 32)، وقال آدمُ عليه السلام: ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأعراف 23)، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (الأنعام 77)، وقال يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (يوسف 101)، وقال موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ ﴾ (طه 25) الآيات، وقال محمد عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ (آل عمران 8)" [التفسير الكبير277/1].

خامسا: الهداية سلامةٌ من فتن الدنيا والآخرة:

قال ابن القيم رحمه الله: "من هنا يُعلَم اضطرارُ العبدِ إلى سؤالِ هذه الدعوةِ فوقَ كل ضرورةٍ، وبطلانُ قولِ مَن يقول: إذا كنا مُهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإنَّ المجهولَ لنا مِن الحق أضعافُ المعلوم. وما لا نريد فعلَه تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه. وما لا نقدر عليه - مما نريده -

كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر. ونحن مُحتاجون إلى الهداية التامة؛ فمن كملت له هذه الأمور كان سؤالُ الهدايةِ له سؤالَ التثبيتِ والدوامِ. وللهدايةِ مرتبةٌ أخرى وهي آخرُ مراتبِها: وهي الهدايةُ يومَ القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها. فمن هُدِيَ في هذه الدار إلى صِراطِ اللهِ المستقيم الذي أرسَلَ به رُسلَه وأنزَلَ به كُتبَه؛ هُدِيَ هناك إلى الصراطِ المستقيم، الموصلِ إلى جنتِه ودارِ ثَوابِه. وعلى قدر ثُبوتِ قدمِ العبدِ على هذا الصراطِ الذي نَصبَه اللهُ لعبادِه في هذه الدار؛ يكون ثبوتُ قدمِه على الصراطِ المنصوبِ على مَتنِ جَهنم. وعلى قدر سَيْرِهِ على هذه الصراطِ يكونُ سيرُه على ذاك الصراط: فمنهم من يمرُّ كالبرق، ومِنهم مَن يمرُّ كالطرف، ومنهم مَن يمرُّ كالريح، ومنهم مَن يمرُّ كشَدِّ الركاب، ومِنهم مَن يسعى سعياً، ومنهم مَن يمشي مَشياً، ومنهم مَن يحبو حبواً، ومنهم المخدوشُ المُسلَّم، ومنهم المُكَرْدَس في النار؛ فلْينظر العبدُ سيرَه على ذلك الصراطِ مِن سَيره على هذا، حذوَ القُذَّة بالقُذة، جزاءً وفاقا ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل 90). ولْينظر الشبهاتِ والشهواتِ التي تعوقُه عن سيره على هذا الصراطِ المستقيم؛ فإنها الكلاليبُ التي بِجَنْبَتَيْ ذاك الصراطِ، تخطفُه وتَعوقُه عن المرور عليه. فإنْ كثرَتْ هنا وقويَتْ؛ فكذلك هي هناك ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت 46)" [مدارج السالكين1/9-10].

سادسا: الدعاء بالهداية طلبٌ للتثبيت:

قال البغوي رحمه الله: "قولُه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾... هذا الدعاءُ مِن المؤمنين مع كَوْنِهم على الهدايةِ بمعنى التثبيتِ وبمعنى طَلَبِ مَزيدِ الهدايةِ؛ لأنَّ الألطافَ والهداياتِ مِن الله تعالى لا تتناهَى على مذهبِ أهلِ السنة... وقولُه: ﴿ صِرَٰطَ

﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: مَنَنْتَ عليهم بالهدايةِ والتوفيق، قال عكرمة: مَنَنْتَ عليهم بالثباتِ على الإيمانِ والاستقامة، وهم الأنبياءُ عليهم السلام، وقيل: هم كلُّ مَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ على الإيمانِ مِن النبيين والمؤمنين الذين ذَكَرَهم الله تعالى في قولِه: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ (النساء 69)" [معالم التنزيل 54/1]. قلتُ: وهو ظاهرُ القرآن، والآياتُ يُفسِّرُ بعضُها بعضاً، كما قال الشنقيطي رحمه الله: "﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ لم يُبيِّنْ هنا مَن هؤلاء الذين أنعمَ عليهم. وبيَّنَ ذلك في موضعٍ آخر بقوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ (النساء 69)" [أضواء البيان 8/1]. ونصَّ على ذلك السيوطي رحمه الله في مطلعِ كتابه مُفحِمات الأقرانِ في مُبهَماتِ القرآن.

سابعا: التوجه بالثناء بين يَدَي الدعاء:

قال سيد قطب رحمه الله: "بعد تقرير تلك الكُلِّيات الأساسية في التصوُّر الإسلامي؛ وتقرير الاتجاهِ إلى الله وَحدَه بالعبادة والاستعانة.. يبدأ في التطبيقِ العملي لها بالتوجُّه إلى الله بالدعاء على صورةٍ كُلِّيةٍ تُناسِب جوَّ السورةِ وطبيعتَها: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ (الفاتحة 6-7)". [في ظلال القرآن26/1].

ثامنا: من آداب الدعاء:

قال ابن القيم رحمه الله: "لما كان سؤالُ اللهِ الهدايةَ إلى الصراطِ المستقيم أجلَّ المطالبِ، ونيلُه أشرفَ المواهب؛ علَّمَ اللهُ عِبادَه كيفيةَ سؤالِه، وأمرَهم أن يُقدِّموا بين يديهِ

حمدَه والثناءَ عليه، وتمجيدَه. ثم ذكَرَ عُبودِيَّتَهم وتوحيدَهم، فهاتـان وسـيلتان إلـى مطلـوبِهم: توسُّـلٌ إليـه بأسـمائه وصِفاته، وتوسُّلٌ إليه بعبوديته. وهاتـان الوسـيلتان لا يكاد يـرد معهمـا الـدعاء. ويؤيِّـدُهما الوسـيلتان المـذكورتان فـي حَـدِيثَي الاسـم الأعظـم اللـذين رواهمـا ابـن حبـان فـي صحيحه والإمام أحمد و الترمذي. أحدهما: حـديث عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قـال سـمع النبـيﷺ رجـلاً يـدعو، ويقـول: اللّهم إني أسألك بأني أشهدُ أنـك الله الـذي لا إلـه إلا أنـتَ الأحدُ الصمدُ الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولـم يكـنْ لـه كُفـواً أحـد. فقال: والذي نفسـي بيده، لقـد سـأل الله باسـمه الأعظـم، الـذي إذا دُعِـيَ بـه أجـاب، وإذا سـئِل بـه أعطـى، قـال الترمـذي: حـديثٌ صحيحٌ. فهـذا توسُّـلٌ إلـى اللهِ بتوحيـدِه، وشـهادةُ الـداعِي لـه بالوحدانيـة. وثبـوت صـفاته المـدلول عليها باسم الصمد، وهو كما قال ابن عبـاس: العـالم الـذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، وفي رواية عنه: هـو السيد الذي قد كمـل فيـه جميـع أنـواع الـسؤدد، وقـال أبـو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده، وقال سعيد بن جبير: هـو الكامـل فـي جميـع صـفاته وأفعالـه وأقوالـه. وبنفـي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: ولم يكن له كفواً أحـد؛ وهـذه ترجمـة عقيـدة أهـل الـسنة، والتوسـل بالإيمـان بـذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم" [مـدارج الـسالكين 1/23-24].

المبحث التاسع: صِراط القدوات:

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾

المبحث التاسع: صِراط القدوات:

أولا: سِرُّ إضافةِ الصراطِ إلى المنعَم عليهم:

قال ابن القيم رحمه الله: "لما كان طالبُ الصراطِ المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناسِ ناكبون عنه، مُريداً لسلوكِ طريقٍ مُرافِقُه فيها في غايةِ القلةِ والعزةِ. والنفوسُ مجبولةٌ على وحشةِ التفردِ، وعلى الأُنْسِ بالرفيق؛ نبَّهَ الله سبحانه على الرَّفيقِ في هذه الطريق، وأنهم هم الذين ﴿ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ﴾ (النساء 69)؛ فأضاف الصراطَ إلى الرفيق السالكين له. وهم ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ﴾؛ ليزول عن الطالبِ للهدايةِ وسُلوكِ الصراطِ وحشةُ تفرُّدِه عن أهلِ زمانِه وبني جِنسه، وليعلم أنَّ رفيقَه في هذا الصراط: هم ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ﴾؛ فلا يكترث بمخالفةِ الناكبين عنه له؛ فإنهم هم الأقلُّون قدْراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلةِ السالِكين؛ وإياكَ وطريقَ الباطل، ولا تغترَّ بكثرةِ الهالكين؛ وكلما استوحشتَ في تفرُّدِك فانظرْ إلى الرفيقِ السابق، واحرص على اللحاق بهم. وغُضَّ الطَّرفَ عمَّن سِواهم؛ فإنهم لن يُغنُوا عنك مِنَ الله شيئاً. وإذا صاحُوا بك في طريقِ سيرك، فلا تلتَفِتْ إليهم؛ فإنك

متى التفتَّ إليهم أخذُوك وعاقُوك" [مدارج السالكين1/21-22].

ثانيا: تعريف المغضوب عليهم والضالِّين:

1) قال الشنقيطي رحمه الله: "قال جماهيرُ من علماءِ التفسير: ﴿ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾: اليهود، والضالون: النصارى. وقد جاء الخبر بذلك عن رسولِ اللهﷺ من حديث عدي بن حاتم ﷺ. واليهود والنصارى وإن كانوا ضالِّين جميعًا مغضوبًا عليهم جميعًا؛ فإنَّ الغضبَ إنما خصَّ به اليهود وإنْ شاركهم النصارى فيه لأنهم يعرفون الحقَّ ويُنكِرُونه ويأتون الباطل عمدًا؛ فكان الغضبُ أخصَّ صفاتهم. والنصارى جَهَلَةٌ لا يعرفون الحقَّ؛ فكان الضلالُ أخصَّ صِفاتِهم؛ وعلى هذا فقد يُبيِّنُ أنَّ ٱلْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ اليهودُ قولُه تعالىٰ فيهم: ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ (البقرة 90)، وقوله فيهم أيضاً: ﴿ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ ﴾ (المائدة 60)، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٌ ﴾ (الأعراف 152). وقد يُبيِّن أنَّ ٱلضَّالِّينَ النصارى قولُه تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٍ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ (المائدة 77)" [أضواء البيان 1/9].

2) قلتُ: قد نصَّ على هذه الفائدة كثيرٌ من المفسِّرين، كالبيضاوي في [أنوار التنزيل 1/5]، والبغوي في [معالم التنزيل 1/55]، والسعدي في [تيسير الكريم الرحمن ص 39]. ولعلَّ ابنَ القيم رحمه الله مِن أحسنِهم عبارةً في هذا البابِ وألطفِهم إشارةً.

ثالثا: أقسامُ الناس بِحَسَبِ العِلم والعَمل:

قال ابن القيم رحمه الله: "انقسمَ الناسُ بحسبِ معرفةِ الحقِّ والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة؛ لأنَّ العبد: إما

أن يكون عالِماً بالحق، أو جاهلا بـه. والعـالم بـالحق إمـا أن يكون عاملاً بموجبه أو مُخالفاً له. فهذه أقسامُ المكلّفين لا يخرجون عنها البتة. فالعالمِ بالحق العامل بـه: هـو المـنعم عليه. وهو الذي زكّى نفسَه بالعلمِ النافعِ والعمـلِ الـصالح. وهو المفلح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ ﴾ (الشمس 9)0 والعالم به المتبعُ هواه: هـو المغـضوبُ عليـه. والجاهـلُ بـالحق: هـو الـضال. والمغضوبُ عليه ضالٌّ عن هداية العمـل. والـضالُّ مغـضوبٌ عليه؛ لضلاله عن العلمِ الموجِبِ للعمـل. فكـلٌّ منهمـا ضـالٌّ مغضوبٌ عليه؛ ولكـنَّ تـاركَ العمـل بـالحق بعـد معرفتـه بـه أولَى بِوَصفِ الغَضبِ وأحقُّ به؛ ومن هاهنا كان اليهودُ أحقَّ به، وهو مُتغلِّظٌ في حقِّهم كقولِه تعالى فـي حقهـم: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ ﴾ (البقـــــرة 90)، وقــال تعــالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝ ﴾ (المائدة 60)0 والجاهلُ بالحقِّ أحَقُّ باسـمِ الـضلال؛ ومـن هنا وُصِفَتْ النصارى به في قولـه تعـالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝ ﴾ (المائدة 77). فالأولَى: في سياق الخطاب مع اليهود. والثانية: في سـياقِه مـع النـصارى. وفـي الترمـذي وصحيح ابـن حبـان مـن حـديث عـدي بـن حـاتم قـال: قـال رسولُ اللهﷺ: (اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنـصارى ضـالُّون)" [مدارج السالكين 1/11-12].

رابعا: ختمُ الفاتحة بالتأمين سُنَّةٌ:

1) روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة﵁ أنَّ النبي ﷺ قال: إذا قال الإمام: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة 7) فقولوا: (آمين)؛ فمَنْ وافَقَ تأمينُه تأمينَ الملائكةِ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه).

2) قلتُ: وقد اعتبرَ العلماءُ التأمينَ سُنَّةً، مع اتفاقِهم على أنَّه ليس من القرآن، كما قال البيضاوي رحمه الله: "ليس مِن القرآن وفاقاً، لكنْ يُسَنُّ خَتْمُ السورةِ به" [أنوار التنزيل 5/1]، وقال البغوي رحمه الله: "السُّنَّةُ للقارِىءِ أنْ يقول بعد فراغِهِ مِن قراءةِ الفاتحةِ (آمين) بِسَكتةٍ مفصُولةٍ عن الفاتحة" [معالم التنزيل 55/1].

3) يجوز لُغةً مدُّ ألفِ (آمين) وقصرُها، كما قال البيضاوي رحمه الله: "جاء مَدُّ ألفِهِ وقصْرُها قال: *ويرحمُ الله عبداً قال آمينا* وقال: *أمين فزاد اللهُ ما بيننا بُعْدا*" [أنوار التنزيل 5/1]، وقال البغوي رحمه الله: "هو مُخفَّفٌ ويجوز عند النحويين ممدوداً ومقصوراً. ومعناه: اللهم اسمع واستجِبْ" [معالم التنزيل 55/1].

۞ المبحث العاشر:
خاتمة تفسير الفاتحة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، فلا بُدَّ لكلِّ مُسلمٍ مِن تَدبُّر معاني سورةِ الفاتحةِ؛ فإنَّها أعظمُ سُورِ القرآنِ الكريم، كما جاء في حديثِ أبي سعيد بن المُعَلَّى رضي الله عنه الذي رواه البخاري رحمه الله في كتاب التفسير: (قلتُ: يا رسولَ الله إنك قلتَ: لأعلمنَّك أعظمَ سورة في القرآن، قال: نعم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة 2)0 هي السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيم الذي أُوتِيتُه)!

وقد بيَّن العلماءُ عظمةَ سورة الفاتحة، فقال ابن القيم رحمه الله: "اعلَمْ أنَّ هذه السورةَ اشتملَتْ على أُمَّهاتِ المطالبِ العاليةِ أتمَّ اشتمالٍ، وتَضمَّنَتْها أكملَ تضمُّنٍ" [مدارج السالكين 7/1]. وقال القرطبي رحمه الله: "في الفاتحة ما ليس لغيرها حتى قيل: إنَّ جميعَ القرآنِ فيها، وهي خمس وعشرون كلمةً، تضمنت جميعَ علومِ القرآن. ومِن شرَفِها أنَّ اللهَ سبحانه قسَمَها بينَه وبينَ عبدِه، ولا تصحُّ القُربةُ إلا بها، ولا يلحق عملٌ بثوابِها؛ وبهذا المعنى صارت (أمَّ القرآن العظيم)... والفاتحة تضمَّنتْ التوحيد والعِبادةَ والوعظَ والتذكيرَ؛ ولا يُستبعَدُ ذلك في قُدرةِ الله تعالى" [الجامع 1/110-111].

وقال سيد قطب رحمه الله: "هذه هي السورة المختارة للتكرار في كلِّ صلاةٍ، والتي لا تصحُّ بدونها صلاةٌ. وفيها على قِصرها تلك الكليات الأساسية في التصوُّر الإسلامي، وتلك التوجُّهات الشعورية المنبثِقة مِن ذلك التصوُّر. وقد ورَدَ في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: (يقول الله تعالى: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. فنصفُها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما

سأل.. إذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ قال الله: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾ (الفاتحة3)0 قال الله: أثنى عليَّ عبدي. فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ (الفاتحة 4)0قال الله: مجّدني عبدي. وإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ (الفاتحة5)0قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ (الفاتحة6-7)0قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل). ولعل هذا الحديثَ الصحيحَ - بعدما تبيَّنَ من سياقِ السُّورة ما تبيّن - يكشفُ عن سِرٍّ من أسرار اختيار السورةِ لِيُردِّدَها المؤمنُ سبعَ عشرة مرَّةً في كلِّ يومٍ وليلةٍ؛ أو ما شاء الله أن يُردِّدَها كلَّما قام يَدعوه في الصلاةِ" [في ظلال القرآن 26/1].

فالسعيدُ مَن هداه الله إلى العناية بِأعظم سُورةٍ في القرآن والانتفاع بها: علماً وعملا، والموفَّقُ مَن أدركَ كمالَها وجمالَها وجلالَها؛ فقد قال السعدي رحمه الله: "هذه السورة على إيجازها, قد احتوت على ما لم تَحْتَوِ عليه سُورةٌ من سُوَرِ القرآن, فتضمَّنت أنواعَ التوحيد الثلاثة... وتضمَّنتْ إثباتَ النبوَّة... وإثبات الجزاء على الأعمال... وتضمَّنت إثباتَ القدر, وأنّ العبدَ فاعلٌ حقيقةً... بل تضمَّنتْ الردَّ على جميع أهلِ البِدَع والضلال... وتضمَّنَت إخلاصَ الدِّينِ لله تعالى" [تيسير الكريم الرحمن ص 39-40].

فالفاتحة جامعةٌ للعُلُوم النافِعة، وكافِيةٌ لِمَن أقبلَ عليها بنيةٍ صافِيةٍ وهِمَّةٍ وافِيةٍ، وشافيةٌ لمن داوى بها قلبه وعقلَه وجَسدَه، وما أصدقَ قولَ ابنِ عبد الوهاب رحمه الله: "آياتُ الفاتحة: كلُّ آيةٍ منها لو يعلَمُها الإنسانُ؛ صار فقيهاً, وكل آيةٍ أفردَ معناها بالتصانيف"!

ولله درُّ ابنِ القيم رحمه الله؛ ما أحسنَ قولَه: "مَن تحققَ بمعاني الفاتحة عِلماً ومعرفةً وعَملاً وحالاً؛ فقد فاز من كمالِه بأوفر نصيبٍ، وصارتْ عُبوديّتُه عُبوديةَ الخاصّة الذين ارتفعَتْ درجتهم عن عَوامِّ المتعبِّدين" [الفوائد لابن القيم ص26-28]؛ ذلك أنَّ تدبُّرَ الفاتحة يُثمِرُ الخشوعَ في الصلاة، وحرارةَ الدُّعاء، وحلاوةَ المناجاة!

أسألُ اللهَ العظيمَ ربَّ العرشِ الكريم أن يُفقِّهَنا في الدِّين، وأن يُوفِّقَنا إلى معرفةِ الذِّكر الحكيم، ويهديَنا إلى العلمِ النافع والعملِ الصالح، وأنْ يجعلَنا من عبادِه المخلِصين وعُلمائه الراسخين ودُعاتِه الربَّانيِّين. وأن يتقبل (أزاهير التفسير) قبولا حسنا، وأنْ ييُسِّرَ إتمامَ باقي الأجزاء برحمتِه ولُطفِه وعونِه ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(يوسف 100).

وأرجوِ ممن انتفع بهذا الكتاب من القُراء الكرامِ أن يدعوَ لي ولوالدَيَّ ولمشايخي ولمن أعانَ على طبع هذا الكتابِ والمسلمين أجمعين.

والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على رسولِ الله الأمين، وعلى آله وصحبِه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

الفهرس

(لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)

رواه البخاري



الطبعة الأولى: 1428هـ - 2007م